

أمير تاج السر

أرضُ السُودَان

الحُلو والمُرّ

رواية

أرض السودان الحلو والمُر

Land of Sudan Sweet and Sour

رواية

تأليف

أمير تاج السر



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0407-5



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

بحثتُ في سِيَر الأجداد عن الفطنة.

لم تكن سلعةً تباع في السوق،

ولا درسًا يلقيه المعلم ويمضي،

ولا خزانةً بلا قفل تئن ناضبة.

لعلها في الفجر، إن كان يوجد فجر،

لعلها في قلبي ولا أعرفها،

أو لعلها تلك الدهشة التي ارتسمت على الحاجبين،

وظننتها دهشة.

- 1 -

أجبن من قطة

بدأ الأمر مفاجأة كبرى لي، أنا جلبرت أوسمان، أو عثمان الإنجليزي، كما كان يسميني (سيف القبيلة)، تاجر الإبل غريب الأطوار، الذي صادقته زمانًا، و (عبد الرجال زافو)، أحد رقيق السودان المدهشين، والذي تعلمت منه الكثير، وكأفأته في النهاية بأن منحته الحرية، وكثيرون غيرهما من الذين صادف وعرفتهم في أرض السودان، وعشت بينهم أيامًا طويلة، ثم ليصبح ذلك الاسم رسميًا، ومعتمدًا لديّ، وأُضيف له اسم عربي آخر، بعد أن تغيرت معالم حياتي، بطريقة لم تخطر على بالي أبدًا.

مفاجأة في ليلة عادية من ليالي لندن، تلك الرتيبة، القاحلة نسبيًا، والتي لن تحدث فيها مفاجأة كبرى إلا نادرًا، وإن حدثت ثمة مفاجأة، فلا تعدو أن تكون بصقة سكران على وجهك الذي اجتهدت في غسله، تتجاوزها سريعًا، أو لسعة سوط من حوذي بلا ضمير، أراد استغلالك بمضاعفة أجره في رحلة قصيرة، وكشفت حيلته، وربما فتاة ليل عجوز من غجر الضواحي، تعرت كاشفة عن جسد فقد لمعانه، ولم يعد يملك إلهامًا أو حظًا يأتي بالقشعريرة.

أقول مفاجأة وأردد بيني وبين نفسي: مفاجأة.. مفاجأة.

فلم تكن بصقة سكران على الوجه، أتجاوزها وأمضي، ولا لسعة سوط حوذي تؤلمني قليلًا وتبرد، أو جسد غجرية عجوز ممتلئ بالنتوءات والحُفر، ألقي عليه أو لا ألقي عليه نظرة علي الإطلاق. وكما

كان معلمي في المدرسة الكنسية التي تخرجت فيها، (مستر ويلارد)، يسرف في ما يسميه(تحدي الذات)، ليكمل درسه، كلما تجرأ تلميذ مهرج وضايقه، أخذت أسرف في تحدي ذاتي لأكمل المغامرة، أنا مستر ويلارد نفسي، وأتحداها الآن أن تتراجع.

كنا نحتفل ببساطة في ذلك اليوم، على ضوء الشموع المتراقص، في واحد من الملاهي الحديثة التي بدأت تغزو المدينة في ذلك الحين، جالبة فوضى لذيذة، وجاذبة لفناني أوروبا وصعاليكها، ثمة ضحكات وهمسات، ورائحة تبغ، ومغنية من أرض البلقان، اسمها (دارينا ماريتش)، ذات صوت ملعون، وجسد نحيل مزخرف، تتلوى بين الموائد، ورواد كثيرون، أغلبهم تجار قلقون، وعشاق من الطبقة الوسطى، يتحاورون في شؤون العشق، وعدد من متقاعدي الجيش الخشنين، يحاولون التماسك ومغالبة نعاس السكر، وينهض أحدهم بين لحظة وأخرى، محاولًا شد المغنية إلى صدره، أو مجاراتها في التلوي ويسقط على وجهه.

كنا ثلاثة أصدقاء، نحتفل بصديق عزيز خرج مؤخرًا من السجن بعد أن قضى عدة أشهر بذيئة.(بيتر مادوك)، رامي القرص المعروف في دنيا الرياضة، والعسكري الذي تمرد على خدمة التاج البريطاني، برفضه السفر منتدبًا للعمل في أرض السودان، خلافًا لآخرين من منتسبي الجيش، حوكم وسجن وعانى كثيرًا، وفقد عسكريته التي كانت تعجبه وتعجبنا، وخرج لنحتفل به اليوم.

في البداية كنا في غاية التفهم، ظرفاء ووقورين، واسيناه كثيرًا، تفَّهنا من رتب العسكريين كلها ابتداء من أشرطة الجند الفقيرة على الأكتاف، إلى صقور الجنرالات ونجومهم، ورصصنا له عشرات المهن التي يمكن أن تشكل له بداية جديدة، بعيدة عن هوس الجيش، وتدر دخلًا يعادل دخل جنرال. ردد أحدنا مازحًا، إن القوادين ذوي العاهات والوجوه الباهتة، وأمراض الأجهزة الحيوية، يكسبون أكثر من أي

شخص آخر، متسولي الشوارع القذرين أيضًا يكسبون، وباعة زجاجات الخمر الفارغة، هم أثرياء هذا الزمن.

كان بيتر مكتئبًا حقيقةً، أميل للصمت الحزين، ومبتعدًا بوجهه عن مغنية البلقان، التي خصتنا برقصة استثنائية، شاركت فيها محاسن الجسد وعيوبه، وكان ثمة نهدان رخوان، يهتزان تحت قميصها الأبيض الشفاف.

فجأة وبعد كأسـي الرابعة أو الخامسـة، لا أذكر بالتحديد، وجدت نفسـي أصـرخ. وإصبعـي فـي وجـه بيتر، قريبًا من أنفه الـذي كأنه منقار صقر:

- أنت جبان يا رامي القرص. أجبن من قطة. لو كنت رجلاً لذهبت، وعشت المغامرة حتى النهاية.. أجبن من قطة... أجبن من قطة.

كنت متسـخًا بالسـكر في تلك اللحظة، وسـعيدًا إلى أقصى حد، ويقودنـي ارتـواء شـرير، أوقفنـي علـى قدمـي، وزج بـي فـي كل موائد السـكارى، وحلـق المغنيـة التي قطعـت وصلتها الراقصـة فجأة، وغنت بارتجال غير معهود، أغنية اسمها: أجبن من قطة، شاركها في أدائها كل المتوافرين في ذلك الليل الذي تعكر، بمن فيهم العسكريون المتقاعدون الذين أضافوا للأغنية قهقهات عالية، وبذاءات بلا حصر من إنتاج الحياة الوعـرة وثكنـات الكتائـب الممتلئة بالخبث والشـذوذ، وأصوات متباينة للقطط الرضيعة والجائعة، والتي على وشك أن تمارس المتعة. لم يقل رفيقانـا الآخـران شـيئًا، ظلا مذهولين أو محايديـن، لا أدري، ووجدت حيـن انتهـت الأغنيـة وعـدت إلـى الطاولة أترنح، وجه بيتـر وقد تحول إلى كابوس ويديه وقد اكتستا طاقة غريق.

كان الآن يشدني من ثيابي، يلقيني على الأرض، يركلني.. يصيح:

- إذهب أنت.. اذهب أيها البطل.. أيها القائد.. أيها المخنث.

لا أدري كيـف انتهـت تلـك المعضلـة، لا أعـرف من الذي أوقف ركلات رامـي القـرص القـوي علـي وجهي وجسـدي، من أوقف نزيف

أنفـي المندفـع كشـلال، وكيـف وصلـت بيتـي مضعضعًا، قـذرًا، ممزق الثياب، لكني لم أنم أبدًا.. كنت أحس بأذني تطنان بلا توقف، رأسـي يـكاد ينفجـر، وأتحسـس خاصرتـي اليمنـى المتورمـة مـن جـراء الركل المتواصـل وأصـرخ. ومـع اللحظـات الأولـى للصباح، وحيـن انطلقت بدايـات هيجـان الشـوارع، كان عنـدي قرار غير حكيم، اسـتخلصته من حماقـة الليـل الـذي بدأ ناعمًا، وتوعك: سـأذهب إلى أرض السـودان.. سـأذهب.. سـأذهب، سـأذهب. ليس لأني من عشاق المغامرة ولا لأني أتوقع مجدًا في ذلك المجهول، ولكن لأني قبلت التحدي الذي ركلني به صديقي القديم بيتر مادوك، رامي القرص القوي الذي كاد يقتلني في حفل كان هو ضيفه.

وجـدت القـرار غير الحكيم يحتل تفكيـري تمامًا، يغازلني بعنف، ويغار من كل أفكار أخرى تحاول استبعاده أو مشاركته الذهن، وجدته يجعلني أبتسـم، أنهض من فراشـي نشـطًا، بلا آلام. أستحم، أغني.. ولا أفكـر أبـدًا فـي صداقتي التـي ربما انهارت بواحد أصادقـه منذ أكثر من عشرين عامًا.. تسكعنا فيها معًا، قرأنا شارلس ديكنز، ووِيليام شكسبير، و آرثر كونان دويل، وشاركنا في حل ألغاز شرلوك هولمز المستعصية، وحفظنا أشعار الرومانسيين كلها، استخدمناها في لقاءات الغزل الشفاف. وكنا بين حين وآخر، نتخذ مقعدينا في دار أوبرا لندن التي افتتحت منذ عهد قريب، جالبة فنًا جميلًا لم يكن مألوفًا في ذلك الحين.

كنت قد حصلت على شهادة في الرياضيات من إحدى المدارس التابعة للكنيسة، التي كانت تتولى شؤون التعليم في ذلك الوقت، والتي حرصت على تذكيري بفضائل الدين، وخوارق القديسين، وصراع الخير والشـر منذ بدء الخليقة، أكثر من تعليمي نظريات البارون جان باتيسـت جوزيـف المعروفـة فـي التحليـل الرياضي، أهلتني تلك الشـهادة للعمل محصـلًا للضرائـب فـي بلد لا يفخر مواطنوه بالضرائب ولا بمحصليها،

واضطررت لترك تلك المهنة بعد زمن قصير من مزاولتها. معتمدًا على بعض النشاط الاستثماري الذي استطعت المشاركة فيه هنا وهناك، إضافة إلى دخل أسبوعي من والدي الذي كان يملك متجرًا متوسطًا لبيع الزهور ونباتات الزينة، ولديه زبائن دائمون. يحجون إلى متجره في كل مناسبة، صغيرة كانت أم كبيرة، وبعضهم كان من أثرياء لندن الذين يمكن أن يبتاعوا شجرة غاردينيا بظلالها، لأن طفلًا يحبو استطاع أخيرًا أن يمسك بمقعد ويقف على قدميه. وكان من حسن الحظ أنني شفيت من خطر الحب واحتمال الزواج مؤخرًا، حين تركتني بلا سبب، (هيلينا دا سيلفا)، تلك الشقراء ذات الأصول الأسبانية التي كانت تعشقني وأعشقها لأربع سنوات مضت، وكان يمكن أن تصبح خطرًا عظيمًا على القرار غير الحكيم الذي اتخذته، لو أنني ما زلت تحت رحمة عينيها الزرقاوين، وصدرها الذي لم يفقد عنفوانه أبدًا.

لن يقول أبي شيئًا لأنني كبرت وأملك أن أقرر أو لا أقرر، ولن تقول أمي شيئًا لأنها ماتت منذ ست سنوات بمرض كان اسمه حمى البطن، قضى علي الكثيرين في ذلك الوقت، واتضح بعد تقدم العلم في تلك السنوات الست، أنه مرض الكوليرا اللعين، وربما ناحت أختي الوحيدة أو خاصمتني وأنا أخبرها بقرار السفر، والأرجح أنها لن تفعل بسبب انشغالها في أشياء أخرى بعيدة عني.

كانت مكتبة لندن العامة في ذلك الحين، واحدة من أكبر مكتبات الدنيا كما أعتقد، غنية بالكتب والخرائط، والمخطوطات، وتوشك أن تجلب لك الحضارات كلها من زمن فيثاغورث وأرسطو طاليس، إلي كولمبس وفاسكو ديجاما، وهذيان المغامرين الذي وثقوه في شكل مذكرات، ولا بد توجد مخطوطات عن الشرق وإفريقيا، وأعرف أن رحلات كثيرة، صبت في تلك الأماكن، وما غزو تلك البلاد واستعمارها من قبل دولنا الكبرى، إلا نتاج معلومات استقيت من

شـرور المستكشـفين، الذين لا تخلو رواياتهم عن ذكر الثروة والعبيد، ونسـاء المجهـول الشـبقات، اللائـي ينتظـرن البيض المتحضريـن قرونًا حتى يحصلن على المتعة الحقيقية، ودائمًا ما كانت أسـرتنا الكبيرة في اجتماعاتها الموسـمية، مثل أعياد الكريسـماس، والقديسـين. وحفلات زواج الأقارب، تتحدث بلا كلل عن جد قديم. ذهب إلى إفريقيا صعلوكًا مشـردًا، وعـاد بعـد أربعيـن عامًـا، يحمل لقب سـلطان، منحتـه له قبيلة كبرى هناك، وظل يحكمها، يتحكم في عقول رجالها، وأجساد نسائها، ورضاعة أطفالها، إلى أن شاخ وتذكر بلاده، وركب البحر عائدًا، لكنها عـودة ذات رونـق، حمـل فيها أطنانًا من الذهـب والعاج والمجوهرات. شـخصيًا لم أكن أتذوق تلك القصة الركيكة، ولا كان ثمة دليل عليها، ولا أستطاع أحد أن يحدد قصرًا منيعًا، أو هكتارات أرض، أو أي ترف آخر، تبقى للعائلة من أثر سلطان ثري. أعتبرها حلم يقظة لعائلة تأثرت بروايات المستكشـفين المضللة، وقصص الرحالة المبالغ في زخرفتها، وتود أن تحوله إلى حقيقة في أيام الثرثرة الكبيرة.

لم أكن من زوار مكتبة لندن المنتظمين، ولا خطر لي في يوم من الأيام. أن أشيد أمام أحد بتنظيمها، وجهود مشرفتها (مس آدمز)، إحدى وجوه المجتمع البارزة، التي تتعدى موهبتها حدود رص الكتب وفهرستها، إلى أكثر من ذلك، وحكى كثيرون عن ثقافتها الواسـعة، وصوتها الذي يتحدى موسيقى القِرب التي يعزفها الجنود الملكيون، وأصوات الطيور المغردة، وأنها كانت تقرأ الشعر وتمثله في أمسيات الاستماع التي تقام أسبوعيًا في المكتبة، ويمكن أن تصبح فجأة ملاكًا بجناحين مكسورين، خرج من قصيدة حب وهجر لشـاعر من الرومانسـيين القدامى، قرصانًا بـلا قلـب، فـي ملحمـة عنيفة مـن ملاحم البرابـرة، أو فينـوس إغريقية، تمردت على ميثلوجيا الزمان القديم، وأشـعلت القاعة بالحماس. كنت حياديًّا تجاه المكتبة ومشرفتها، وكان أكثر ما أعجبني في مس آدمز، في

المرات القليلة التي رأيتها فيها، هي تلك الزهرة البنفسجية التي تضعها على طرف صدرها قريبًا من القلب ولا تغير لونها أبدًا. لم أبادلها أي حديث، ولا كانت تبدو متلهفة لتبادل الحديث مع زائر عادي، وكنت أشق طريقي إلى الكتب التي أريدها وحدي.

لم تكن مس آدمز موجودة حين دخلت المكتبة في ذلك الصباح المتفرد وسط صباحاتي العادية، وأخبرتني فتاة سوداء الشعر وفي إحدى عينيها حول أكل شيئًا من ملاحتها، إن المشرفة في إجازة، فقد وضعت طفلها البكر منذ يومين، سمته توماس، وتستمتع بصراخه وقذارته ولن تعود قبل شهرين على الأرجح. ضحكت الفتاة، وكانت في ضحكتها رنة أسى. لقد علمنا مستر ويلارد أيضًا في عدد من محاضراته، إن الضحكات ليست كلها ضحكات فرح، ويمكن بسهولة أن نقرأ الأسى في أشد الضحكات جلجلة. تجاوزتها ومضيت إلى رفوف الكتب التي كانت مرتبة بفن حقيقة، وقد قسمت إلى أقسام عدة، يحمل كل منها تخصصًا..كتب الرياضيات، كتب التاريخ، الفلسفة، الفن.. الأدب.. حضارات الشعوب.. أدب الرحلات.. كان هذا القسم الأخير، هو محطتي التي جئت من أجلها، ومن ثم بركت أمامه.

لا بد أنني قضيت ساعات الصباح كلها، أكثر من خمس ساعات، أقلب في الكتب التي اخترتها بمشقة، وظننت أنها قد تجدي، من دون إحساس بالوقت، لأن الفتاة الحولاء جاءتني بغتة تحمل مفتاحًا ضخمًا من الحديد، كانت تخبرني أن ساعات العمل قد انتهت، وعلي أن أختار كتابين على الأكثر، آخذهما معي، وأردهما لاحقًا لأستعير غيرهما حسب لوائح المكتبة، وكانت أمامي حصيلة بلا معنى، أو حصيلة لن تفيد جنوني ورغبتي في السفر، فليس ثمة كتاب واحد استطاع أن يرسم لي أرض السودان واضحة المعالم بعيدًا عن خيال مؤلفه وهوسه..هذا كتبه عالم حيوان مغامر، عشق نهر النيل ومخلوقاته، يركز فيه على لغة

التماسيح في ذلك النهر وتزاوجها، وكيف يستخلص المسك من جلدها، ويباع بأسعار عالية. هذا للسير ميلر، ذلك الثري المتغطرس، الذي ذهب لمتعة الصيد وحدها، برفقة جيش من موظفيه وعاد برؤوس نمور وفهود وأفيال محنطة، وبعض الجروح الملتئمة على جسده، التي قال إنها من أسنان فرائس لا تعرف الفرق بين صياد عبد، وصياد يحمل لقب سير.، وثالث عنصري بلا جدال، يحكي عن نظم الإدارة في إفريقيا، وكيف أن بستانيًا بلا مخ في واحدة من حدائق لندن المهملة، يمكنه أن يدير شؤون الزراعة وري المحاصيل، في بلد شاسع من تلك البلاد الغبية، وكان أطرف كتاب في تلك المحصلة، ذلك الذي ألفته مس أنطوني، إحدي القابلات البريطانيات اللائي عملن في أرض السودان تطوعًا، وقد خصصته لعادة الخفاض الفرعوني لدى النساء المنتشرة هناك وذهبت خصيصًا لمحاربتها، وانتهى بها الأمر، إلى أن اقتنعت بمزايا تلك العادة وما تجره من سعادة مستقبلية، وخضعت هي نفسها لخفاض فرعوني عنيف، أجرته لها إحدى القابلات المحليات.

استعرت كتاب تلك القابلة المخفضة فرعونيًا، وكتابًا آخر لمبشر مسيحي، غاص في عمق قبائل الوثنيين وآكلي لحوم البشر، وكتب يومياته التي أرسلها لأحد أصدقائه قبل أن يتحول إلى وجبة متبلة وضعت على مائدة أحد الزعماء. سجلت الفتاة الحولاء اختياري بتأن لا يناسب تعجلها لإغلاق المكتبة، وضحكت بالأسى نفسه، الذي تعلمتُ قراءته من محاضرات مستر ويلارد، وذهبت إلى بيتي آملًا أن تجدي القراءة المتأنية، وأحصل على شيء ذي جدوى.

كانت مفاجأة لي حين وصلت إلى البيت راكبًا عربة لا تشبه عربات الليل الكئيبة وحوذييها المحتالين، أن عثرت على صديقي رامي القرص بيتر مادوك، ينتظرني هناك، وقد تلون وجهه بالقلق.

كان قد استيقظ من شر الليل كما استيقظت، راجع ذاكرته

المشوشـة كما أخبرني، وعثر بداخلها على نهر قسـوة، وشـبح جريمة، وأغنية سـخيفة اسـمها أجبن من قطة، تمنى لو أنها تبخرت بمجرد أن أغلـق الملهـى الليلـي أبوابه ولـن يذكرها أحد بعد ذلك. كان دقيقًا جدًا حتى وهو يهم باستعادتي، نقَّب عن مغنية البلقان المزركشة بصبر، حتى عثر عليها في أحد الجحور، فتاة عادية منكوشـة الشـعر بلا أصباغ ولا لعنة، ترتدي قميصًا منزليًا رخيصًا، وتقلم أظفارها بمقص صدئ. سألها إن كانت قد رأته من قبل، أو غنت أغنية اسمها أجبن من قطة، فأقسمت إنها المرة الأولى التي تراه فيها، وتلك الأغنية ليسـت من بين ما تعرفه مـن الغنـاء علـى الإطلاق..لـم يكن من الضـروري أن نتعاتب أو نتبادل الاعتـذارات، وكانـت دقيقتان فقط، اسـتعدنا فيها صداقتنا القديمة، بكل توافقها وعدم توافقها.

مؤكد أن بيتر مادوك قد فوجئ وأنا أخبره بنيتي الأكيدة في السفر إلى أرض السودان.. قال بصوت متشنج:

- لا يـا رجـل..لا يـا جلبرت.. لقد سـحبت التحدي.. أقسـم أنني سحبته.

ولم تكن تلك اللا تعني لي شيئًا، ولا سحبه التحدي، يفيد في هذه المرحلة.. أنا ذاهب لا محالة، وكنت سأذهب حتى لو لم يتمرد على الخدمة العسكرية ويسجن، لو لم يكن ثمة احتفال بخروجه من السجن، وأغنية بلا معنى اسمها أجبن من قطة، كان ذلك قدر، وعلي أن أتبعه.

لم يمكث بيتر عندي طويلًا، استسلم لعنادي بعد مجادلات عنيفة حينًا، ورقيقة، حينًا آخر، ووعود بأنه لن يتحدى أحدًا مرة أخرى، وقال بعد صمت مؤثر:

- إذن مـا دمـت مصـرًّا على السـفر، اذهب لهذا الرجـل. إنه(هارولد سامسـون)، الملقب بالخبَّاز، فقد عمل في أرض السـودان سـنوات طويلـة، ويمكـن أن يفيـدك كثيـرًا، خاصة في تعلـم لغة العرب التي

يجيدها تمامًا.

لم يضف حرفًا آخر، وكتب لي عنوانًا على ورقة صغيرة قدمتها له، وذهب.. كانت خطواته ثقيلة متكاسلة، لا تناسب هيكله وسمعته الرياضية، وركلات الأمس المميتة، سرواله الأزرق بدا لي فضفاضًا على جسده، وفكرت أن ألحق به وأبكي، لكنني لم أفعل، كنت متعجلًا للغرق في الكتابين الذين استعرتهما، وحالما أنتهي من قراءتي المتأنية، سأذهب للخباز وأرى ما يمكن أن يقدمه لي.

بعد ستة أيام قضيتها أتنقل بين كتاب القابلة التي ذهبت كاملة وعادت محملة بموروث أهل السودان الشبقي العريق، وكتاب الوثنيين، آكلي لحوم البشر، للقس المسيحي الذي عانى في نشر تعاليمه وسط تلك البربرية، وانتهى وجبة على مائدة زعيم، انفتحت شهيتي للقراءة، ليس لأنني استفدت تمامًا من كتابين لم يكتبا أصلاً من أجل رحلتي، ولكن لأنهما كانا يملكان طعمًا خاصًا، ويثيران كثيرًا من التساؤلات. وجدت نفسي منغرسًا في طقوس غريبة، وعادات لم أكن أظن بأنها موجودة أصلاً، ونحن نقترب من أواخر القرن التاسع عشر بكل تحضره، واكتشافاته المذهلة، صرنا نألف التليغراف وما يختصره من مسافات ما كانت لتختصر قديمًا، نستمع إلى الغناء مسجلًا على اسطوانات دائرية، نسافر في سفن تتهادى في البحر بلا ريح ولا أشرعة، نمارس رياضة التنس الرشيقة المسالمة، وكرة القدم الحماسية، بدلًا من مبارزة السيوف الدامية، ونخيط ثيابنا على تلك الآلة السحرية التي اخترعها إسحق سنجر. لا أقول بأن الكتابان سحراني، ولكن منحاني شيئًا من المعرفة، أو الخبرة التي أحتاج إليها في كل وقت، وحتى لو ألغيت قراري غير الحكيم، وعدت كما كنت، متسكعًا في ليل لندن، صديقًا لرامي قرص قوي يستطيع في لحظة غضب أن يتحول إلى قاتل، ومتأوهًا أمام نافذة شقراء من أصول أسبانية، حتى تعيدني إلى عالمها مرة أخرى.

شكرت الكتابين على ما منحاني، وشكرت الحولاء سوداء الشعر، حين ذهبت إلى المكتبة مرة أخرى لأعيدهما وأستعير آخرين. وجدتها متأنقة في ذلك اليوم كأنها موظفة في متجر أزياء، ترتدي قميصًا ورديًا ذا خطوط زرقاء، وصندلاً من الجلد البني عليه نقوش شرقية، وعلى طاولتها كتاب اسمه: الجديد في تغيير شكل العيون، لطبيب لم أسمع باسمه من قبل، وخمَّنت أنها تتألم من حول عينها بشدة، وتبحث عن حل في تلك الكتب الدعائية التي يصدرها أشخاص، أغلبهم دجالون ولكن يملكون الجرأة.

كانت المكتبة شبه مزدحمة في ذلك اليوم، ثمة عشرات يتنقلون بين الرفوف، يتصفحون الأغلفة، وعدد من التلاميذ الصغار برفقة مشرفة شابة، محاصرون في ركن ممتلئ بالكتب والرسومات، ويبدو معظمهم غير راغب في تصفح كتاب، أو تأمل رسم، ويتلفت في المكان بلا معنى. ضحِكتْ بأسى كعادتها، سألتني إن كان الكتابان قد أعجباني، وبينت لها أنهما منحاني الكثير من المعرفة، طلبت كتابين آخرين من حصيلة نبش البارحة، وكانت فرصة للحولاء أن تلاحظ اختياراتي، تربطها بعضها ببعض، وتخبرني في صوت هامس فيه كثير من حيل عدم البراءة، إنها مثلي تعشق ذلك النوع من الكتب منذ كانت طفلة، وسعيدة بعثورها على قارئ يشاركها ذلك العشق. أردت أن أخيب ظنها بأنني لست عاشقًا كبيرًا مثلها كما تعتقد، وإنما أبحث عن بداية من أجل رحلة مجهولة، لكني لم أفعل، تركتها تعتقدني كما تريد، وتخطط للقائي ذات يوم خارج نطاق العمل، من أجل تبادل آرائنا، وربما أقنعت مس آدمز حين تعود من عطلتها، أن تستضيفني متحدثًا عن حضارات الشعوب في أمسية خاصة، وخرجت بكتابي نفسيهما، حين لم أجد شيئًا أفضل، وقد نسيتْ الفتاة كما يبدو في قمة تألقها الحماسي أن تسجلهما على دفتر الاستعارة، لفترة جديدة.

كان والدي عاديًّا جدًا، وهو يتلقى خبر قراري بالسفر البعيد حين أخبرته ذات صباح، كما كنت أتوقع، لم يقل لي حتى، ما هي أرض السودان؟، وأين موقعها في خارطة العالم؟، وما سبب اختياري لها بالذات من دون بلاد الدنيا كلها؟. كان وجهه هو وجه بائع الورد القديم نفسه، ابتسامته هي نفسها التي أعرفها منذ الصغر، الشيء الوحيد الذي فعله، هو أن التقط مفاتيح متجره من الطاولة وخرج. كانت أختي الوحيدة التي تعمل مدربة للسباحة في إحدى الصالات الرياضية التي بدأت تنتشر في ذلك الحين، مسافرة. تقضي عطلة في الريف البهيج، برفقة سباح محترف، تقدم لخطبتها مؤخرًا، وحتمًا سأخبرها حين تعود، فما زالت أمامي أشهر طويلة أستعد فيها، قبل أن أغادر، والآن جاء دور هارولد سامسون، الخبَّاز كما يسمونه، وكان علي أن أذهب إليه.

- 2 -

الخبّاز

كان الرجل الذي أقف أمام بيته الآن، وكما عرفتُ من بعض الاستطلاعات التي أجريتها مع أشخاص عرفوه، أو سمعوا به، قبل أن أذهب إليه، قد عمل لمدة عشر سنوات، مسؤولًا في منظمة إنسانية لمحاربة الرق في إفريقيا، وكان يديرها من أرض السودان، ويسافر أحيانًا إلى الدول المعنية بذلك القبح، لمتابعة نشاط معاونيه، لكن الأسئلة حوله قد دارت كثيرًا، وثمة همس شبه مؤكد، أنه كان نفسه تاجر رقيق، عاد بثروة لا تتحقق أبدًا من إشراف شبه طوعي على منظمة إنسانية، لكن بالمقابل كان كريمًا في ترحيبه بالذين يقصدونه طالبين إرشادهم للقيام بمغامرة، ومستعدًا لمنحهم خبرته وتعليمهم مبادئ اللغة المستخدمة في المجهول، حتى إذا ما واجهوا ذلك المجهول، لا تتعثر ألسنتهم. وقد قال لي رامي القرص مادوك، حين التقيته ذات مساء، وطلبت منه مزيدًا من الضوء عن ذلك الرجل، قبل أن أطرق بابه:

- إنه لن يطردك من بيته.. اذهب فقط، ولن تخسر.

لم يستطع أحد من الذين استطلعتهم أن يخبرني شيئًا عن لقب الخبّاز الذي لم أستطع ربطه بالرجل، فلم تكن ثمة علاقة بين ذلك اللقب الذي يطلق على الذين يعملون في صناعة الخبز، وبين رجل كان محاربًا للرقيق، أو تاجرًا من تجاره كما يشاع، والآن يقضي شيخوخة مستقرة إلى أقصى حد.

كان بيته أنيقًا حقًا، بيت لورد مفخخ، أو فارس من سكان أحلام

العذراوات في الليالي الجائعة، كان مبنيًا من الحجر الأملس، به أبواب و نوافذ مسيجة بالحديد المشغول، ثمة حديقة كبيرة تحيط به، ثمة اسطبل للخيل، ونافورة تضخ الماء، وكان في حي راق من أحياء لندن، وفي شارع بعيد عن ضجة السابلة. قضيت عدة دقائق أتلفت في قلق، أستعيد همس الذين ربطوه بتجارة الرقيق، تاجرًا لا محاربًا، وأستغرب من رجل بهذا الثراء، يمكن أن يستقبل مغامرًا من الطبقة الوسطى المنهزمة في كل زمن، ليعلمه حيل السفر.

كنت على وشك المغادرة حاملًا وساوسي، حين باغتني رجل، خمَّنت أنه ضالتي، وكان قد خرج من اسطبل الخيل، يحمل سوطًا طويلًا من الجلد، و يرتدي ثياب مروض.

- سألني في هدوء:
- ماذا تريد؟
- لا شيء يا سيدي.

قلت، واستدرت محاولًا أن أفلت من حصار سؤاله الذي كان سؤالًا عاديًّا، يمكن أن يسأله حتى متسول يسكن جحرًا، حين يرى غريبًا يتلصص على جحره في قلق. كان الآن يمسكني من كتفي.. يهزني برفق، يقول:

- الـذي لا يريـد شـيئًا لا يقف حائرًا أمام بيـوت الآخرين.. تعال إلى الداخل..

جلسنا على مقعدين متقابلين في الحديقة التي لم تكن كبيرة ولا مثمرة كما تخيلتها وأنا أطالعها من الخارج، وبدت لي أقرب للإهمال منها إلى العناية، ثمة أشجار سنديان وزنزلخت هندي، تبدو ذابلة، وزهور بيضاء وبنفسجية، على وشك أن تنهار، وفراشات قليلة تتحاوم في المكان. اختصرت إجابتي المعدلة عن سؤاله، إلى أقصى حد، وفوجئت بالرجل يتقبلني بلا نية في خلق أي تعقيد. نعم تقبلني وهنأني بدم المغامرة الذي أحمله، وأبدى استعداده لتزويدي بما يسميه (ترثبات القاع)، وهي

المعلومات التي ما زال يحتفظ بها في ذاكرته بالرغم من أنه تقاعد منذ سنوات، ورفض بشدة أن تنشر في كتاب، إيمانًا منه بأن الكتب وأرباحها المتوقعة، تفسد دقة المعلومة، وحين يجلس عائد من رحلة بعيدة كرحلته، ليؤلف كتابًا، فإنه لن يترك للنسيان فرصة ليكون حاضرًا في أي صفحة، قطعًا سيملأ صفحات كثيرة بالخيال الذي هو مضاد للنسيان. كانت لدهشتي هي نفس فكرتي التي أحملها عن مثل تلك الكتب بالرغم من أن الكتابين الذين قرأتهما مؤخرًا، قد استهوياني، ولم أدقق في صدقهما أو عدمه.. لقد اتفقنا أنا وهارولد الخبَّاز، قبل أن تنقضي عدة دقائق من لقائنا الأول.

كان يتحدث بتأن شديد، وأطالعه بتأن أيضًا، أرى وجه شيخ ربما كان في الخامسة والستين، أو السبعين، وحيوية مراهق لم يكمل السادسة عشرة. لم يبد لي أبدًا تاجر رقيق، لأن بائعي البشر في الغالب بلا قلوب، وأستطيع أن أؤكد أن مضيفي يملك قلب أم، في تلك اللحظة بالذات.

لم أمض مع المستر سامسون وقتًا طويلًا، وفَّرتُ أسئلتي الكثيرة التي تدور في رأسي ليوم آخر، وكنا قد اتفقنا أن أزوره ثلاث مرات أسبوعيًا، حتى يمنحني بعض المعلومات، ويعلمني مبادئ اللغة التي يجب علي استخدامها هناك، إن كنت أنوي الخروج بمغامرة ناجحة.. كان يقول:

– لغات الشعوب هي مفاتيحها، لن تدخل قلوب الغرباء مالم تقلد ألسنتهم. وقد استعمرنا الناس حين امتلكنا مفاتيحهم، وستعثر في أرض السودان على كثيرين من وطنك المستعمر، وأوروبيين آخرين، وعدد من الوافدين من شتى بقاع العالم، موجودين لأهداف مختلفة، يحملون تلك المفاتيح.

ستة أشهر شاقة، تلك التي قضيتها تلميذًا متدربًا عند هارولد سامسون، أعادتني إلى أيام دراستي الأولى في المدرسة الكنسية، وأنا أتعلم قواعد اللغة والرياضيات، وجفاف التاريخ، ووعورة الجغرافيا،

جنبًا إلى جنب مع كلام الرب، وما يمكن استخلاصه من العبر، عدت إلى الدفاتر والأقلام، وعصر الذهن في التركيز، وكان يمكن أن أعود إلى خجل التلاميذ وتهتهتهم، لولا إحساسي بأنني أتتلمذ باختياري، بعيدًا عن كل ضغط أسري، أو اجتماعي، ويمكن في أي لحظة، أن ألغي قراري الغريب، وأفر من حصص المعرفة الجديدة، إلى المعارف الأخرى التي اكتسبتها منذ زمن. وبعكس استرساله في دروس اللغة، كان مستر سامسون شحيحًا جدًا في وصفه لأرض السودان، وأعنى شكل البلاد ومجتمعها وتجارتها، وكل ما يمكن أن يضيف. كان يريدني أن أكتشف ذلك بنفسي حين أذهب وإلا كيف تكون مغامرة؟، وبرغم عدم اقتناعي بوجهة النظر تلك، إلا أنني لم أستطع مناقشته، أو تذكيره بترثبات القاع التي وعدني بها، وتقبلت الأمر مرغمًا.

كان أصدقائي القدامى قد افتقدوا ظهوري في تلك الليالي التي كنا نخوضها معًا، وعلموا بقراري من رامي القرص مادوك، وجاءني عدد منهم ذات يوم، يحملون وجوهًا كئيبة، واستعطافات دامعة، أن أبقى ولا أسافر، وما كانت لدي نية أن أستجيب لوجه كئيب أو لسان متوسل يترجاني، وفي غمرة انتشائي بتلك العزيمة التي امتلكتها، تمنيت كثيرًا أن أعثر على امرأة تشبه هيلينا دا سيلفا، تحبني بضراوة وأهجرها متعمدًا، من أجل رحلة المجهول.

بعد عدة مرات من ترددي على بيته، وجلوسنا في تلك الحديقة على المقعدين الخشبيين المتقابلين، لاحظت غرابة هارولد سامسون التي غابت عني في البداية، فقد بدا لي مختلاً يحمل كثيرًا من الاضطرابات. كان يستقبلني أحيانًا بحلة كاملة ورباط عنق، وقبعة، ووردة حمراء على جيب قميصه، وأحيانًا عاريًا إلا من ملابس داخلية مخططة، يتحدث كثيرًا عن إحساسه بأن العالم إلى زوال في وقت قريب، و يضرب أمثلة لا علاقة لها بذلك الإحساس، كاختراع آلة الفونوغراف، وآلة صناعة الثلج التي

تدمر خصائص الماء، وينهض فجأة في منتصف الدرس، يستلقي على ظهره في أرض الحديقة، ويمارس رياضة شد البطن. وحين تأتي ابنته الوحيدة، سارا التي كانت مغرمة بالفنون، مرتدية إحدى تنانيرها القصيرة، وحاملة أدوات رسمها، تنحني لتقبله، كان يغمز لي بعينه من دون أن أفهم شيئًا.. وفي أحد الأيام، امتلكت الجرأة لأسأله عن لقبه الذي لم أجد له تفسيرًا. كانت ردة فعله عنيفة لم تخطر على بالي أبدًا. في ذلك اليوم احتد هارولد سامسون بشدة، ردد من بين هياجه، إنه لم يكن خبازًا في يوم من الأيام، ولم يحمل لقبًا هزيلًا كهذا أبدًا، لا الآن، ولا حين كان طفلًا ومراهقًا، ولن يحمله في أي وقت من الأوقات التي تبقت له في الحياة. اعتذرت بتلعثم، وحاولت أن أوضح له بأنني لست مخترع اللقب، وإنما سمعت عنه، ودفعني الفضول لسؤاله، فأسكتني قبل أن أفتح فمي:

- لا مشكلة يا شاب، لقد تعودت على تجاوز التفاهات سريعًا، ولولا ذلك، لمت منذ عهد بعيد.

ثم هدأ واستأنفنا الدراسة، وحديث الذكريات الشحيح مرة أخرى، والحقيقة أنني لم اكتف بهياجه ونفيه القاطع، كان لدي فضول قاتل أن أعرف الحقيقة برغم تفاهتها، فماذا يعني لقب لرجل ربما لا يحبه ويضطر لنفيه كلما واجهه به أحد؟، وخلصت إلى النتيجة نفسها، فكل من عرف هارولد سامسون، أو سمع عنه يومًا، كان يردد.. نعم.. نعم الخبَّاز.

على أنني وبرغم كل تلك الغرابة، تعلمت منه الكثير، عرفت حتى لغة الشوارع المبتذلة، لغة البيوت والمجالس، لغة الصراعات في السوق والمواخير، متى أكون محتشمًا، ومتى أكون فاجرًا، وما هي علامات الخطر التي إن رأيتها أو سمعت عنها،، وجب علي أن أقطع مغامرتي وأعود، وفي آخر يوم من أيام الدروس. وفي اختبار عشوائي سريع، سألني عن اسم الضبع كما يسميه أهل السودان، قلت:

- المرفعين.

- اسم الثعلب؟
- الصبرة.
- أكثر الأشجار انتشارًا؟
- الزنزلخت الهندي والنخيل.
- ما معنى السراري؟.
- الرقيق من النساء اللائي يمتلكهن الرجل وتحق له معاشرتهن متي شاء.
- حفرة الدخان؟
- طقس من طقوس النساء في استعدادهن لملاقاة الرجال حيث يجلسن على حفرة يشتعل فيها خشب الطلح، الذي يجلب من الهند، و تنتقل رائحته العطرة لأجسادهن وتشعل غريزة الرجل.

صافحني لأول مرة مادًا يده، وكان يصافحني في السابق بهزة خفيفة من رأسه الصغير، الذي ما زال يحمل شيئًا من الشعر. طلب مني أن أذهب إلى بيتي، أرتدي أزهى ملابس عندي وأعود، ثم صحبني بعد أن عدت، إلى مطعم صغير قريب من بيته، وهناك تعشينا، وتبادلنا الأنخاب، ورقص هارولد سامسون برشاقة، أمام مغنية جرمانية كانت تؤدي وصلة غنائية ضاجة، ولم ينس وهو يودعني أن يوصيني بالذهاب مباشرة إلى نُزل (مستكة)، أحد أماكن السكنى المعروفة في الخرطوم، عاصمة أرض السودان، إن كان ما يزال موجودًا، لم تقض عليه التغيرات، من هناك يجب أن أبدأ، ثم أتوغل في الحياة بعد ذلك.

تلك الأثناء كانت أختي قد عادت من رحلة الريف البهيجة كما سمتها، والتي قربتها أكثر من خطيبها السباح المحترف، وأهله الذين يقيمون في تلك البلدة الريفية الصغيرة، أخبرتها بالتفصيل عن مغامرتي التي أوشك القيام بها، ولم تبك أو تنفعل، كانت في قمة الانتشاء كما يبدو، ولم ترد أن تفسده بكآبة طارئة، تمنت لي التوفيق وذكرتني بأن

أودعها قبل يوم الرحيل، وما كان ذلك شيئًا يحتاج إلى تذكير.. فقط كان إحساسي ساعتها، بأننا نعيش في مجتمع أناني مغلق برغم ادعائنا غير ذلك. لا أحد يهتم بأحد، لا أب يسأل عن إيضاح، ولا أخت تبكي جنونًا، وهي تسمع برحلة ربما يضيع فيها أخ وحيد.. كانت الصداقات في رأيي أقوى من القرابة، وما فعله رامي القرص والآخرون، كان أفضل كثيرًا من ردود الأفعال داخل البيت.

- 3 -

ليلة دوريس

قبل موعد سفري بأسبوعين تقريبًا، التقيت بالفتاة الحولاء، سوداء الشعر التي كانت مشرفة على مكتبة لندن، أثناء عطلة مشرفتها الأساسية. واتضح أن اسمها (دوريس). كان الأمر مصادفة غريبة، في بيت رسام فرنسي اسمه ديسوا، يقيم في لندن منذ سنوات، وكنت أعرفه ودعاني لرؤية لوحاته الأخيرة التي سماها (ضد التشوه) وينوي عرضها قريبًا في إحدى صالات الفنون الحديثة. باغتني وجود دوريس بشدة، وكنت في غمرة انشغالي بالاستعداد للسفر، كل تلك الأشهر الماضية، قد نسيت إعادة الكتابين الذين استعرتهما، ثم جددت استعارتهما، في المرة الأخيرة، وقد أحسست بالخجل، وفكرت أنها قد تعتبرني سارقاً، لكن الفتاة لم تبد في تلك اللحظة، مشرفة مكتبة أبدًا، ولا تذكرت حتى أنها تعرفت علي بسبب الكتب، أو جاءت بسيرة مس آدمز، ولدرجة ظننت أنني التقيتها في مكان آخر، غير مكتبة لندن. كان شعرها مقصوصًا بعناية، قميصها أسود قصيرًا. يفوح من جلدها عطر مهووس، وكأن عينها الحولاء قد تعدلت قليلًا عن آخر مرة رأيتها فيها، وحين نهضت من جلستها مبتسمة، لتحيتي، شاهدت خلف مقعدها لوحة كبيرة من أعمال ديسوا، تبينها وجهًا في غاية الجمال، بلا أي عيب خلقي. لا أدري لماذا انجذبت إليها في تلك اللحظة، لماذا أبقيت يدها داخل يدي لفترة، أطول من فترات التحايا المعروفة، لماذا وسوست في أذنها، وتركتها توسوس في أذني بارتياح، وكانت وسوسة بعيدة تمامًا عن كتب الرحلات التي قالت إنني أشاركها عشقها. أحسست

وأنا أشاهد لوحات الفرنسي، التي كان معظمها فنًا يجاهد لتعديل عيوب الحياة في لندن، بوجود دوريس في كل ركن فيها. ها هي في لوحة الجسر المرمم بالفرشاة، في لوحة الكاتدرائية القديمة المعدلة بريشة الحداثة، وفي هذا الحفل الذي يفترض أن يكون مبتذلًا وضاجًا، وحوله الرسام إلى حفل متزن.

في تلك الأمسية التي لا تنسى، عرفت عن دوريس أشياءها الحقيقية، لم تكن عاشقة لكتب الرحلات كما أخبرتني من قبل، وقد نشأت في بيئة ورعة، وكانت مشروع راهبة عذراء، تموت في دير قاحل، بامتياز، لولا تمردها على بيئة الورع، وإصرارها على الحياة طليقة في لندن، لم تدرس في الجامعة مثلي، ولم تعثر على رفيق حقيقي، يتناسى حول عينيها، ويضمها إلى صدر العشق أبدًا، بالرغم من أنها قد تجاوزت الثانية والثلاثين. وقد كان وجودها في المكتبة في غياب المشرفة، تمضية للوقت لأنها كانت بلا عمل منتظم، والآن بعد أن عادت المشرفة، عينوها مشرفة مساعدة، وهي سعيدة بذلك، ومجددًا لم أخبرها شيئًا عن مغامرتي التي أوشكت على البداية، كانت تظن بلا جدال ومن خلال قراءتي لوجهها وسلوك يديها وابتسامتها، أنها عثرت على الرجل المطلوب أخيرًا، ولم أرد أن تعلم أنها عثرت على سراب رجل، سأتركها تكتشف ذلك فيما بعد، وحين أكون قد غادرت بلا تعقيدات ولا دموع امرأة عثرت عليها مصادفة.

كان مقر سكناها الذي أخذتني إليه بعد ذلك، غرفة متواضعة في حي شديد الزحام، تتناثر في شوارعه البرك، ثمة باعة كثيرون لسلع متباينة، وأطفال يتسلون برش بعضهم بفقاعات الصابون التي كانت لعبة حديثة في ذلك الوقت، ونساء بلا أناقة يتجولن، وعدد من الرجال، يحملون وجوهًا مرهقة، أو يتثاءبون، وكان ثمة عازفو جيتار ومغنون بلا حناجر موهوبة، يتسولون. توقفنا قليلًا عند فتاة على مقعد متحرك بعجلات من الخشب،

يتحلق حولها الناس، كانت تنحت الأسماء على قلوب خشبية ملونة، نحتنا اسمينا على قطعتي خشب بنيتين، وفاجأتني قارئة كف شابة حافية القدمين، بأن أمسكت بيدي، وبشرتني بمستقبل وردي ناعم، واستلمت أجرها.

لم أنس ليلة دوريس تلك، كما أسميتها، ولن أنساها أبدًا.. كانت أشبه بليالي العرس التي تستبسل فيها العروس لتقهر حياءها، تتحول إلي جمرة عشق ملتهب بلا حدود.. كانت دوريس جمرة، ليست عذراء لكن فيها لهب العذارى ولا تملك خبرة المجربات، لكن عندها خبرة، ارتديت جسدها وارتدت جسدي، ولدرجة خفت فيها أن يكون ذلك هو المستقبل الوردي الذي بشرت به قارئة الكف الحافية. تركتها في الصباح، على موعد جديد، بل مواعيد متجددة، وكنت أكبر سراب ربما عبر بحياتها، ذلك أنني لم أر دوريس الحولاء مرة أخرى بعد ذلك أبدًا، وبعد حوالي قرابة العام، من ذلك، قرأت مصادفة كتابًا أصدرته بعد أن تحولت إلى كاتبة مشردة لم تنل حظًا من الشهرة، وجدته عند أسكتلندي عجوز من هواة القراءة، اسمه جيرمان، ويسميه المحيطون به قرنفل، نسبة لعشقه للقرنفل، واستخدامه بكثافة في كل شيء يؤكل أو يشرب، حتى الماء العادي. كان يعمل مسؤولًا في مشروع خط السكة الحديد، في أرض السودان ومنحني وظيفة في المشروع، وكان الكتاب قد أرسل له من لندن. كان اسم كتابها (قدر الحولاء)، تأملت غلافه الذي يحمل صورة فتاة بعين معطوبة، وركضت بين صفحاته، لأعثر على نفسي بداخلها، سخيفًا قاسي القلب إلى أقصى حد، قدمت عربونًا لم يكن حقيقيًا أبدًا، كان أكذب عربون يقدمه رجل لفتاة استعدت للحياة معه.. لم أبك كما كان مفترضًا أن أفعل، ولم أحس بفداحة من أي نوع، وقلت للقارئ العجوز وأنا أرد إليه كتابه. بأنه لم يعجبني على الإطلاق.

الوقت مناسب لغرس الشجرة.

هذه أيضًا كانت إحدى عبارات مستر ويلارد التي لم تضع من الذاكرة. كان يستخدمها في لحظات النشوة العظمى، حين يحس بنا وقد بدأنا الاستيعاب، فيغرس الشجرة، وكان في الواقع يقتلع جذورها حين يمدنا بأكثر المسائل الرياضية صعوبة. ترى هل سأغرس الشجرة؟ آم سأقتلعها؟، لا أدرى بالتحديد.

قبل سفري بيومين، وكانت هرمونات القلق قد بدأت تعمل في دمي بجدارة، أرتب حقيبتي القماشية، وأبعثرها وأعيد ترتيبها من جديد، جاءني رامي القرص بيتر مادوك، الرجل الذي جرعني المغامرة حين تحداني في ليلة الشر تلك، وقبلت تحديه. كان قد حصل مؤخرًا على وظيفة محرر لصفحة الحوادث في صحيفة حديثة الصدور، وبدا مقتنعًا بها، وسخَّر لها طاقته كلها بالرغم من بعدها الشديد عن تخصصه، كان يحمل صندوقًا من الورق المقوى، فضَّه أمامي وأخرج من قاعه خنجرًا مذهبًا ذا نصل يلمع، قال:

– خذ هذا يا جلبرت، لا تعرف إن كنت ستلتقي بشرًا أم ذئابًا.

قبلت هديته بابتسامة بالرغم من اضطرابي، وبالرغم من رائحة الهدية العدائية، لكني تركتها في غرفتي، ولم أصطحبها معي في رحلتي، لم أكن من هواة حمل الخناجر ولا خطر لي في تلك اللحظة إن خنجرًا مصقولًا لامع النصل مثل هذا، سيقيني من لسعة القدر، إن كانت ثمة لسعة للقدر تنتظرني هناك.

-4-

دولة البحر

أخيرًا وصلت إلى أرض السودان.

نعم وصلت قلقًا ومتلهفًا، ومدهونًا بشبق المغامرة اللعين الذي ازداد ضراوة طوال الرحلة.

لن أحكي كثيرًا، عن تلك الأيام الطويلة، التي قضيتها في باخرة مجهزة من صنع التكنلوجيا الحديثة، أبحرت بها من ميناء ليفربول، أحد أهم الموانئ البريطانية، وتهادت من بحر هادئ إلى محيط هادر، إلى صخور وجزر، ومياه ضحلة، وعميقة حتى ميناء الإسكندرية في مصر.

كانت رحلة ناعمة بمقاييس الرحلات التي قرأت عنها في الكتب القديمة التي استعرتها من عند دوريس الحولاء، بالرغم من دوار البحر الذي لم أكن أعرفه سابقًا ولم أسمع به إلا حين أصابني في الأيام الأولى من الرحلة، وأقعدني في الغرفة الفسيحة نسبيًا، والتي أتشاركها مجبرًا، من دون أي خيار آخر مع عشرة رهبان مسنين، من خدم الكنيسة الأرسوزكسية، منغمسين في أذكارهم وصلواتهم وتحسس صلبانهم المدلاة على الصدور طوال الوقت، زاهدًا عن تناول وجبات الطعام في الغرف المخصصة لذلك، وبعيدًا تمامًا عن تلك الحفلات الراقصة والمسابقات الحماسية، التي كانت تعقد على سطح الباخرة المضاء بالفوانيس الملونة، وتقدمها (سونيا أفرين)، إحدى ملكات الجمال كما أخبروني، ولم أكن قد سمعت بها من قبل ولا بتلك المسابقات التي تصير النساء ملكات على عروش لن يمكثن فيها طويلًا، وكانت في رحلة إلى مصر بدعوة من تاجر مجوهرات

يهودي، التقاها في لندن، وأرادها شركًا مدججًا باللآلئ، ربما تسقط فيه نساء الشرق.

كان إحساسًا قاسيًا بلا شك، أن تحاول استخدام قدميك في الوقوف أو المشي، ولا تستطيع، تبحث عن ذاكرتك في لجة الدوار المجنون، ولا تعثر عليها، وتستفرغ أحشاءك كلها هلعًا. وحين استرددت عافيتي بعد ذلك شيئًا فشيئًا، وأصبح بإمكاني تذوق دوار البحر كما أتذوق فاكهة طرية، خرجت إلى السطح في كامل أناقتي، حلة بيضاء فصلتها قبل سفري بأيام عند خياط موهوب، ورباط عنق أحمر من الحرير الاصطناعي، ووشاحًا من القطيفة، دليته على صدري، تماشيًا مع موضة ذلك الزمان. أكلت بشرهٍ وشربت بلا مبالاة وغنيت ورقصت على أنغام فرقة السمك البحري، وهي فرقة شبابية لم تكن معروفة على الأرض، وظهرت بظهور تلك الباخرة، نوعًا من الترفيه عن المسافرين في الرحلات الطويلة، وأفرادها في الحقيقة بحارة من طاقم الباخرة نفسها، يتخففون من أعباء العمل حين يأتي المساء، يرتدون سراويل سوداء ضيقة، وقمصان برتقالية بلا أزرة، وينفلتون بصعلكة أشد همجية من صعلكة مغنيي الأرض. وكان (جون هايدي)، أو جون القصير كما يسمونه، بالرغم من طوله الفارع، هو المغني الرئيسي للفرقة. ولد جذاب ومزعج في نفس الوقت، يملك عينين براقتين، وشعرًا طويلًا منسدلًا على ظهره في شكل ضفيرة معقودة بشريط أحمر، ويستطيع بلا جهد كبير أن يخترع جمهورًا وصخبًا، وأيضًا علاقات حب عابرة تنتهى بنهاية الصخب، وعودته بحارًا عاديًّا غارقًا وسط الزيوت والشحوم، ومراقبة تقلبات البحر.

كان ما استرعى انتباهي في تلك الباخرة، ركابها الكثيرون. رجال ونساء من أجناس متباينة، وأعمار متباينة، فيهم حسناوات مزركشات بموضات ثمانينيات القرن التاسع عشر الجديدة، وعجائز تقليديات يرتدين تنانير الصوف، وقمصان الستان المخيطة يدويًا، وعدد من الرجال

بعضهم حيوي وهادر، وبعضهم مجرد جثث مشتتة في المقاعد أو على السطح، تحت الشمس في ظهيرات السفر. وفي ساعات صفاء الذهن التي استعدتها بعد أن تسرب دوار البحر، كنت أتأمل الجميع بتأن، أحاول أن أتخيل مهَنًا أو دواعي سفر ملحَّة قادتهم إلى تلك الرحلة، ونادرًا ما كنت أحصل على نتيجة، لن يكون الجميع مغامرين مثلي، حركتهم ركلات قاسية من رامي قرص قوي في ليلة تافهة من ليالي لندن، وحين حدثت احتكاكات، و ثرثرة لا بد منها بعد ذلك، وأمكن أن يسأل أحد رفيقه في السفر عن وجهته، وأسباب ركوبه الخطر، اكشفت بأنني أغامر شبه وحيد في باخرة تقل مسافرين بلا وجهة محددة، وباستثناء سونيا ملكة الجمال المدعوة إلى مصر من قبل تاجر المجوهرات اليهودي، وعدد قليل من السياح العاديين المتوجهين لزيارة آثار مصر العريقة، كان الجميع مجرد هواة بحر، يركبون ويعودون إلى ديارهم، يمكثون شهورًا أو سنوات ليركبوا مرة أخرى، وقد أخبرني مسن يدعى (لويجي آر كاميلسون)، يدخن الغليون، ويغازل النساء ويحكي قصصًا مطولة عن غرائب البحر، وكهوفه وحورياته، وشياطينه، إنه لم ير المدن بصورة جادة، ولا يعرف تفاصيلها منذ أكثر من أربعين عامًا عمل فيها قبطانًا للسفن الشراعية، التي قادها في كل البحار المتوفرة في الدنيا. حتى الرهبان الغارقين في أذكارهم، كانوا عشاق بحر كما أخبرني أحدهم في لحظة استراحة نادرة بين الصلوات والصلوات، بالرغم من أنني لم أرهم أبدًا يتأملون الموج أو النوارس، أو يحكون قصصًا عن جنيات يخرجن في الليل راكبات ظهر موجة هادرة. كانت فلسفة غريبة بلا شك، وشيئًا لم أتوقعه أبدًا، أن يصبح البحر موطنًا، بكل ما فيه من خوف، ومغامرة واحتمال ضياع في تلك اللجج الهادرة،

في إحدى الأمسيات، طلبت مني ملكة الجمال سونيا، أن اشارك في فقرة من فقرات مسابقاتها اليومية التي تُرصد لها جوائز رمزية، مثل وعاء خزفي أو خاتم من النحاس أو وردة من البلاستيك، بعد أن ظهرت تلك

الصناعات الخفيفة في الأسواق. كانت تقف في وسط القاعة المزدحمة بالعيون والأنفاس، تغازل الحضور بثوب أبيض على شكل سمكة، يعض على جسدها مبينًا تفاصيله الدقيقة، وكنت على مقعدي أتأملها، وأتذكر ليالي الحب البعيدة، والأسبانية هيلينا دا سيلفا، وصدرها الذي لم يفقد عنفوانه منذ غزت قلبي ونحرته، وشبع العزاب الذي كان متاحًا بشدة، في أي ليلة تافهة من ليالي لندن. لم أكن من هواة المسابقات المرتجلة التي يعدونها ترفيهًا، ولا خطر ببالي حين أعددت للمغامرة، أنني سأصادف فاتنة منتخبة كملكة، تسأل، وعلي أن أجيب.

في البداية هززت رأسي بعلامة الرفض القاطع، أتبعت هزة الرأس بإشارة من يدي، وفوجئت بالملكة سونيا، بكامل لمعانها. تقترب مني، تشدني من يدي، وتوقفني في وسط الأنفاس والعيون، مشاركًا قسريًا، بلا خيار آخر. لم أرتبك حقيقة، لكنني توجست. أكثر الأمور تفاهة في الدنيا أن تُسأل عن أصل حورية البحر مثلًا، أمام الناس، ولا تستطيع أن تنطق بحرف، عن أول قديس مشى على البحر من دون أن تبتل قدماه، وتقف عاجزًا. وعن زعماء ثورات الجياع التي اندلعت في أوروبا في القرون الماضية، ولا تكون حتى قد سمعت عن تلك الثورات من قبل. فكرت في أسئلة كثيرة، وأجوبة كثيرة أيضًا، ووجدت نفسي في الدقائق التي سبقت صوتها الموسيقي، أفترض خزيًا ملعونًا ربما يجعلني أنزوي في غرفتي بجانب رهبان الأذكار المسنين بقية الرحلة، ولا أخرج للسطح آبدا.

كان سؤال الملكة مباغتًا، وغريبًا، وبعيدًا تمامًا عن أي توقع خطر ببالي في تلك اللحظة، لم يكن في الحقيقة سؤالًا، ولكنه طلب لإلقاء محاضرة، أعلنته بحركة ناعمة:

– جلبرت أوسمان. أيها المغامر، يريد الأصدقاء أن يعرفوا شيئًا عن أرض السودان التي ستذهب إليها.. هل تحدثنا قليلًا، من فضلك؟

صفق القبطان المتقاعد لويجي آر كميلسون بحرارة، وتبعه الآخرون،

غمزت فاتنة من الجالسات في الصفوف الأولى بعينها مشجعة، وأطلق أحدهم صافرة مزعجة، خمَّنت أنه جون القصير، المغني الرئيسي لفرقة أسماك البحر، بالرغم من أنني لم أره في صفوف الجالسين، وكان قد أدى فقرته برفقة زملائه الآخرين وانصرف. لقد صوبت الملكة سونيا سهمها بدقة، وكان تصويباً غريبًا، ذلك أنني لم أبح بوجهة رحلتي لأحد قط، تركتهم يعتقدونني عاشقًا للبحر كمعظم ركاب السفينة، ركب بلا وجهة، وسيعود إلى لا وجهة أيضًا. وقبل أن أفتح فمي لأتحدث، أخذت أفكر في رفيق رحلة محتمل ربما أخبرته، ولم أعثر على أحد..

لا بد أن ذلك الذي ذكرته عن أرض السودان، استقاء من أبحاثي المطولة في الكتب التي استعرتها من مكتبة لندن، ودروس الخبَّاز رونالد سامسون، قد استهوى الجالسين بشدة، وجدتهم يتفاعلون بترف، يستغربون من الدقة في المعلومة، والثقافة الواسعة التي أملكها، ولم يجرؤ أحد على اعتبار محاضرتي خيالًا ويمتدح ذلك الخيال، حتى وأنا أتحدث عن مس أنطوني، تلك القابلة الإنجليزية التي ذهبت إلى أرض السودان كاملة الأنوثة، وعادت بموروث شبقي غاية في التخلف، والشيخ المنادي، ذلك الولي الصالح في عرف أهل السودان، الذي يخرج من قبره في مواسم الجفاف، ينادي السحاب المسافر، فيتوقف لندائه، ويستحيل مطرًا غزيرًا، أو حياة السادة الرجال في تلك البلاد، ومتعتهم بامتلاك نساء بلا حصر، يطلق عليهم لقب السراري. أستطيع آن أقول بأنني تحولت فجأة من مسافر عادي هزمه دوار البحر عدة أيام في غرفة يتشاركها مع رهبان، إلى نجم ستستضيفه الملكة سونيا في كل ليلة، وسيحشو عقول أولئك الهواة بثقافة لم تكن لديهم، عن وطن تستعمره بريطانيا، ولم يفكر أحد أبداً لماذا تستعمره؟. لم أقل شيئًا عن الثروة المدلوقة في الأرض، فقد قيل ذلك كثيرًا في الكتب المهووسة، وأضفت من عندي تصورات أعددتها من قبل عن أرض أنا ذاهب إليها، وكانت مغامرتي الآن قد

أصبحت مكشوفة، وواضحة، وسمع بها حتى أحط عامل من عمال وقود الفحم في قاع السفينة. وبالرغم من أن الفرصة كانت متاحة لسؤال ملكة الجمال عن كيفية اهتدائها إلى وجهتي ولم أخبر أحدًا، إلا أنني لم أفعل ذلك، وفوجئت بها تخبرني طواعية، إن معلوماتها عني وعن كل رفقاء الرحلة، استقتها من الشركة التي تمتلك الباخرة، والتي كانت تتحرى جيدًا عن مسافريها، قبل أن تدرجهم في سكة السفر.

سألني القبطان لويجي وكان أنفه أحمر بفعل كثافة الكحول في دمه،، وثمة تجاعيد غزيرة تستولى على وجهه، ورعشة في لسانه:

- لماذا أنت ذاهب إلى أرض السودان إذن أيها الشاب؟.. لم تقل لنا السبب.

كان سؤاله مشروعًا بلا شك، ولم تكن لدي إجابة مشروعة في تلك اللحظة ولا أي لحظة أخرى. لست موظفًا في حكومة صاحبة الجلالة، تم نقله بغير رضا وينفذ الأوامر، ولا باحثًا عن ثروة أو مُلك، أو حتى قبر مجهول في بقعة مجهولة، ولست إلا جلبرت أوسمان، مغامرًا عاديًا من الطبقة الوسطى، يخوض دروب المغامرة مصادفة لأول مرة. صارحني لويجي القبطان في ذلك اليوم بإحساسه القذر الذي يحسه عن ضآلة حجمه، وإنه ركب السفن الشراعية في مياه مطروقة منذ الأزل، وخالية من نكهة المغامرة قال:

- تمنيت لو كنت حوذيًا أو سايس خيل، أو متسول متقدم العمر، بيدين مرتعشتين. أنا بحار بلا طعم.

وكاد بعد أن تجرع كأسه الخامسة من شراب مر كما يبدو، ويتجرع منه بين لحظة وأخرى، أن يمزق ثيابه ويبكي.

في البداية لم أكن أعرف لماذا صادقني المغني جون القصير فجأة، لماذا أقلع عن علاقات حبه العابرة التي كان ينشئها أثناء الصخب، وامتدح رجولتي وعنفواني وشاربي الأشقر الكثيف في أغنية مرتجلة ذات ليلة،

ظننت وظن الحاضرون جميعهم، أنها امتداد لتكريم أستحقه بعد أن غدوت فارسًا، صفقت للأغنية، ورقصت على أنغامها، وشاركتني سونيا برشاقة لا بد كانت من تلك المعايير التي اختيرت بموجبها ملكة، لكني شاهدت المغني مرات عديدة يتسكع أمام غرفتي بملابس العمل الملطخة بالشحم، وأخبرني بأنه منجذب لزملائي الرهبان وأذكارهم، وتمنى في أيام صغره أن يصبح راهبًا، لكن ذلك لم يتحقق لأسباب كثيرة. أخبرني من دون أن أسأله بأن أباه كان خادمًا عند سيد عربيد، ضاعت ثروته كلها، وأمه ماتت محترقة وهي تعد الطعام على موقد معطوب، وجيرانه الأوائل في عهد الطفولة، كانوا جيران سوء لا يفخر المرء بجيرتهم، وإنه ما عمل في البحر إلا فرارًا من كآبة اليابسة. وفي إحدى الليالي وبعد أن انتهت حفلات السطح ومسابقاته، دعاني لمشاركته احتفالًا خاصًا بمناسبة عيد مولده الثامن والعشرين، ارتأى أن يقيمه في غرفته ويدعو إليه أصدقاءه المقربين من أعضاء فرقته وبحارة السفينة، وأنا باعتباري أحد أولئك الأصدقاء. كان يقيم في غرفة صغيرة وحده في قاع السفينة، ويعتبرها قصرًا من السحر يمده بالإلهام الذي يصيغ به أغنياته الماجنة. أجلت ساعة نومي المفترضة وتبعته، كان ما يزال في زي الليل الاحتفالي، السروال الأسود الضيق، والقميص البرتقالي، مفتوحًا بلا أزرة، وثمة عطر شفاف شبيه بعطور تاجرات المتعة، يرشح في هواء الممرات بيني وبينه. مؤكد أنني توجست، تسارع قلبي، وابتدأت أشم خطرًا ما، من دون أن أعرف إن كان خطرًا حقيقيًا أم مجرد وهم. وحين بلغنا الغرفة، ودخلناها أخيرًا، نطق الخطر، وكان حقيقيًا بلا جدال.. كنت وحدي أواجه عنكبوتًا بمئة ذراع نزقة، لا عيد مولد ولا أصدقاء ولا شموع، ولا كيكة احتفال، ولا أسطوانة دارت في غرامافون، وبلا أي مقدمات، أحاطني القصير بذراعيه، وابتدأ طقسًا وعرًا من تلك الطقوس التي كنت أسمع عنها، وما ظننت نفسي سأكون طرفًا فيها أبدًا. كان قويًا بصورة لا تصدق، ومحشوًا بآهات

أنثى استفرغها تباعًا، و في نفس الوقت أحسست بنعومته التي لا يمكن أن يخطئها عازب تمرس على احتضان النعومة. تخلصت منه بصعوبة، وقفزت السلالم ركضًا إلى غرفتي، كنت ألهث وكان الرهبان المسنون، يبكون من ذكر الآخرة، والعذاب.

في اليوم التالي، لم أغادر غرفتي مطلقًا أثناء النهار، لا لتناول الطعام ولا لغيره، أحسست بالمرض، واحتمال عودة دوار البحر مرة أخرى، وحاولت جاهدًا أن أبتعد بخيالي عن جون القصير، أشعله في أي ذكريات بهيجة عشتها ذات يوم، أو أنزح به إلى المستقبل المجهول الذي خططت له، ولم أستطع.. كان البحار المغني، يحتل تفكيري كله، وأستطيع رؤيته بكل نزق البارحة، متأوهًا في أحضان لم تتعود مثل ذلك النزق. لكنني في المساء وبدافع من فضول غبي تملكني، ذهبت إلى احتفال السطح، كان كل شيء عاديًّا تمامًا، فرقة أسماك البحر بزيها الفوضوي المعتاد، وجون هايدي المعروف بجون القصير، غارقًا في الصخب، يردد أغنية اسمها نورس، تحكي عن نورس حزين، سيموت حتمًا على جزيرة مهجورة، بسبب الحب وهجران الحبيب، وترقص على صوته الحسناوات، وملكة الجمال المعتدة بنفسها، سونيا أفرين. وفي الأيام التالية، لم يكن ثمة شيء غريب قد حدث، لم يتغير القصير من ناحيتي، كما كنت أتوقع، كان يحييني بنفس تحيته السابقة، يثرثر معي عن الغناء وبهجة البحر مقارنة بكآبة اليابسة، وفي أحيان كثيرة، يشدني إلى الرقص على أنغام أغنياته.

على أن ما حدث بيني وبين مغني أسماك البحر، جون القصير، برغم بذاءته وما تركه في نفسي من أثر، لم يكن الأسوأ في تلك الرحلة على الإطلاق، فقد حدث الأسوأ فجأة، ولم تبق سوى أيام قليلة على بلوغ بر الإسكندرية، حسب ما نوه قبطان السفينة، وابتدأنا نحن غير المصنفين عشاقًا للبحر، نجهز أنفسنا لمعانقة اليابسة.

لقد لاحظت، ولا بد أن غيري أيضًا قد لاحظ، إن القبطان لويجي آر

كميلسون، قد تغير فجأة. شاهدناه في أحد الأيام، يتمشى بخطوات آوسع قليلًا من خطوات مسن مثله. كان يرتدي زي بحار قديم مهلهل، أحمر اللون، يحيط عنقه بأوسمة وميداليات فضية وبرونزية، ويحمل في يده بوقًا من النحاس، ملوثًا بالأتربة، بينما تطل من جيب قميصه، ورقة قديمة أشبه بالخرائط التي كانت تستخدم في الصراع مع البحر. حييته فلم يرد على تحيتي، وحين ظهرت سونيا أفرين الملكة، تتهادى في مجال نظرته ونظرات الآخرين، وضَح تمامًا أنه أعد لها شركًا عاطفيًا بعيدًا كل البعد عن توقعي وتوقعها، وتوقع أي أحد آخر من المسافرين. رأيت لويجي آر كميلسون، المفترض حتى تلك اللحظة، أنه قبطان سفن شراعية متقاعد، وأحد هواة غرائب البحر الذين يشنون حروبًا ضارية على اليابسة مهما كان تحضرها وعذوبة مدنها، ويتسلى بملاطفة الحسناوات بلا أي غرض محتمل، ينحني أمام ملكة الجمال، يقبل يديها وقدميها وذيل قميصها، ويبكي، ويعلن بصوت الدموع الفاجر، استعداده أن يتحضر، ويقلع عن هوى البحر الركيك، ويقيم تحت قدميها في أي مدينة تحددها في العالم الفسيح.

كانت الملكة قد اضطربت تمامًا في تلك اللحظة، فاجأها الشرك العجوز غير المتقن، واضطربت، كانت تنز من عينيها السحريتين نظرة خوف، يفور في فمها الوردي شبح استيضاح، وتحركت يدها اليمنى مرارًا أمام عينيها، بلا أي هدف محدد. لم تكن مرتها الأولى في مواجهة عاشق مهووس مثل القبطان لويجي، بكل تأكيد، وتعيش في بيئة ممتلئة بالمطبات والحفر، وثقلاء الدم، ومخترعي لغة الإغواء، وأصبحت ملكة في ذلك الشوك، لكن المفاجأة، والمفاجأة وحدها ما جعلها تضطرب. استدارت لتمضي متعثرة، بينما عاشقها العجوز، ما يزال منكفئًا على السطح، وقد تقاطر منه العرق، وتدافع عليه المسافرون، يحاولون إيقافه على قدميه، وقطعًا يبحثون في بؤسه وبؤس اللحظة، عن هيبة البحار

القديم الذي عشقته ثلاثمئة حورية ملتهبة طوال سنوات قهره للبحر، ولم يلتفت لإحداها، كما كان يردد دائمًا.

ذلك اليوم، وما تلاه من الأيام حتى بلوغنا بر مصر، لم تكن ثمة فرقة لأسماك البحر، تقيم ضجيجها وفوضاها على السطح المضاء بالفوانيس الملونة، ولا مغنٍ منحرف يمجد شاربي ورجولتي وعنفواني. ولا مسابقات تجرى وأسئلةً تجاوب، أو واحد مثلي يحكي عن البلاد المجهولة، وينصب فارسًا للحكي. عثروا على القبطان لويجي مساء ذلك اليوم نفسه، في غرفته ميتًا أمام رقعة شطرنج قديمة باهتة المربعات، كان يلاعب وسواسًا قويًا كما يبدو لأن الأحصنة والجنود التي في جيشه، كانت منهزمة. لم تكن ثمة آثار لجريمة ارتكبت عن عمد، ولا رسالة انتحار موقعة، ولا أي أداة من تلك الأدوات التي اشتهرت عبر التاريخ في إنهائها حياة العشاق، وحين رفعوه وعروه، وفتشوا جسده جيدًا، لم يعثروا إلا على جغرافيا العمر المرسومة على الجلد، وفتاق متورم عند السرة، ووشم غائر في ساعده الأيمن، يمثل نورسًا بلا جناحين.

تأثرت كثيرًا بموت القبطان لويجي بالرغم من أنني عرفته رفيق سفر، ولم يكن يومًا من مؤسسي طفولتي أو شبابي، لم أصدق بأن صانع الغرائب الحكاء قد تحول فجأة إلى جسم غريب لا بد من التخلص منه عاجلًا، حتى تستقيم الرحلة، ويكف المسافرون عن الرعب. لفوه بعلم لا يشبه العلم البريطاني، ولا أي علم آخر أعرفه، وقيل إنه علم مفترض لدولة البحر التي كان القبطان واحدًا من رعاياها المخلصين، وعثروا عليه في غرفته. استلمه الرهبان المسنون الذين يسكنون غرفتي لمدة ساعة، باركوه بقليل من الأدعية والتهجدات، قبل أن يلقى في البحر. كانت جنازة خالية من طعم الجنائز، لا أسى ولا دموع، ولا أثر لقبر محاط بالزهور، ومروي بالماء، ربما يزوره أحد ذات يوم، ولولا أن جون القصير، تفصد عرقًا على قميصه الملوث بالشحم، وهو ينشد ترتيلًا كنسيًا معتمًا، لكان

لويجي آر...، هو أكثر ميت في الدنيا بلا حظ.

لم تكن ملكة الجمال موجودة ساعة إلقائه في البحر، ولا أي امرأة أخرى من اللائي غازلهن وهو مسن صعلوك، بلا غرض، وكنت القى عليه النظرة الأخيرة، وثمة موجة بعلو تل، تبتلعه.

-5-

بر الإسكندرية

كانت الإسكندرية كما وُصفت في تلك الكتب التي أتيح لي أن أقرأها في فترة من فترات عمري، وقبل أن أعلق في هذه المغامرة التي لا أعرف حتى الآن، إن كنت سأكملها حتى النهاية، أم هناك قدر آخر يختبئ في فقرة من فقراتها، و يستعد لإنهائها في أي لحظة. كانت عروسًا أبدية بلا تجاعيد ولا ترهل، كأنها رضعت حليب الصبا الدائم يوم وجدت. هبطت في برها أتلفت، أشاهد الشرقيين يملأون الميناء، سواعدهم قوية، ووجوههم مدهونة بعرق النخوة، ثمة أوروبيون متوافرون أيضًا، وأتراك خشنون، وخليط من شعوب الأرض كلها كما تصورت، رجال ونساء وهرج وفوضى متناغمة.

هبط السياح القليلون الذاهبون لمعانقة التاريخ، يتلفتون أيضًا، لكنه تلفت انبهار وليس من وجل، اصطف عشاق البحر على سطح السفينة، يتوسطهم جون القصير، يقرأون اليابسة قراءة متعجلة، قبل أن يبتلعهم البحر مرة أخرى، وهبطت الملكة سونيا أفرين هبوطًا مختلفًا، حيث تلقاها اليهودي تاجر المجوهرات على سلم الباخرة، يحمل مظلة واقية من الشمس، بألوان زاهية، غطى بها رأسها وقادها إلى عربة مذهبة، يجرها جوادان فاخران، كانت تقف على مقربة. لوَّحت لها بيدي مودعًا، وحاولت أن أقرأ صدمة موت القبطان لويجي على وجهها المزدهر، العامر بابتسامات السحر كلها، ولم أعثر على شيء. كانت سونيا في نظري واحدة من نساء العصر الحديث، عصر ازدراء الشفقة، ومنازلة الضعف

الموروث عند المرأة، ولن يحلم لويجي ولا غيره من العشاق الطارئين، المجانين، الميتين بسبب العشق، أن تنوح عليهم امرأة كهذه، وتزهد في دعوة مبهرجة، ربما تمنحها آلاف الخطوات إلى الأمام. كانت تبتسم فعلًا، وتلوح بيدها ردًا على وداعي، وأجزم أنها نسيتني تمامًا، ونسيت كل ما حكيته عن أرض المجهول، بمجرد أن انعطفت العربة في ذلك الطريق الممهد، واختفت عن الأنظار. وكعادة الموانئ كما سمعت من الذين سافروا من قبل، كان لا بد أن يحيط بي الحمالون، وطالبو الرزق السريع بلا جهد، وبعض بنات الهوى المستهلكات بفعل نزوات البحارة والمسافرين، وأيضا قراء البخت المتنوعين في صنعتهم، وأن أُسأل في كل خطوة أخطوها:

سائح؟

منتدب للعمل في مصر؟

تريد نُزلا مريحا؟

تريد سيدة جميلة للتسلية؟

تريد عربة جيدة؟

ولم أكن سائحًا حقيقيًا، ولا أريد نُزلًا مريحًا أو غير مريح، أو فتاة للتسلية. قلت لهم بعربية واضحة، إنني عابر طريق إلى بلد آخر، وانفلتُ مغادرًا زخم الميناء.

بالقطع لم تكن الإسكندرية برغم روعتها، وأنها تحفة من تحف الأصالة والمعاصرة، ولا مصر كلها، هدفي في تلك المرحلة، وخفت لو انسقت إلى رائحة التاريخ، أو أغرقت في تتبع ما خطته الشعوب على هذه الأرض من إشراقات ورحلت، أن يبرد هاجس المغامرة في دمي، وتضيع تلك النقود التي وفرتها من بيع استثماراتي، لمغامرة أشد وعورة، وأخبئها في حزام حول وسطي، لا أنسى ربطه أبدًا. خفت أن أبقى هنا، ألتصق، وربما بعد عدة أشهر، أعود راكبًا أهوال البحر مرة أخرى إلى منبعي،

إلى حياة الروتين والليل، والرفاق، التي تحررت منها، وربما تصادفني دوريس الحولاء مرة أخرى وتقودني إلى جسد العروس الذي لم أنقب في تضاريسه جيدًا في تلك المرة، وتركته بلا رغبة في العودة.

ألقيت نظرة لقاء ووداع في نفس الوقت، على الطرق التي سلكتها، وما صادفني من العمران والبشر، واهتديت إلى حيث تركد مراكب النيل المسافرة إلى الشلال. غرقت في إحداها وسط المسافرين المحليين، وأقفاص الطيور، ورائحة الجلود الخشنة التي تملأ المكان، أنام قليلًا وأصحو، آكل شيئًا من الزاد اليابس الشبيه بزاد المسافرين كلهم، وأتابع الشواطئ الضحلة، وحقول الزراعة الممتدة على طول الطريق، و تروى بالطرق البدائية، أستمع إلى غناء الربان، ولا أفهم جيدًا، أخاله غناء شجيًا وعذبًا، وينادي المشاعر من أقصى أقاصي القلوب، أتذكر هيلينا دا سيلفا وأنساها قبل أن تتجسد معشوقة ذات طعم، أتذكر دوريس الحولاء وليلتها وأتمنى لو لم أزر رسام التشوهات ديسوا في ذلك اليوم بالذات، لأظل سرابًا رزيلًا عند واحدة بلا ذنب، يجيئني فجأة طيف جون القصير، بآهاته ونعومته، وقوته الضارية، وأركله بلا رحمة، وطيف لويجي المسكين، وأفكر كم سمكة من أسماك القرش اللعينة، تقاسمت حطامه. لا بد أن سونيا أفرين الآن قد اكتملت شركًا أخاذًا عند تاجر المجوهرات اليهودي، ولا بد أن رامي القرص القوي بيتر مادوك، غارقًا في أزقة البؤس، وسط اللصوص والمشردين، بحثًا عن حوادث ملعونة ودامية، يملأ بها صفحته. كان شيئًا عاديًا، أن لا أتخيل ألمًا للفراق، مجسدًا في بيت أسرتي، الأب المشغول بتجارة الورد، سيظل مشغولًا بها حتى يدفن، والأخت الهائمة في عشق السباح المحترف، ستظل هائمة في عشقه حتى النهاية.

متى سنصل الشلال إذن؟

لا أدري، ولا أحد آخر من رفقاء المركب الصغير يدري، لكن الرحلة انتهت فجأة، لتبدأ رحلة جديدة، استمرت عدة أيام بلا إثارة كبيرة،

وفي باخرة نهرية أخري شديدة البطء والتوعك، أوصلتنا أشبه بالموتى إلى
وادي حلفا، نقطة البداية المتوجسة في أرض السودان.

- 6 -

سيف القبيلة

صدمة البداية كانت كبيرة.

أكبر كثيرًا من احتمال مغامر عادي بلا حنكة مثلي، ركب المغامرة بناء على قرار متعجل وغير حكيم، لكنني سأتجاوزها، وأيضًا بإيحاء مما تبقى في ذاكرتي من أقوال مستر ويلارد، الذي كان يردد دائمًا، بأن لكل عقل آدمي فلسفته التي يظنها فلسفة مقدسة، ويسعى لاحترام قداستها، لكن القداسة تكمن في كيفية تطويع تلك الفلسفة بحيث تتقبل الشجر اليابس، كما تتقبل الأخضر، وتتفاعل مع الجرذان والرميات، كما تتفاعل مع الطيور المغردة.

كنت في بلدة جرداء بكل ما تعني تلك الكلمة من شلل وإرهاق، وتلف وبوار، تعانق النيل وتبدو في هيئة واحدة من أعرق الصحارى عطشًا. كانت البيوت متداخلة بلا تناسق، بيوت من الطين والروث، والخشب الذي شققه الجفاف المسيطر. الرجال يلبسون الجلابيب والعمائم البيضاء المشربة بحمرة الغبار، وألبسة قصيرة من قماش شفاف فوق السراويل، لم أكن أعرف تسميتها في تلك اللحظة، وعرفتها لاحقًا باسم (العرَّاقي)، وينتعلون أحذية فُصلت من جلود الدواب المختلفة والزواحف، أو يسيرون حفاة. النساء بلا زينة مبهرجة، ولا عطور، ولا فخامة بادية، يرتدين الثوب المحلي الذي يغطي الجسد كله، وتغلب على قماشه الألوان الصفراء والخضراء، والبنفسجية، الأطفال شبه عراة، أو عراة بالكامل، ولغة التخاطب عند معظم من صادفتهم، إقليمية غريبة،

لا تشبه تلك اللغة التي قضيت أشهرًا طويلة، أتعلمها عند الخبَّاز هارولد سامسون. باختصار شديد، أحسست بأنني علقت في مغامرة لم أخطط لها جيدًا، كما يبدو، ولم يكن ثمة بد من التوغل فيها حتى النهاية.

في الباخرة النيلية التي أقلتني من مصر، تعرفت على كثيرين، لم يكن بينهم أوربي واحد، فقد كانت الباخرة لدهشتي الشديدة خالية من أي مسافر مختلف اللون واللسان باستثنائي، بالرغم من الحركة الدائبة للأوروبيين، بين مصر والسودان، بحكم العمل الوظيفي. تبادلت مع هؤلاء المسافرين كثيرًا من الحديث والمشاعر، بالرغم من نفور البعض، وعدم رغبتهم في تعميق الصلة بيني وبينهم. كان فيهم رافع أثقال قوي، كما يبدو من هيئة جسده، داكن البشرة، اسمه (جبريل الرحال)، ويلقب نفسه بالكونت بلا أي مقومات تؤهله لذلك اللقب، بصحبته امرأة مليحة، تزوجها من صعيد مصر، من دون معرفة أهله، بعد أن تعرف على أخيها الذي كان يعمل في أرض السودان وانتهت مدة عمله، وعائد بها إلي موطنه كما قال، كان غيورًا جدًا وشرسًا جدًا، وذا عينين قلقتين، لا تستقران على شيء محدد، ويقضي معظم وقته، يتتبع عيون المسافرين، و نعاس زوجته، خوفًا من أن تنام مشتتة في باخرة مليئة بالعيون المتلصصة، وبلا خصوصية، أو يفتعل عراكًا بلا معنى، مع عدد من المسافرين، ينتهي سريعًا. أيضًا ثرثرت بلا حساب مع مسيحي مصري اسمه (بطرس زخاري)، قال إنه من مدينة بورسعيد الساحلية، يعمل في سلك الحسابات في الخرطوم، وعائد من إجازة قضاها برفقة أسرته، استعاد بها لياقته لسنة طويلة أخرى، يقضيها وحيدًا. وفاجأتني امرأة اسمها الجنة، كانت من الجواري اللائي تحررن منذ عدة سنوات، وتعمل خادمة على ظهر السفينة، بأن أهدتني مسبحة من الخرز الأخضر، من تلك التي يستخدمها رجال الدين والمتصوفة، قالت: خذها كتذكار يا خواجة، ولم أعرف لماذا أهدتني ذلك التذكار المقدس، وتعرف أنني لن أستخدمه يومًا، لكني تقبلت الهدية شاكرًا.

كان من بين المسافرين أيضًا، رجل صامت منزو في أحد الأركان، لم أره يأكل أو يشرب، أو يرفع عينيه، يطالع بهما أحدًا، بالرغم من أن عددًا من المسافرين كانوا يقتحمون عزلته، يسألونه أن يبارك لهم رحلتهم، وعرفت أنه (الساكت)، أحد شيوخ الطرق الصوفية المدججين بعلم غيبي لا يعرفه أحد، كما يعتقد الذين يعرفونه، ويقوم برحلات شبه منتظمة بين مصر وأرض السودان، وأيضًا لسبب لا يعرفه أحد. لكن أبرز أولئك الذين تعرفت عليهم، وتطورت بيننا المعرفة إلى صداقة عميقة امتدت طويلًا بعد ذلك، رجل اسمه (سيف القبيلة)، كان تاجر إبل من منطقة اسمها (أرض البطانة)، تقع في وسط أرض السودان، وتشتهر بكثافة الأمطار والرعي النظيف، وبيع الدواب ومنتجاتها من حليب وأجبان ووبر. كان يتاجر بين بلاده ومصر، يرسل الإبل بصحبة الرعاة المدربين إلى مصر عن طريق صحراء الشرق، ويتبعها بالباخرة النيلية ليبيعها في تلك المزادات الكبيرة التي تعقد هناك. كان يبدو ودودًا، وحماسيًا، واستعد بجسارة لمصاحبة غريب من بلد مستعمر بعيد، من دون أن يشغل نفسه بالتفكير في أبعد من تلك الصحبة. في البداية أضحكته لهجتي المتعثرة وأنا أحاول أن أرتب الحروف العربية، لتخرج حديثًا ذا مغزى، كما علمني الخبَّاز هارولد سامسون، ثم ما لبث أن تعود على تلك اللهجة، ومن ثم دارت بيننا الأحاديث الودية، بلا مشقة، ولأنني كنت أرتدي زيًا إفرنجيًا لا أعرف غيره منذ وعيت، ومفترض أن أسافر بقافلة من الجمال إلى العاصمة، بلا خيار آخر، نبهني سيف القبيلة إلى استحالة ذلك، وقبلت منطقه لا عن قناعة، ولكن خوفًا من أن يكون مصيبًا وتختل فقرة مهمة من فقرات السفر. قال: إن خبرته في الإبل مثل خبرة الأوربيين في إخضاع الشعوب المسالمة، وتلويث عقولها وسمعتها، و إن الجمل الوطني المولود في هذه الأرض الطيبة، لن يتحرك شبرًا واحدًا، إذا ما حاولت امتطائه وأنا أوروبي مفضوح، أرتدي السروال والقميص، وأعلق سلسلًا من الذهب

على رقبتي.

لم أكن في الحقيقة أعرف شيئًا عن طبائع الإبل، ولا صادفني في كل قراءاتي المبكرة والمتأخرة، ولا تلك التي استعرتها من دوريس الحولاء في مكتبة لندن، كتاب واحد يصنف تلك الدواب الهامة إلى نوع وطني ونوع خائن للوطنية. أعرف أن الإبل صبورة للغاية، ووفية إلى أبعد حد، وغدارة أيضًا إن لزم الأمر، ولا شيء آخر خلاف ذلك. سألته في البداية عن كيفية سفر الأوروبيين الغازين لهذه الأرض، ما دامت المسألة كذلك، فجاء الرد من لسانه سريعًا بلا تفكير: هؤلاء يسافرون بإبل مروضة تملكها الحكومات التي تعاقبت على استعمار البلاد، نوع من السلالات فقدت الوطنية، وأرخت ظهورها للجنود والأسلحة، والغانيات الماجنات، اللائي يصاحبن العسكر في أي غزوة يغزوها. أعجبني منطقه الحماسي المندفع، وتشجعت لأسأله عن الحل لمعضلتي الخاصة، وإن كان قد صادف معضلة مماثلة من قبل، فأشرق وجهه الذي كان وجه داكن لرجل في أواسط العمر، شاربه متوسط الكثافة وقد غزاه شيب خفيف، عيناه بلون العسل المعكر، وأنفه ضخم قليلًا، وشبيه بأنفوف معظم المحليين الذين يرافقوننا في الرحلة. قال: نعم.. حللت مشكلة الرحالة الهولندي ريكارد استور هينر، الذي جاء مستكشفًا لمنابع النيل، وصاحبته كما صاحبتك، ووعد بأن يتذكرني طوال حياته، ويكتبني في مذكراته، والساحر النرويجي باسيل، ومرافقته الحسناء لوليتا، اللذين قدما عروضًا مبهرة في الخرطوم وضواحيها منذ عامين، وكثيرين غيرهم صادفتهم هنا، يتلفتون في حيرة وقلق.

حين وصلنا إلى وادي حلفا، وقبل أن أتخلص من صدمة البداية، وأستعيد توازني، اصطحبني سيف القبيلة إلى السوق، وكان واحدًا من تلك الأسواق التي أجزم بأنها تنهار ويعاد تركيبها بعد كل ريح خفيفة، أو زخة مطر، إن كان ثمة مطر يصب في تلك الأنحاء. كان مجموعة

من سيقان الأشجار المقطوعة بلا فن، مغروسة في الأرض، ومعروشة بسعف النخيل، ومتراصة بجوار بعضها البعض، وتبيع سلعًا قليلة، أبرزها دقيق الذرة، والسكر والملح، والبهارات، والخراف المذبوحة، واللحم المقدد، والملابس والأحذية التقليدية، وبعض الخضروات، وفيها محل أو محلان، يبيعان أواني الخزف الملونة، وبعض الرسومات الرديئة، المفتقرة للخيال. وكانت ثمة نساء بأعمار مختلفة، يفترشن الأرض، يبعن ثمار الدوم، واللالوب، والنبق الذي تطرحه أشجار السدر، أو يقدمن عصائد خشنة وفقيرة، لمن كان يرغب في الأكل من بين زوار السوق، وعدد من الجنود الرسميين، يرتدون أردية قصيرة كاكية اللون، ويحملون بنادق قديمة، يتحاومون في المكان. و صادف أن عثرنا أثناء دخولنا ذلك السوق، على رجل فارع الطول، تبدو ملابسه أكثر وجاهة من ملابس الآخرين، وبصحبته عدد من الناس، يحملون عنه سلال التسوق. شاهدت سيف القبيلة، ينفلت من صحبتي عدة دقائق، حيا فيها الرجل الوجيه، وقبل يده، وأخبرني حين عاد، بأنه (الطيب شاقو)، عمدة هذه البلدة، وكبيرها، وتجمعه به صداقة وطيدة، وإنه دعاه إلى بيته لكنه اعتذر بسبب ضيق الوقت.

من أحد تلك المحلات المهتزة البنيان، حولني سيف القبيلة في دقائق معدودة، من إنجليزي مهندم بالملابس الإفرنجية، إلى مسافر عادي قد تنخدع الإبل في هويته، وتحمله بلا ضغينة، كنت أنزع سلسل الذهب عن عنقي، أرتدي الثوب الأبيض، والعمامة البيضاء، ونعالاً من جلد الماعز، متطاير الوبر، وأحمل في يدي عصًا بنية اللون، من خشب المهوقني، تعد من مكملات الزي الجديد، ولا بد أن منظري الغريب في تلك البقعة الجرداء، قد لفت النظر إلى حد ما، لأن فتيات مغبرات عبرن أمامي، منحنني ابتسامات، لا أعرف إن كانت ودودة أم ساخرة، وأطفالاً أشقياء، شتموني بألفاظ لم أفهمها، ولا كنت مضطرًا لسؤال مرافقي عن

معناها، ورجالًا كانوا يجلسون على حافة السوق، يحتسون البن، ضحكوا حتى دمعت عيونهم، ونحن نعبر أمامهم. وبالرغم من ذلك كنت ما أزال متوجسًا، أخاف أن يتمعن الجمل الوطني في وجهي الأوروبي الذي لم تكن ثمة حيلة لتغييره، ويكتشف أنه يحمل خائنا، ويسحقني. نقلت وساوسي إلى سيف القبيلة الذي كان يسير الآن بجانبي، متمهلًا، يحمل حقيبته القماشية الخفيفة، يلقي التحية على العابرين، أو يرد على تحاياهم، فطمأنني بشدة، قال:

- ليس لدى الجمال عقول تتأمل بها الملامح، إنها النظرة الأولى على هيئتك، ولا شيء آخر.

كانت القافلة التي من المفترض أن نستقلها إلى العاصمة، تتحرك غدًا فجرًا، كما عرفت، وكنا نقترب من المساء، ولا بد توجد أماكن للمبيت، حتى لو كان مبيت ممتلئ بالأرق والهلاوس، ولسعات الحشرات التي أحسست بها تتحاوم حولنا، حتى قبل أن يرخي الليل ستاره الكثيف. لم أكن بحاجة لسؤال سيف القبيلة الذي يعرف حتى شقوق الحوائط في تلك البقعة الجرداء، كما كان واضحًا. أخذني أولًا إلى خلاء ممتد خلف البيوت الفقيرة، ممتلئ بالفضلات، وروائح القذارة، لنقضي حاجتنا، ثم عبر أزقة ملتوية وسط تلك البيوت التي كانت تزداد بؤسًا، كلما توغلنا، حتى بلغنا بيتًا من الصفيح، مدهون بالأبيض، وعلى بابه رسومات صبيانية، وشخبطات بالفحم، لم أجد لها تفسيرًا. رأيته يطرق الباب طرقات متوالية، وسمعته يصيح:

- افتحي يا (سُكَّر)..معي ضيف من بلاد(الحماريط).

وقبل أن ينفتح الباب، وجدت نفسي أفكر في تلك السكر التي نطرق بابها، وإن كانت سكَّرًا فعلًا، أم مجرد اسم غير مطابق لصفته، فقط أعجزتني كلمة الحماريط التي لم تكن من ضمن القاموس الذي اجتهدت في تعلمه وحمل مفرداته في ذهني، لا بد أنها كلمة نابية، أو صفة تدل

على بذاءة شعبنا، هكذا أوحت لي طريقة نطقها، وقطعًا سأسأل عنها المرافق السخي حالما تسنح الفرصة، وجدت نفسي أبتسم رغمًا عني، أتطلع للباب الذي بدأ يهتز، ويد تحرك قفله من الداخل.

كانت المرأة التي فتحت أخيرًا، واحتضنت سيف القبيلة في سلام خاص، ممتلئ بالشوق، والمحبة، بعيدة تمامًا عن السكر، كانت في نحو الستين، نحيلة ويابسة الجلد، تضع على أنفها المثقوب بغرض الزينة، حلقة من القصدير اللامع، يطلق عليها(الزمام)، بينما وجهها موشوم بتلك الخطوط الرأسية التي كانت من علامات جمال المرأة في أرض السودان، ينحتها متخصصون على الوجوه، مستخدمين الحديد المحمى في النار، ونادرًا ما تجد امرأة أفلتت منها، وأيضًا رأيتها على وجوه بعض الرجال حين توغلت في الرحلة، ولم تكن كلها أفقية، ولكن فيها الرأسية والمتقاطعة، والخفيفة والعميقة، وربما دلت اختلافاتها على القبيلة التي ينحدر منها الشخص.

مدت سكر يدها واحتضنت يدي التي كنت مترددًا في مدها، ولم تضحك أو تستغرب من هيئتي كما كنت أتوقع، بل بدت كأنها اعتادت مثل تلك الهيئة من أولئك المتلفتين القلقين الذين بالقطع أتى بهم سيف القبيلة إلى بيتها ذات يوم. أخبرها تاجر الإبل باختصار شديد عن هويتي، وأنني لست غازيًا ولا دمويًا ولا متعجرفًا، ولا صاحب مزاج من أي نوع، وإنما مجرد صديق مغامر متجه للعاصمة، سيقضي معه الليل في بيتها ويركبان قافلة السفر في اليوم التالي، وقبل أن نخطو إلى داخل البيت، نطق بما خمَّنته تحذيرًا بأن يكون حديثها خال من أي سخرية، قال: يعرف لغتنا جيدًا.

كان بيت سكر من الداخل، لا يختلف كثيرًا عن هيئته الخارجية، ثمة غرفتان معروشتان بالخشب، ومفروشتان بحصير منسوج من سعف النخيل الجاف، ثمة ركن صغير يبدو مطبخًا يحتوي على أدوات طبخ

قليلة، وزير من الفخار ممتلئ بالماء، وركن آخر يغطيه باب من القماش المتسخ، عرفت أنه ركن الاغتسال وقضاء الحاجة في حفرة تتوسطه. بيت بدائي وفقير، لكنه محتشم إلى حد ما ويتناسب مع طقس البلاء العام الذي يسود تلك البلاد، لقد كان رامي القرص القوي بيتر مادوك على حق حين تمرد، وفضل السجن، وفقدان رتب الضباط، ورواتبهم العالية، ليتشرد محررًا للجريمة بلا خبرة، بالرغم من أنه لم ير ما رأيته. لا بد أن إحساسه وما سمعه من زملائه العائدين، جعله زاهدًا في تلك المغامرة مدفوعة الأجر.

جلسنا على حصير السعف الخشن في إحدى الغرفتين، مسندين رأسينا على وسادتي قطن قديمتين، وأخرج سيف القبيلة من حقيبته القماشية، ثوبًا من الحرير اللماع، بعدة ألوان، وحذاء من الجلد الاصطناعي الرخيص، وعطرًا نفاذ الرائحة من تلك الأنواع التي رأيتها تعرض على الأرصفة في منطقة الشلال، قدمها للمرأة التي انحنت على رأسه، قبلتها، وبدا وجهها العجوز، سعيدًا جدًا، على لهب لمبة الخيط متراقصة الضوء، كانت الآن نشيطة للغاية، تخدمنا بطاقة صبية يافعة، انطلقت إلى ركن الطبخ، أوقدت نارًا، وجاءتنا بعد زمن قليل بحساء من البقوليات كثير البهارات، وطبق مشبع من اللحم المقدد صب على قرص من القمح في طبق عريض من أطباق الفخار. كانت وجبتي الأولى التي أتذوقها، منذ هبطت تلك الأرض، وكانت بالرغم من غرابة طعمها على لساني المعتاد على الأطعمة الغربية، من أمتع الوجبات التي تلقيتها في حياتي. وفي تلك الجلسة الودية التي امتدت بيننا إلي وقت متأخر من الليل، عرفت معنى كلمة الحماريط، التي كانت تعني الأشخاص ذوي البشرة البيضاء، ولم تكن لفظًا نابيًا بالرغم من أن المحليين، يحاولون جاهدين أن يجعلوها كذلك، حين يغتاظون من الرجل الأبيض الذي يستعمرهم، من دون أن يعرفوا سبب ذلك الاستعمار، ويستخدمونها في حقه. عرفت شيئًا من

تاريخ المنطقة، وعلاقتها الوطيدة بجنوب مصر، بحكم الجوار، وأن العجوز سكر، عاشت وحيدة طوال عمرها، بلا زوج ولا أبناء، تسترزق من بيع الحليب الذي تستخلصه من شياه تربيها في مكان قريب من بيتها، وفي مناسبات الأفراح والأعياد، تعمل في تمشيط شعر النساء الذي تجيده منذ صغرها. ويعرفها سيف القبيلة منذ سنوات طويلة، هي سنوات تعلقه بالتجارة بين مصر وأرض السودان.

لا بد أن سيف القبيلة كان مجنونًا، أو لعل رغبات الرجال في هذه البلاد كلها مجنونة، لأن تاجر الإبل وقف على قدميه فجأة، وقد رفع ثوبه حتى صدره، وسال من فمه خيط من اللعاب. شد العجوز سكر من يدها، وانفلت بها إلى الغرفة الأخرى، من دون حتى أن يستأذن، وكانت قد ارتدت الثوب الحريري الملون، ورشت جسدها بالعطر الرخيص الذي جلبه من منطقة الشلال. كانت لينة ومطيعة إلى أقصى حد، وهي تنقاد له، وكنت الآن داخل لقاء حميمي أعرج، بل مكسر القدمين كما أصفه، أسمع تأوها مجنونًا وضحكات، ولغة مبتذلة، مختلطة بصوت أغنيات ودقات طبول تأتي من بعيد، بما يبدو عرسًا في مكان ما من تلك البلدة، وتشرق الشمس ولا يهدأ الطقس، ثم أغفو قليلاً ولا أحس إلا بيد تهزني.. كانت يد تاجر الإبل المضعضع من جراء السهر وحمى المتعة المجنونة. يقف مترنحًا، بينما العجوز سكر، في ركن الطبخ، تجهز لنا إفطارًا عاجلاً، حتى نلحق بقافلة السفر. كان صوتها خشنًا وهي تردد أغنية محلية.

كان المسافرون العاديون من وادي حلفا إلى العاصمة وبقية مدن البلاد، ومعظمهم من التجار القابضين على دم التجارة بين مصر والسودان، خلافًا لموظفي الحكومة المنقولين من مصر أو بلاد أخرى للعمل هنا، يتجمعون في ساحة كبيرة تسمى (براحة حسن)، كانت معروشة بالقصب، ومتلئة بحصائر النخيل، وثمة ركن ممتلئ بالمواقد والقدور النحاسية، وأكواب الفخار، يعمل كمقهى أو كافتريا، تمد المسافرين باحتياجهم

من الطعام والشراب. كانت القوافل تتحرك مرتين أسبوعيًا كما عرفت، واكتشفت أن المسافرين الذين تقذف بهم الباخرة، يقضون ليلتهم أو لياليهم في ذلك المكان، لقاء أجرة محددة، تسلم للعمدة شاقو، الذي يمثل الحكومة في تلك المنطقة، وكنت سأفعل مثلهم، لولا سيف القبيلة، وصاحبته سكر، اللذان منحاني ليلة لم أستطع أن أنساها طويلًا، وتجنبت الخوض في تفاصيلها مع صديقي تاجر الإبل، حين أحسست به، غير راغب في تذكر شيء. سار معي شبه صامت حتى براحة حسن، حيث جلسنا على أحد الحصائر، بعد أن استلم رعاة القافلة حقيبتينا القماشيتين، وأجرة السفر، وطلبا منا الانتظار مع الآخرين، ريثما تجهز الإبل، ويُقرأ حظ السفر، ومن ثم نبدأ رحلة مرهقة أخرى إلى الخرطوم، عاصمة أرض السودان.

كنت صامتًا، أتأمل تلك البراحة، أفكر في حسن الذي سميت على اسمه، وهل هو موجود في ذلك المكان، أم أنه اسم تاريخي ضاعت مناسبته، وسط الأحداث التاريخية المتعاقبة لتلك المنطقة، لا بد أن سيف القبيلة يعرف، وآخرين غيره يعرفون، لكن الأمر برمته لم يكن مهما لأسأل أحدًا.

فجأة دخلت إلى المكان امرأة تحمل سلة من السعف، كانت في حوالي الثمانين، نحيلة، وموشومة في خدها وشفتيها، كمعظم الأخريات، وتمشي بخطوات العمر البطيئة، جلست على الأرض في وسط المكان، أخرجت عددًا من الأصداف، نثرتها أمامها، وهب المسافرون، تحلقوا حولها وكل يرمي بعملة أمامها. مال علي سيف القبيلة، قال هامسًا:

- إنها(السُرة عجب) التي تقرأ حظ القوافل منذ خمسين عامًا، ولا تتحرك قافلة من هنا، حتى تقول: ابشروا، ويعني هذا، إن السفر آمن..هيا لنرى.

في اللحظة التالية، شدني تاجر الإبل الغريب من يدي، أوقفني في

الزحام المتكاثف أمام المرأة، وألقى بعملتين من فئة المليم أمامها. كان ثابتًا ووقورًا، وكنت أحس برعدة ما، تسري في جسدي، وحين صرخت المرأة أخيرًا: ابشروا..ابشروا.. تنفست بعمق، وكذا تنفس بقية المسافرين، وعدنا جميعًا إلى جلسة الحصير الخشنة، ننتظر.

- 7 -

طقوس

إنها المرة الأولى في حياتي، التي أركب فيها جملًا. نعم.. سفينة الصحراء التي استخدمها المستكشفون، والقساوسة المبشرون، والمحاربون، ودعاة تحرير الشعوب المقهورة، على مر التاريخ، وعظموها في الكتب والمذكرات، ولوحات الفنانين التي لم ينقطع رسمها منذ ظهر الفن، وظهرت الرسومات.

في البداية حاولت أن أتفادى عيني الجمل المغبر، الذي خُصص لي في القافلة، وكان باركًا، يمضغ العلف الذي أمامه في تأن، ويمد رقبته بين حين وآخر، يلتقط علفًا بعيدًا خصص لجمال أخرى غيره. أردت خداعه، وما زلت متوجسًا من نظرية سيف القبيلة عن الوطنية والخيانة، لكن الجمل التقطني، ولم يبد أنه صنفني خائنًا، لأنني امتطيت ظهره بلا تعقيد، وأوقفه أحد مشرفي القافلة، ووقف، حركه، وتحرك بلا نية في الغدر. كان ظهره واسعًا ومريحًا، كما بدا لي، وخطواته واسعة داخل نسيج القافلة العظيم، حيث عشرات الإبل المحملة بالناس والمؤن ومتاع المسافرين، والقادة المدربين على قهر الصحارى والغناء العذب، يستدلون بالسماء ومعالم الأرض التي لا تتغير، ولا يضيعون إلا نادرًا. لم يكن سيف القبيلة يسير بجانبي، ولا ثمة فرصة لتبادل الحديث مع أحد أثناء السفر، وأعرف أن أيامًا طويلة قادمة، واستراحات معروفة، في قرى سنمر بها، من أجل الأكل والنوم، وقضاء الحاجة. كان الفصل نهاية الصيف، وكانت الشمس محتملة، وتساهم العمائم البيضاء التي نرتديها على رؤوسنا، في التخفيف

من لفحها بجدارة، وبعد مسيرة نصف يوم تقريبًا، تخللتها وقفات سريعة شربنا فيها القليل من الماء، لاحت لنا في وسط الفراغ الممتد، بقعة مأهولة، فيها بيوت ودواب وأراضي خضراء ويابسة، وبشر يتحركون. كان ظهري قد بدأ يتيبس، وقدماي أصيبتا بالخدر، بالرغم من أن الجمل الذي أمتطيه، لم يغير رأيه، ولم يسع لاضطهادي في أي لحظة، لكنها كما يبدو معضلة الركوب الأول لدابة لم أكن أعرف ظهرها من قبل ولا تخيلت أنني سأمتطيها يومًا، وقد تعودت على ركوب العربات السلسة التي تقودها الجياد في الشوارع الممهدة. توقفنا عند بئر معد لسقاية العابرين وراحلاتهم وابتدأت دوابنا تمضع العلف الذي شتته الرعاة، وتشرب، وابتدأنا من ناحيتنا، ممارسة خصائص الإنسان التي لا بد من ممارستها، في الخلاء الممتد الذي يحيط بالمكان، وأدى المحليون صلواتهم الواجبة. لاحظت هنا أيضًا أن سيف القبيلة معروف بشدة، شاهدت شيوخًا وقورين بلحى بيضاء وتضاريس عمر، يحيونه في احترام، ونساء ودودات برغم البؤس، يسألنه عن حاله وأحوال عائلته وتجارته، وأطفالًا شبه عراة، يصطفون أمامه في ترقب مستفز، ويمنحهم نقودًا صغيرة الحجم، يخرجها من جيبه من دون حتى أن ينظر إليها، وحين أخبره أحد رجال القرية وهو يأتي راكضًا متلاحق الأنفاس، يحمل إبريقًا من الشاي وعدة أكواب فخارية، بأنه رزق بغلام منذ عدة أيام فقط، وسماه سيف القبيلة تيمنًا به، رأيته يبتسم لأول مرة، وكانت أسنانه بيضاء بها بعض الإتساخ، يخرج من جيبه خمس عملات من فئة الريال المجيدي، المستخدمة تلك الأيام، يضعها في يد الرجل، وهو يردد:

- هدية الاسم يا (جابر). الصقها للصبي في جبهته.. وله خمس ريالات مجيدية أخرى حين أعود.

لا أنكر أنني ازددت إعجابًا بسيف القبيلة، كان شهيرًا في عالمه، حتى لو كان عالمًا بدائيًا خاليًا من نكهة الترف، وصاحب يد لا تفارق جيبه

إلا محملة بما يجعل رجلًا مثل جابر القروي، ينكفئ على رأسه، يحاول تقبيلها، وأري دموعًا جلية، تتكون في عينيه الضيقتين.

الآن بدت لي مغامرتي برغم صعوبتها الواضحة، قد بدأت تكتسي سمة الاستكشاف والمعرفة، وازداد يقيني بذلك، حين صحبني الرجل الغريب إلى حفل عرس صادف وجوده في قرية أخرى، قريبة من النيل، اسمها(أبري)، وصلنا إليها بعد يومين من السفر، وأنخنا رواحلنا فيها للتزود بالماء، وقضاء الليل. كان العرس في ساحة واسعة مضاءة بالفوانيس وسط القرية، العروس مزينة بعقود الخرز والقصدير، وأساور الذهب والنحاس، يداها داكنتا السواد، وقدماها أيضًا، من أثر الحناء، ويفوح من جلدها عطر لم أشم مثله من قبل أبدًا، وكان خليطًا من الأعشاب العطرية والزيوت التي تصنع محليًا في البيوت. العريس أيضًا كان مزينًا بالقصدير حول جبهته، وفي يديه وقدميه حناء داكنة، يبدو منشرحًا، يرقص على إيقاع الطبول القوي وأصوات النساء المغنية، وثمة رجال عراة الظهور، ينحنون أمامه في ثبات، ويجلدهم بسوط خشن من سياط جلد الثور، لكنهم لا يتحركون، ولا يغيرون انحناءهم، حتى وظهورهم تدمي، وترتفع زغاريد النساء مشجعة، ويتكرر الطقس باستمرار، كلما وفد متطوع جديد، عرى ظهره وانحنى.

كان الجميع مشغولين بطقس العرس، غارقين فيه بكل حواسهم، فلم تلفت هيئتي الغريبة أحدًا، لا فتاة ابتسمت، ولا طفل شتم، ولا رجال ضحكوا حتى دمعت عيونهم كما حدث في وادي حلفا، وجاء عدد كبير من رفقاء السفر، غرقوا أيضًا في اللجة المشتعلة، بمن فيهم الشيخ(الساكت)، المدجج بالعلم الروحاني، وقد خرج عن عزلته قليلًا كما يبدو، ورافع الأثقال القوي وزوجته الصعيدية المليحة، التي كان يحاول بكل ما أوتي من غيرة، أن يحجبها عن عيون لم تكن مشغولة بها في تلك اللحظة.

كان أغرب الذين نزعوا ثيابهم، وأحنوا ظهورهم للجلد في تلك

الليلة، طفل في حوالي العاشرة، نحيل ويابس، و يبدو فرحًا بتذوق الألم، بالرغم من تململه الواضح، تحت لهب السياط، ولم أكن بحاجة لسؤال سيف القبيلة، أو أي أحد آخر من الحاضرين، لأعرف أنها مرته الأولى التي ستمتد إلى مرات ومرات، طالما ولد ويعيش في ذلك المكان بلا أي فكرة عما يدور في أقرب الأماكن إلى قريته. وقد حظي ذلك الصبي وكان اسمه عرفان، بتشجيع لم يحظ به الآخرون، لأن أكثر من خمسين امرأة زغردن من أجله في صوت واحد مجلجل، وحمله أبوه، طاف به في وسط الحاضرين، متهلل الوجه.

ما فاجأني حقيقة في تلك الليلة المميزة، التي أعتبرها بداية نسياني الكامل لليالي لندن المائعة، وفتح روح جديدة لامتصاص الآتي من الحوادث، هو أن سيف القبيلة، وقف فجأة وقد تقاطر من وجهه العرق، نزع عمامته، وثوبه، وقميصه القصير الذي يرتديه تحت الثوب، دخل إلى وسط اللجة بخطوات متعجلة، انحنى أمام سوط العريس الذي شاهدته بعيني، يشق طريقه إلى اللحم في نقرات متتابعة، يتطاير على أثرها الدم. كنت أشهق، أفكر في غرابة المشهد، والنساء يزغردن بجنون، وراقصات شابات ممتلئات حيوية، يتوقفن عند صاحبي، يلقين بشعورهن المفرودة أو الممشطة على وجهه عدة مرات، ويضحك من السعادة. وحين خرج أخيرًا ليفسح المجال لآخرين زاحموه حتى في نشوة الألم، أسرعت إليه، رأيت الدم المتجلط على ظهره، ورأيت جداول قديمة من أثر السياط التي عربدت في ظهره من قبل، لم يتركني أتحدث كثيرًا، أو أبدي استغرابًا أو شفقة، أو حتى مجرد فضول، حدثني عن ذلك الطقس الموروث منذ القدم، بانتشاء شديد، وإنه يمارس حتى في المدن، وقد قام شخصيًا بجلد العشرات في يوم عرسه الذي حدث في أرض البطانة، ثم ارتدى ملابسه على مهل وأمسكني من يدي، حيث جلسنا على حصير طويل من السعف، رصت عليه مائدة العشاء التي أعدت علي شرف العرس، ووضعت على

جانبيه فوانيس تضيء المكان، كان يأكل بطريقة عادية، يتحدث مع الرجال بطريقة عادية، ولم أر يده تمتد لتتحسس الجروح على ظهره أبدًا.

فجأة، وبعد مسير أيام طويلة، عبرنا فيها عشرات القرى والأرياف، شاهدنا طقوسًا مكررة، مثل طقوس الأعراس وختان الذكور، وصيد التماسيح في النيل، وطحين الذرة، وصناعة الثياب يدويًا من القطن، وطقوسًا جديدة توجد في بعض القرى ولا توجد في أخرى، وشاهدنا مدينة بربر، التي كانت تعتبر مركزًا تجاريًا هامًا، وملتقى للقوافل المختلفة، القادمة من كل صوب، وكنا على مسافة ثلاثة أيام من العاصمة، سألني سيف القبيلة:

- هل تعرف أين ستقيم في العاصمة يا عثمان؟

كانت المرة الأولى التي يناديني فيها بذلك الاسم، الذي كان واضحًا أنه المرادف المحلي أو العربي، لاسم أوسمان الذي تحمله عائلتي، ولم يدهشني، وتوقعت بأنني سأنادى به كثيرًا، طالما أني أغامر في تلك البلاد، ولم أكن مخطئًا في توقعي.

قلت: نعم، في نُزل مستكة.

بدا مندهشًا وهو يسألني مرة أخرى:

- نُزل مستكة؟.. من أين تعرفه وأنت حديث على البلاد؟

لم يكن ما أدهشني بعد ذلك، ما قاله سيف القبيلة عن النُزل الواسع الرحب المحتفي بالغرباء، وصاحبته مستكة السخية في كل شيء، والتي كانت أسطورة في زمانها، وما تزال شبه أسطورة في نظر الكثيرين حتى الآن، ولكن حين نطق بعد أن أخبرته عن هارولد سامسون الذي أوصاني بذلك النُزل:

- الخبَّاز؟.. هل ما زال حيًا؟

- 8 -

الخرطوم

أخيرًا نحن في الخرطوم.

في العاصمة الكبيرة لتلك البلاد، التي من المفترض أن تكون بهية بعض الشيء، ومختلفة عن البوار العمراني الذي صادفنا طوال الرحلة، وقد كانت كذلك لأن فيها شيء من سمات الحضر. ليست سمات كثيرة، في الحقيقة ولكنها بعض سمات.

وصلنا في منتصف شهر يناير، حيث الشتاء الصحراوي على أشده، وثمة برد يابس يشقق الجلد، ويربك المفاصل، ولا أثر لغيوم في السماء، أو رائحة مطر. دخلناها من جهة الشمال الغربي، بعد مرورنا من نقطة تفتيش، يحرسها جنود إنجليز ومصريون، وعبرناها مارين بموقع التقاء النيلين، الأبيض والأزرق اللذين يشكلان نهر النيل العظيم، وشاقين أحياءهاالمختلفة، التي بدت لي من النظرة الأولى، حيًا واحدًا، تم تشتيته في كل الجهات. لم أعثر على بيوت كثيرة تصنف راقية، وتوحي بالسكنى المريحة، لأشخاص قدموا من بلاد راسخة في المعمار، كانت البيوت من الطين وروث البهائم والخشب أيضًا، لكنها أكثر تناسقًا من بيوت القرى، وبعضها شيد من الحجر الخشن، وبدا شامخًا وسط البيوت الأخرى، ولا عثرت على شوارع متعددة ذات غطاء ممهد تعبرها الدواب من دون أن تتعثر في المطبات والحفر، وكانت مآذن المساجد المبنية في أغلبها من الطين، هي الأعلى في كل البنيان الذي شاهدته. لعلي لم أتذوقها جيدًا بحكم قدومي من بلاد أفلتت من غشيان الفقر منذ زمن، أو لعلها تخبئ لي

مفاجآت سارة في أحيائها الأخرى التي لم تكن من ضمن مسار القافلة.

كانت الدواب قد تعبت من السفر الطويل، والمسافرون تعبوا أيضًا، وألمح الكونت جبريل الرحال، رافع الأثقال القوي، الغيور، يبدو مجرد مسافر مرهق فوق راحلة مرهقة، وعروسه الصعيدية اليانعة، قد تغبرت ويئست، وبالكاد تفتح عينيها لامتصاص البلاد التي ستقيم فيها بحكم الزواج، بينما صاحبي سيف القبيلة، يقاتل إرهاقه متسع الابتسامة، يرفع يديه الإثنتين، يحيي بهما عددًا من الفضولين، توقفوا في الطرق، يتفحصون القادمين على متن القافلة، والشيخ الساكت، صاحب العلم الروحاني الذي يمنعه الأكل والشرب والكلام، هبط في أحد الأحياء واختفى سريعًا، ولم يكن يحمل حقيبة تضطره للاستمرار حتى مهبط القوافل.

كنت أستطيع أن أتنفس لكن بصعوبة، أتحسس رأسي التي تدور، وبطني الذي ضمر قليلًا من طول السفر ووجبات تلك البلاد التي لم أتعودها، وكنت آكل منها القليل حتى أظل حيًا.، وشاهدت المئات من الإبل والحمير، وأيضًا الجياد المستخدمة مواصلات داخل العاصمة، ويركبها المحليون، والأجانب الذين وفدوا مستعمرين، ويحتلون الوظائف الرئيسية، مثل الإدارة والاقتصاد والإشراف الزراعي، والصحة، وغيرها من الأعمال الهامة التي لا توكل للمحليين إلا نادرًا. وحين وصلنا إلى مهبط القوافل الذي كان ساحة كبيرة في الوسط، محاطة بسور متهدم من الطين، وتتناثر على جانبيها المطاعم الشعبية، والمقاهي المعروشة بالخيش، وبركت الإبل منهارة، كنت بحاجة إلى يد قوية توقفني بعد أن تخدرت ساقاي تمامًا. كانت النظرة الأولي غير مشبعة بلا شك، نظرة عامة أعطتني ملامح مكان قد أعيش فيه زمنًا وقد أفر منه في أي لحظة، فقط ما جعلني أتمسك بمنطق البقاء، ما شاهدته من عدد غير قليل من الأوروبيين، يتهادون في الشوارع، يرتدون أزياء نظيفة، وأحذية لامعة برغم الغبار، وبعضهم يرتدي رباط عنق أيضًا، ولا تبدو على وجوههم

آثار غيظ أو معاناة.

هبط الجميع، وهبط جبريل الكونت من راحلته المنهكة متثاقلًا، أمسك بيد عروسه، لينزلها ويذهب بها إلى ركن تجمعت فيه بعض النسوة، يخبئها بينهن، ووجدت سيف القبيلة يشدني أيضًا لأهبط وأنا أهزهز قدمي، أحرك دورة الدم قبل أن أنتصب واقفًا.

كانت ساعة أخرى تناولنا فيها وجبة حارة من أقراص القمح المخلوطة باللحم المقدد، شبيهة بتلك التي تذوقتها عند العجوز سكر في وادي حلفا، من إحدى بائعات الوجبات المحلية في المكان، شربنا ماء معكرًا من أحد أزيار الفخار المغلفة بالخيش، واستلمنا حقيبتينا القماشيتين من مشرف إبل المتاع الدائخ وسط نداءات المسافرين القلقين على أمتعتهم، وصياح الكونت جبريل الذي كان متعجلًا جدًا، ونظراته شبه مثبتة على ركن النسوة الذي خبأ فيه الصعيدية، وللحظة وجدت نفسي أشفق على ذلك القوي الجسد، المهلهل القلب، وأفكر في زواج لن يعمر طويلًا. إذا استمر بهذه الطريقة. دخلت إحدى دور قضاء الحاجة القذرة المتوافرة في المكان، مزودة بماء عكر في أباريق من الفخار، اغتسلت جيدًا، وغيرت ملابسي المحلية، وارتددت أوربيًا مفضوحًا إلى أقصى حد، بعد أن زال خطر الجمال الوطنية، ولم يبق عندي من كل الوساوس التي رافقتني طوال الرحلة، سوى وسواس الإقامة الذي حددت له نُزل مستكة، ولا أعرف إن كنت سأقبل هناك أم علي البحث عن مكان آخر، أنطلق منه في مغامرتي المستكشفة، ولا أدري لماذا تذكرت غرفتي اللندنية المرتبة في تلك اللحظة، لماذا ارتبكت، وكدت أشتهي سريري واسطواناتي، وحاجياتي الأخرى التي تركتها، وجاهدت حتى أطرد الذكرى، وأعيش بمفردات العالم الجديد الذي سعيت إليه بمحض اختياري.. لن أكون مثل الخبَّاز سامسون الذي ترك مغامرته تضيع في ذاكرة لن تبقى متقدة إلى الأبد، بحجة الخوف من عدم الصدق، لكني سأوثق لنفسي ولكل

ما أصنفه بحاجة إلى توثيق، ولن أنسى بالطبع تاجر الإبل، هذاالصديق الغريب الذي بات أقرب إلي من كل من صادفتهم من قبل، وحتى أولئك الذين رافقوني طفلًا ويافعًا، ورجلًا مخلصًا لحياة رتيبة هادئة إلى حد الملل.

كان حظي السعيد بلا شك، ما جعلني أتعرف برجل مثل سيف القبيلة بعمق، في رحلة الباخرة النيلية، وطوال الطريق الذي قطعناه معًا صديقين مخلصين، الحظ الكفيل بدحر الوسواس الأخير في قلبي، حين أخبرني تاجر الإبل عن نيته المبيت معي هذه الليلة في نُزل مستكة الذي اعتاد عليه، ويسافر غدًا إلى موطنه أرض البطانة في رحلة ليست طويلة هذه المرة. وجدته يوقف عربة من عربات الكارو المصنوعة من الخشب بالكامل، والتي تقودها الحمير، وتستخدم بشدة لنقل المتاع والناس في شوارع العاصمة، وتنتقل أحيانًا إلى الضواحي، يطلب من سائقها التوجه إلى نُزل مستكة. وقد استنتجت بأن النُزل معروف وربما يكون من معالم المدينة البارزة، لأن السائق لم يسأل، وانطلق صامتًا.

لم تكن المسافة بين مهبط القوافل، ونُزل مستكة، طويلة وقطعتها العربة الخشبية في أقل من نصف الساعة، وهي تسير متمهلة. مررنا بشوارع تبدو شبه مرتبة، زرعت على جانبي بعضها أشجار السدر، والزنزلخت الهندي وارفة الظلال، وبعض العمال من المحليين، يسقونها بالمياه التي لا بد تجلب من نهر النيل، أو من آبار قريبة، بينما شوارع أخرى موحشة، نمت على جانبيها أشجار المسكيت والأعشاب الطفيلية، وخالية من الناس. مررنا بمصلحة البريد والتلغراف، التي كانت بناء متواضعًا من الحجر، ما زال العمال يكملون إنشاءه، ومصلحة سك العملة التي تضطلع بمهام صناعة النقود وضبطها، ومركز تابع لشرطة الخيالة، تهدم قسم من جدرانه، وتراصت الجياد المحملة بالسروج على بابه، ورجال مقيدون بالسلاسل، ومحروسون، يتطلعون إلى الفراغ في أسى. كان يوجد مركز

طبي مشيد بالحجر، يبدو على مرأى من البصر، استدللت عليه من هيئته، والممرضات اللائي شاهدتهن، يدخلن، ويخرجن منه، وشاهدت حفريات متوازية وتمتد إلى مسافات بعيدة، قال لي سيف القبيلة، إنها تخص خط السكة الحديد الذي سيبدأ إنشاؤه قريبًا، ويربط العاصمة بوادي حلفا، مختصرًا طريق القوافل المر الذي ركبناه مرغمين بلا خيار آخر. وعبرنا بوسط أحد الأسواق العامرة، ويسمى سوق الشمس، وتتراص البضائع فيه على طاولات من الخشب أو الطين اليابس، أو على الأرض، تحت الشمس مباشرة وبلا مظلات، ويشهد زحامًا شديدًا من قبل المحليين، والأجانب معًا، وتسمع بين حين وآخر أصوات منغمة، تروج لسلعة ما، أو غاضبة، نتيجة عراك على سعر لم يعجب المشتري، وأبى البائع تغييره، وكان ثمة جنود إنجليز في تلك اللحظة، يجلدون رجلًا محليًا مربوطًا إلى إحدى الطاولات الفارغة، قيل إنه سرق حزمة جرجير من طاولة لبيع الخضروات، وحاول أن يفر بها، غير مبالين بصراخه الذي غطى على كل هرج السوق. وامرأة شابة ترتدي ثوبًا أسود ممزقًا عند الأطراف، وتحمل طفلًا ملفوفًا بخرقة من القماش، تقترب منا مادة يدها، وسيف القبيلة يمنحها شيئًا. إنه السوق الشعبي المركزي الذي تشتري منه المدينة معظم حاجياتها، والذي سيصبح فيما بعد، واحدًا من الأماكن التي قضيت فيها أوقات ليست بالقليلة، حين تعلمت التجارة ومارستها، خاصة في سوق الدواب.

قبل أن نغادر ذلك السوق، أوقف سيف القبيلة سائق العربة فجأة، انفلت بخفة إلى زحام متكاثف حول جمل بارك على ركبتيه، ومعروض في مزاد كما يبدو، وثمة رجل يصيح مرددًا أسعارًا، كان يعرضها المتزاحمون، لم يغب طويلًا وعاد وهو يردد:إنه من فصيلة الأصايل، لكنه عجوز ونهم، ولن يفيد مشتريه في شيء.

بالطبع لم أفهم ما يعني، لكنني هززت رأسي مؤمنًا، كأني فهمت.

وكما حدث في تلك القرية القريبة من وادي حلفا، شاهدت رجلًا متسخ الثياب بشدة وحافي القدمين، يركض في اتجاهنا، يعترض سير العربة وهو يردد من بين لهاثه: يا عمدة، لقد حلمت امرأتي الحامل بأنها ستضع مولودًا ذكرًا اسمه سيف القبيلة.

لم يبتسم تاجر الإبل هذه المرة، أدخل يده في جيبه، وأخرج واحدة من العملات الصغيرة ألقاها للرجل وهو يقول: إنه ليس متزوجًا حتى.

ونحن نقترب من نُزل مستكة، اعترضنا سور كبير من الحجر المدهون بالأبيض، يحيط بمبنى شاسع شيد من الحجر أيضًا، وله بوابة خشبية كبيرة، مغلقة بالجنازير، ويحرسها بعض الجنود المسلحون بالعصي والبنادق، وكان ثمة زحام كبير عند تلك البوابة، وعشرات النسوة يحملن سلالًا من السعف، غطيت بالقماش، ويجادلن الجنود بأصوات حادة، ملحة. إنه السجن الكبير، كما أخبرني سيف القبيلة، ونصادف يوم الزيارة الأسبوعي، حيث أفراد من عائلات السجناء، يحملون الأشواق والطعام لأحبائهم المحبوسين خلف تلك الجدران.

- هذا هو الحي الذي يقع فيه النُزل.

قال سيف القبيلة وهو يشير بيده، إلى بداية الحي الذي دخلناه بعربة الكارو، بعد أن اجتزنا سور السجن الكبير، وكان حيًا عاديًا شبيهًا بمعظم الأحياء التي شاهدتها في طريقي، نفس البيوت التي يغلب على بنائها الطين، نفس الشوارع المتربة، المثقوبة بالحفر، نفس الرجال المعممين، لابسي الجلابيب والثياب القصيرة والسراويل، والنساء لابسات الثياب الملونة، والأطفال الذين يتسابقون حفاة أو يلعبون لعبة التخفي وهم يتصايحون، وقد توسط الحي مسجد صغير مبني من الطين، ودكان ضيق لبيع السلع الخفيفة، وحفر بئر محاط بسياج من القش في وسط الحي، وبعض النساء يغرفن منه في أواني من الفخار، ويبدو أن درسًا دينيًا يقام بالمسجد تلك اللحظة، لأنني استمعت إلى ترتيل عذب لصوت رجالي

شجي ينبعث منه، تتبعه أصوات أخري أقل عذوبة، لصبيان يرددون خلفه:

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا * ﴾.

أحسست برعدة خفيفة في جسدي، بالرغم من أنني لم أفهم، وكانت مرتي الأولى التي استمع فيها إلى القرآن الكريم مرتلًا، قبل أن أفقهه وأرتله بصورة لائقة بعد ذلك، بصحبة الشيخ(صاحب الشأن مولانا)، شيخ الطريقة الصاحبية الشأنية المنتشرة في البلد، والمتصوفة الآخرين الذين صاحبتهم في تلك البلاد الغريبة.

لم تكن على باب النُزل الفسيح المبني من حجر صلد، أي لافتة تشير إلى هويته، وتصنفه مكانًا لإيواء الغرباء، كما يحدث في بلادنا. على جانب الباب المصنوع من خشب المهوقني البني، توجد دكة ممهدة من الطين، تمتد عدة أمتار بمحاذاة الباب وقد فرش عليها حصير نظيف، توجد حمير كثيرة مربوطة إلى أوتاد من الخشب، وعدة جياد، وقد شتت حولها العشب اليابس، أو التبن، وأعدت لها حفرة سقاية واسعة ممتلئة بالماء، وكان المارة يبطئون قليلًا، يتأملوننا بشيء من الفضول، قبل أن يواصلوا الطريق.

سمعت سيف القبيلة فجأة يردد، وقد اكتسى وجهه بشيء من الرهبة:

«وعليه الصلاة والسلام»، قبل أن يمد يده. يطرق الباب، مستجيبًا لكتابة على الحائط لم أكن قد لحظتها من قبل، وكانت تقول:

«صلوا على النبي المختار».

في اللحظة التالية كان الباب الخشبي العريض قد فتح، محدثًا أنينًا حادًا، يعتبر سمة أساسية من سمات الأبواب في تلك البلاد، حيث الفلسفة المعمارية ليست في جمال الشكل أو الإتقان، ولكن مجرد البناء الحافي الذي يؤوي من يقطنه بلا أي مميزات أخرى، وحين غزت بريطانيا

تلك البلاد، وجلبت المصممين والمعماريين من ضمن الذين جلبتهم في حملتها، لم تسع لتعميمهم على الجميع، وخصصتهم للبيوت التي ستؤوي الغطرسة الغازية.

كان من فتح الباب في تلك اللحظة، رجل في حوالي الخامسة والخمسين، أسود البشرة تمامًا، وذو صدر عريض، وقدمين حافيتين مشققتين، وموشوم في خده بتلك الخطوط التي تعتبر من ضمن الجماليات كما ذكرت، وكانت عميقة وأفقية.. كان يرتدي ثوب (العراقي) القصير، فوق سروال متسخ، ويحمل في إحدى يديه فأسًا، كان يستخدمها على الأرجح في تكسير الحطب. اندفع إلى سيف القبيلة، يحتضنه، يقبل رأسه ويده، ويستلم نصيبه من سخاء تاجر الإبل، ولم يهتم حتى بإلقاء نظرة عابرة علي، وكنت أعتقد نفسي بحكم أنني أوروبي، هامًا، و كفيلًا بلفت النظر، ونيل الاحترام من رجل يبدو من الرقيق المحبوس في قفص صاحبة هذا النُزل الشهير، حتى اسمه(عبد الرجال زافو)، الذي كرره سيف القبيلة مرارًا، وهو يرد على تحاياه العنيفة، لم يكن اسمًا حرًا، وإنما اسم تابع مكسور ومرغم على التبعية منذ ولد، بادرت بالسلام عليه التزامًا بقداسة فلسفتي الجديدة التي اكتسبتها، أن تتذوق الشجر اليابس كما تتذوق الأخضر، تتذوق الجرذان كما تتذوق الطيور المغردة، وسلمته حقيبتي التي حملها بجانب حقيبة سيف القبيلة، بعد أن ألقى الفأس قرب الباب، وتقدمنا إلى داخل المكان الذي ارتفع منه صوت أنثوي منغم، ينادي:

- يا عبد الرجال.

- 9 -

الأسطورة والتحدي

كانت (مستكة) امرأة أخرى.

هكذا بدت لي من النظرة الأولى، والثانية، وكل النظرات التي تلت بعد ذلك..

امرأة تشد العين لتتأملها، والقلب لينفتح لها واسعًا، ويمكن أن تشعل الرغبة والغيرة، والجنون، وكل التوابل الأخرى التي ترافق العذاب في عشق المرأة الجميلة. بيضاء البشرة وفارعة الطول بشكل ملفت، وذات عينين مشعتين، وشعر أسود غزير مفرود على كتفيها، وأنف مستقيم، بعيد تمامًا عن أنوف المحليين المعوجة، وصوت مغرد، كأنه يصدر من كمان، تحركه أصابع (يوهان باخ)، ولم تكن موشومة في خدها بأي خط لا رأسي ولا أفقي. كانت تفهم في فن الضيافة، وتقرأ القلق المرسوم على وجوه نُزلاء بيتها وزائريه، وكانت بلا عمر يستطيع أحد تحديده، وقد حاولت ذلك في تلك اللحظة التي رأيتها فيها، وفوجئت بأعمار في الثلاثين والأربعين وحتى العشرين، يمكن أن تأتي سلسة لتكون عمرها. وجدناها تقف متأنقة بقميص أخضر من الستان، في وسط نُزلها الواسع، المرتب كثير الغرف والزوايا، ولم أستطع أن أتخيلها، إلا تلك المرأة الشرقية التي رأيتها مرة في لوحة من أعمال الفرنسي (جان لوبون). المستوحاة من سحر الشرق، كانت معروضة في مزاد في لندن، واقتناها تاجر تحف ايرلندي. وعلى عكس الآخرين الذين شاهدتهم يرتبكون، ويفقدون الهيبة عند رؤية تاجر الإبل سيف القبيلة، ويرتمون على تحيته، وتقبيل يده السخية، لم

تتحرك مستكة شبرًا واحدًا ناحيته، تركته يهرول باتجاهها وهو يمسك بذيل جلبابه، وأهرول خلفه، وتمد لنا يدًا بيضاء ناعمة، مرصعة بالخواتم لنقبلها، تمامًا مثل أي ليدي فارهة من نساء لندن البعيدة.

كان الأمر برمته مربكًا، وبعيدًا عن تصوري الذي وضعته عن تلك المرأة حتى بعد أن أخبرني تاجر الإبل بأنها أسطورة. ظننتها واحدة من أساطير المحليين التي يخترعونا عمدًا، بغرض تصديقها واللهاث خلفها، واتضح لي الآن بأنها ستكون أسطورة أيضًا، حتى لو وضعت بلا أي تعديل، في تلك المسابقة التي صيرت سونيا أفرين، ملكة للجمال، تقدم المسابقات على ظهر سفينة، ويفخخها تاجر مجوهرات يهودي لاصطياد نساء الشرق، وكان أكثر ما حيرني، أصلها الذي لم أستطع تحديده، ولا كان صديقي تاجر الإبل يعرفه، ووجودها في تلك البلاد التي تبدو أقل كثيرًا من الاحتفاء بها، ولا بد أنني كنت مسرفًا جدًا في ارتباكي حين لم أنتبه إلى أن شفتاي بقيتا طويلًا على يدها، في قبلة يفترض أن تكون خاطفة.

جلست مستكة على مقعد نظيف من الخشب المصقول بني اللون، من ضمن مقاعد عديدة تشبهه، وسط صالة فسيحة داخل النُزل، مزينة بعدد من تحف الطين والخشب والفخار، وأطباق السعف، ولوحات مرسومة بالزيت، ودعتنا للجلوس بابتسامة، وطلبت من عبد الرجال الذي كان يقف متصلدًا، يحمل حقيبتينا الخفيفتين، أن يذهب بهما إلى غرفة(الزاجل) الخالية من النُزلاء، ويطلب من خادمة اسمها دنيا، أن تعد لنا شراب القضيم المرطب. وقد عرفت فيما بعد، بأن غرفة الزاجل التي منحتنا إياها، ليست غرفة مميزة أو ذات حظوة، داخل النُزل كثير الغرف، وإنما مجرد اسم للتفريق بين الغرف المؤثثة بأسرة الحبال العادية، وخزائن الخشب والقماش، و تحمل أسماء مختلفة مثل: العامرة، والمحظوظة، وأم الغرف، وغرفة بتول، والشبعانة، والبشائر.. هكذا.

- كيف كانت الرحلة؟

كانت تسأل سيف القبيلة الذي بدا لي في تلك اللحظة، قد فقد كثيرًا من شموخه المعتاد، وبدا مجرد راع عادي شبيه برعاة إبله الذين يرسلهم برًا إلى مصر، ويتتبعهم بالباخرة النيلية. كان ما يزال يرتدي الثياب التي هبط بها من القافلة، وكانت أشد اتساخًا من تربة متسخة، بينما بدا جرابه المربوط في وسطه، ويحمل المال الذي غنمه من الرحلة، بارزًا إلى الأمام بشدة، وموحيًا ببطن ضخم، لم يكن حقيقة موجودًا.

- جيدة جدًا يا مستكة.. لقد اعتدت عليها.. تعرفين سفري المتواصل من أجل الرزق.
- نعم.. من صاحبك الخواجة؟

كانت تسأل عني، عيناها في وجهي تمامًا، وأستطيع أن أعد رموشهما الطويلة، وأتنزه في مساحات الصفاء داخلهما.

يدها اليمنى تشير إليّ، وألمح حناء سوداء، نقشت على شكل وردة، وخاتمين كبيرين بفاروصتين خضراوين، يزينان إصبعين من أصابعها.

- إنه جلبرت أوسمان.. عثمان الإنجليزي كما أسميه.. من أصدقاء السفر الأعزاء، يأتي للبلاد لأول مرة، ويرغب في الإقامة عندك بعض الوقت حتى يتدبر أموره.
- زائر أم غائر؟

فهمت ماذا تعني كلمة الزائر التي قالتها، لكنني لم أفهم ماذا عنت بكلمة الغائر، التي لم تكن من ضمن القاموس شبه المحدود الذي أحمله في رأسي، وأحاول تطويره باستمرار منذ بدأت أحتك بالعرب، حين هبطت من الباخرة في بر الإسكندرية.

رأيت سيف القبيلة يبتسم، ثم سمعته يضحك، ولعلها الضحكة الأولى التي أسمعها من فم تاجر الإبل منذ أن صاحبته، وكنت قد رأيت ابتسامته من قبل حين أخبره القروي جابر، بأنه سمى ابنًا على اسمه..

- زائر يريد استكشـاف البلاد في رحلة خاصة.. كلّمها يا عثمان عن سبب رحلتك.

لم تبد مستكة مندهشة من اسمي، أو كوني أتحدث لغتها، ولا أبدت اكتراثًا كبيرًا أو ساخرًا بعيوب النطق، واعوجاج اللسان وأنني كنت أتوقف أحيانًا بعض الوقت، لأبحث عن كلمة ضائعة أكمل بها الجملة، لكنها فهمت بأنني مجرد فرد أغامر مدفوعًا برغبة خاصة في اكتشاف عالم جديد، مختلف عن العالم الذي ولدت وعشت فيه، ومللت من أيامه المتكررة. فهمت بأن لا دخل لي في تعمير الأسلحة وتسيير الجيوش، وتفتيت وحدة الشعوب المسالمة، وقيادتها بالعصا والبندقية، ولن أحمل خنجرًا للطعن، أو سوطًا من جلد البقر، أجلد به رجلاً سرق ربطة جرجير، لا تساوي رحلة عذاب طويلة، يقضيها في تضميد روحه المنهزمة. وحين حدثتها عن الجمال الوطنية التي اضطرتني لتغيير هيئتي مؤقتًا حتى أركب القافلة إلى العاصمة، ضحكت بترف، وكانت ضحكتها ساحرة، وأسنانها أبيض من صباح مشرق.. قالت:

- لا تصـدق العمـدة سـيف القبيلـة.. كل الجمـال هنـا خائنة، وتحب حمل الغرباء على ظهورها، حتى الجمال التي يملكها هو في أرض البطانة، ويبيعها للمصريين.

لم يقل سيف القبيلة شيئًا، اهتزت عمامته على رأسه طربًا، ضحكته هذه المرة كانت أكبر، وذات صدى، وبدا لي الآن أقل كثيرًا من رعاة إبله الصحراويين، وقد لا يكون ذلك حقيقة، ولكنه السحر الأنثوي الأخاذ الذي حين يسيطر، يستطيع ببساطة شديدة، أن يحول ملكًا متوجًا على عرش من الذهب، إلى مجرد خادم، السحر الذي كان يمكن أن يسمرني في عالمي القديم، لولا أن هيلينا دا سيلفا ذات الأصول الأسبانية، قررت في لحظة من لحظات برود عاطفتها، أن تفكني من أسره. لم أشأ أن أخبرها بأن هارولد الخبَّاز هو الذي رشح لي بيتها للإقامة، قبل أن أبدأ

الرحلة، وقطعًا تعرفه كما يعرفه سيف القبيلة، وأعرف يقينًا أنها تظن بأنني أتيت غشيمًا في ذيل تاجر الإبل.

نهضت مستكة فجأة من جلستها، توارت قليلًا في إحدى الغرف المجاورة، وعادت تحمل ورقة عليها كتابة بالعربية والإنجليزية، سلمتها لي من دون إيضاح، واكتشفت بعد أن تفحصتها سريعًا، أنها لائحة مصغرة لقوانين النُزل التي يجب علي احترامها أثناء المدة التي سأبقى فيها، وكانت قد دونت فيها أسعار المبيت والأكل والشرب وفقرات خاصة بالأخلاق العامة، مثل مراعاة شعور الآخرين، وعدم العري أو إحداث فوضى خارج الغرف، واعتبار الخادمات مجرد خادمات بلا أي أغراض أخرى، وتحذيرات من مصائب أخرى عديدة لم يكن في نيتي ارتكابها أبدًا.

أبديت موافقتي على الشروط الواردة في الورقة، بلا جدال، وواصلنا الحديث الناعم، وكنت الآن أتجرد من ترددي، أتجرأ بشدة، أقارنها علنًا بنساء عرفتهن من قبل: دوريس الحولاء.. هيلينا دا سيلفا..روهانا الغجرية.. وأحدثها عن لويجي آر كميلسون، قبطان السفن الشراعية، الذي كان من المفترض أن يموت عشقًا هنا، ومن أجلها هي، لا من أجل ملكة أخرى، لم تبك حتى عليه، وهو يلقى ببرود في قاع البحر. أحسست أن مستكة تأثرت قليلًا حين ذكرت تلك القصة، لكنه تأثر طارئ، اختفى سريعًا، تأثر امرأة معتدة أخرى، في أغلب الظن كانت ستفعل تمامًا ما فعلته سونيا أفرين، لو أن ما حدث، قد حدث في هذا النُزل، ومات الرجل، وألقى للضباع في غابة أو صحراء. الشيء الذي أثار اهتمامها حقًا في كل تلك القصة، هو مسألة الجمال ومسابقاته، ولم تكن قد سمعت من قبل عن مثل تلك الأشياء، وفاجأنا سيف القبيلة بأن تحدث عن شيء شبيه بذلك، يحدث في أرض البطانة، عن النساء العازبات اللائي يخرجن في وقت العصر من كل جمعة، مزينات، مكحلات العيون، وحاملات لأقداح الطعام الذي صنعنه بأيديهن، يتهادين، ويأتي الرجال لينبهروا، ويتذوقوا،

ويرشحوا الأجمل بينهن، والألذ طعامًا، ملكة لذلك العصر، فقط كان الاختلاف، في أن الملكة لا تبقى على عرشها سوى أسبوع واحد، وأن الطقس ليس من أجل الفرجة والغزل، واستلهام الشعر فقط، ولكنه قد يكون جسرًا تعبر به تلك الملكة العازبة، إلى الزواج.

انقطع ذلك الحديث الحالم، بوفود زوار آخرين، أرادوا السكنى المؤقتة في نُزل مستكة كما يبدو، وعرفت منهم ثلاثة رجال من منطقة دار الفور، في غرب البلاد، كانوا من رفاق السفر، وذكروني بالرهبان المسنين الذين زاملتهم في البحر، لأنهم كانوا دائمي الصلاة على سطح الباخرة النيلية في سجادات من الفرو، يخرجونها من حقائبهم، ويرددون أذكارهم بأصوات عالية ومنغمة، وأذكر أن واحدًا منهم استل سكينة حادة في وجه مسافر ردد كلمة بذيئة أثناء اندماجه في المزاح مع آخرين، وكاد يذبحه لولا تدخلنا جميعًا لتنتهي المسألة على خير.

فجأة أصابتني الدهشة المطلقة، حين رأيت رافع الأثقال القوي جبريل الذي يلقب نفسه بالكونت رغمًا عن بعد المسافة بينه وبين اللقب، يدخل كعاصفة، وهو يجر العروس الصعيدية من خلفه، بينما صوته في حالة هياج، يطارد الخادم عبد الرجال زافو المحمل بالحقائب، والبعيد تمامًا بحكم أنه خادم ومن الرقيق، عن أي حماقة تؤدي لمثل ذلك الهياج. واستطعت أن أخمن بارتياح، إنها لحظة غيرة عادية من رجل اعتاد على الغيرة حتى من ثيابه، حين تحتك بالعروس الصعيدية. الشيء الذي لم أستطع فهمه، هو عدم الذهاب إلى أهله، وحضوره للإقامة هنا، بالرغم من أنه من سكان العاصمة، كما أخبرني في واحدة من لحظات عدم غيرته النادرة، حين كنا في السفر. وجدت نفسي أسأله بفضول تعلمته مؤخرًا، وكان جزءًا من فضول المغامرة كلها، أو فلأقل جزءًا من الاستكشاف:

- لماذا أتيت هنا، ولم تذهب إلى أهلك؟

رد علي بغلظة، وعيناه تتابعان نظراتي لترى أين حطت، وكانت قد

حطت للأسف على وجه عروسه الذي بدا أحمر ومرهقًا، وممتلئًا بعلامات استياء بلا حصر، لقد بدا لي في تلك اللحظة، وجه سجين، يعذبه سجان:

– لقضاء شهر العسل بعيدًا عن المشاكل.

وهنا أيضًا أستطعت أن أخمن بارتياح، بأن في ذهنه عشرات من عيون الأهل و الأقارب التي ربما لو حامت حول زوجته، لحولته إلى سفاح.

لم يعجب النُزل أبناء الغرب المصلون، الذاكرون كما يبدو، أو لم يعجبهم قوام مستكة وجمالها المبهرج، واعتبروه خطيئة، لأنهم استداروا خارجين من دون كلمة، وعيونهم باتجاه الأرض، ناسين حتى استلام حقائبهم من عبد الرجال الذي لحق بهم خارجًا وهو يتعثر، وبقيت معضلة الكونت جبريل حين ألح على غرفة بعيدة حتى عن الشمس والهواء، وقريبة من مكان الاغتسال وقضاء الحاجة، وكانت من المعضلات العادية لدى صاحبة النُزل، لأنها احترمت عسله المشتعل غيرة، رحبت بالعروس المرتبكة بأن رشتها بشيء من عطر الصندل، وبخرتها ببخور من الصندل أيضًا، ومنحته غرفة في أحد أطراف النُزل، اسمها الذهبية، كانت أفضل تجهيزًا من الغرف الأخرى، ومحجوزة طوال العام لثري من الجزيرة العربية، يأتي أحيانًا لصيد الطيور والغزلان في الغابات الكثيفة المنتشرة في أرض السودان، وحذرته بأن صاحب الغرفة قد يأتي في أي لحظة ليخرجه، وعليه أن يرضى عند ذلك بغرفة بديلة، وتقبل الكونت تحذيرها، لكنه بدا منزعجًا.

الذي حدث في اللحظة التالية، لم يكن من ضمن فلسفة مدرسي القديم مستر ويلارد، لأتوقعه، ولا ذكريات الخبَّاز هارولد سامسون، لأتقبله بلا دهشة، ويمكن أن يقضي على نظريتي في كتب الرحالة والمستكشفين التي طالما وصفتها بالنزق وسعة الخيال، وبعدها عن كل حقيقة.

رأيت سيف القبيلة يستعيد فجأة زعامته التي كانت ترافقه طوال السفر، وضاعت هنا حين سقطت عيناه على مستكة الأسطورة، رأيته يهب من جلسته متهيجًا، وسمعته يصيح على جبريل الذي بدأ طقس الجرجرة المعتاد لامرأته، متجهًا بها إلى غرفة الثري العربي، المسماة الذهبية:

- أنت يا أخ.. لحظة.

توقف جبريل في منتصف النُزل:

- ماذا تريد؟
- أن تلاعبني لعبة القوة.. أتحداك.

كانت لعبة القوة التي ذكرها، من أكثر وسائل التحدى انتشارًا في تلك البلاد، وتذكرني بمبارزة السيوف التي كانت سائدة في أوروبا لفترة طويلة، وابتدأت في الانقراض، وتعتمد تلك اللعبة علي أن يمسك الخصمان بقبضتي بعضهما البعض على طاولة، أو أرض صلبة، ويحاول كل خصم أن يثني قبضة غريمه، حتى تلامس الطاولة أو الأرض، في هزيمة معنوية، ينتفخ بها الفائز، وينكسر المهزوم انكسارًا من الصعب ترميمه، وعادة ما تجري في جو رهيب مشحون، شبيه بأجواء الحرب، فيه صياح وطبل ينقر، ويحضرها الناس بشغف، ولتصبح فيما بعد محورًا هامًا من محاور ثرثرتهم، وقد رأيتها أثناء مرور قافلتنا بالمدن والقرى الريفية، بعضها نصب لسبب يستحق أن تنصب له، كتنافس اثنان على قلب فتاة مميزة، وبعضها لسبب تافه جدًا مثل التنافس على مرعى، يمكن ببساطة شديدة أن ترعى فيه أغنام كلا الغريمين.

لا أدري لماذا وضع أعرابي أقرب إلى الضعف الجسدي منه إلى القوة، نفسه في ذلك الموقف الذي لن يكون عادلًا حتمًا، وقبضة الكونت جبريل الشبيهة بقبضة صديقي رامي القرص بيتر مادوك، في رأيي، يمكن أن تهزم عشرين قبضة في مسكة واحدة. إنها الشفقة بلا شك. الشفقة على عروس صبية وغريبة عن البلاد، ولا تملك خيار إلا أن تكون سجينة

في بلد لا تعرف فيه أحدًا سوى سجانها، لقد أراد تاجر الإبل أن يخوض مغامرة إذلال للسجان قد تنجح وقد تخفق، إن نجحت، فلن يكون لدى جبريل الكونت وجه شرس يخيف به أحدًا بعد ذلك، وإن أخفقت، يكون الأعرابي تاجر الإبل، قد قدم ما عنده من المروءة، وانكسر في مكان لا يعرفه فيه الكثيرون، وليس واحدًا من أماكن زعامته. أنا أيضًا أحسست بالشفقة، وهذه المرة على صديقي تاجر الإبل، وكنت متأكدًا، إن رضي جبريل أن يلاعبه، فسيستلم قبضة يده اليمنى بعد لحظات فقط من بداية التحدي، مجرد لحم مهروس بلا عظم. تمنيت حقيقة أن يمضي السجان بفريسته إلى محبسها، غير مكترث، وأخذت أتطلع بعيني الحائرتين إلى مستكة الأسطورة، وكانت تقف ساكنة تراقب، ليس في وجهها أثر لشفقة أو بؤس، ولم تكن للأسف في لائحة نُزلها فقرة واحدة، تحظر الخصام بالأيدى بين السكان، هنا لن يكون ثمة موت تخاف حدوثه. نظرتي الأخرى كانت موجهة لسيف القبيلة، وكانت نظرة رجاء، لم تفد، خاصة حين أفلت رافع الأثقال، يد الزوجة السجينة، وعاد إلى اتجاهنا يمشي بغطرسة، وعلى وجهه ابتسامة بيضاء بفعل أسنان كاملة وشديدة اللمعان.. قال:

- ألاعبك أنا الكونت جبريل الرحال، الذي هزم رجالًا يفوقونك طولًا وعرضًا؟، وكسر عيونهم.. هل أنت متأكد؟
- نعم.. تعال وتحدني.
- أنت متأكد؟
- نعم.. هيا أنا مستعد.
- أتحداك.. لم لا؟.. منذ مدة لم أكسر يدًا لأحد.

قال ذلك، وانتفخ أكثر، تمطى فطار زر من أزرار قميصه، ولم يكن يرتدي الثياب المحلية مثل معظم من قابلتهم. كانت مشيته و اثقة، وابتسامته أكثر اتساعًا، وعروسه حرة من القيد، بعد أن أفلت يدها.

فيما تلى ذلك من دقائق، اكتملت حلقة الخصام بكل توابعها المعروفة. جاء عبد الرجال زافو بإناء عريض من النحاس، ثبته بين فخذيه، وابتدأ ينقر عليه بعودين سميكين من الحطب، بما يشبه طبول الحرب المستخدمة عند القدماء، خرج عدد من السكان المحليين والأجانب، وأغلبهم من مصر والشام، ممن تصادف وجودهم في النُزل تلك الساعة من غرفهم، على صوت النقر العالي، تجمعوا عند الغريمين، وكانا قد جلسا على حصيرين صغيرين، فرشا على الأرض في وسط المكان، واستلما قبضتي بعضهما البعض، وابتدأ التحدي سريعًا وساخنًا، ومتكافئًا أيضًا، عكس ما تصورت، وخيل لي أن العروس الصعيدية المصدومة، كانت في صفنا، لأنني كنت ألمح عينيها ترتعدان كلما اقترب زوجها الكونت من إنهاء اللعبة لصالحه، وتبتسمان حين تكون السيطرة في قبضة سيف القبيلة، ثم لتحدث المفاجأة الكبرى، وينتهي الخصام بعد حوالي الساعة، بيد رافع الأثقال القوي، منهزمة ومضعضعة على الأرض، وعينيه كسيرتين، بالكاد استطاع ان يرفعهما، ليرى أين تقف زوجته، التي سارت خلفه هذه المرة إلى الغرفة الذهبية، بلا يد تجرها، بينما قهقهات المشاهدين عالية، وتهانيهم لسيف القبيلة، شماتة صريحة، لن يستطيع جبريل أن يتفادى طعناتها علي ظهره.

قضينا أنا وصديقي سيف القبيلة ليلة مفرحة، وضاجة في غرفة الزاجل التي خصصت لنا، وكانت مريحة إلى حد كبير، إذا ما قيست بظهور الإبل، وحصائر السعف الجافة في القرى، وتلال الرمال التي كنا نقضي فيها ليالينا المسهدة أثناء السفر. نمنا قليلًا جدًا، برغم التعب، وكونه سيسافر غدًا صباحًا إلي موطنه في أرض البطانة تاركًا صداقتي إلي حين عودة أخرى، إن وجدني ما أزال مرابطًا في البلاد، لم أمت من مرض، أو غدر، أو أعود إلى موطني، وأيضًا تاركًا رأسًا منحنيًا لرجل قوي لم يكن يظن أبدًا، أنه سينهزم يومًا من أعرابي بعيد تمامًا عن القوة، وتربية العضلات،

وقال سيف القبيلة بعد أن انتشي بعدة كؤوس من العرق المحلي القوي الذي جاء به عبد الرجال بناء على طلبه من امرأة تصنعه في بيت قريب من النُزل، ولم يكن يتحسس يده، أو ينظر إليها حتى: إن المسألة ليست جسدًا مفتولًا، ولكن قلبًا يشع حرارة مثل قلبه، قال إنه يرثى للزوجة المسكينة، وقد فكر مرارًا في انتزاعها من ذلك الزوج المجنون، ليعيدها إلي أهلها في صعيد مصر، لا لأي دافع سوى الشهامة، وما فعله في كسر عين الكونت قد يجدي في الحد من هياجه خارج غرفة العسل، ولكن غير مضمون النتائج، خلف بابه الموصد.

لم أشاركه النشوة بالعرق المحلي خوفًا من شيئين، أن يفسد تذوقي للخمر الراقي الذي كنت أحتسيه في لندن، وأن يكون قويًا جدًا ويفوق احتمالي، بحيث أموت غريبًا قبل أن أعرف الكثير عن البلاد التي طرقتها من أجل المعرفة. وحين لملم سيف القبيلة نفسه في الصباح الباكر بعد تلك الليلة الشبيهة بليلة العجوز سكر في وادي حلفا، وغادر راكبًا حمارًا مستأجرًا، إلى حيث توجد قافلة سفره، أحسست لأول مرة بالضياع، وأنني بلا سند، ومسكين، وفي منتصف البداية، لا أعرف كيف سأعبر إلى نهايتها. خفت من الأسطورة مستكة باعتبارها بؤرة إغواء كثيف، قد تجرني إلى كسر قوانين اللائحة، وإن كان لم يذكر في تلك اللائحة، اعتبار صاحبة النُزل، صاحبة نُزل فقط بعيدًا عن أي أغراض أخرى، كما ذكر في حق الخادمات. خفت أن يسعى الكونت جبريل، لاستعادة عرش الشر الذي فقده، حين نازل أعرابيًا، ويلاعبني لعبة القوة مرغمًا، ويهرس عظام يدي، وخفت أكثر أن يكون عبد الرجال زافو، برغم هيئته البريئة، وارتدائه ثوب الطاعة القصوى، واحدًا من أكلة لحوم البشر، أولئك الذين حولوا القس المبشر، إلى وجبة رصت على مائدة زعيم، وقد يباغتني في أي لحظة تنعدم فيها الرقابة في النُزل، ويلتهمني. وكما حدث حين فاجأني المغني جون القصير، بتأوهاته ومجونه في ليلة الانحراف تلك على ظهر

السفينة البحرية، لم أخرج من غرفتي طوال الصباح، بالرغم من تشوقي لاستكشاف الجوار، ومحاورة السكان الآخرين، وأيضًا شرب فنجان من القهوة بصحبة الأسطورة مستكة. تركت وساوسي تتلاقح بداخلي، من دون أن أسعى لإيقاف تلاقحها، وفي تلك الساعات بالذات، فكرت في قرار المغامرة الذي اتخذته بعد ليلة مؤرقة، وبدا لي أغبى قرار، لا يتخذه سوى غبي. تذكرت أن مسألة الغباء هذه ليست جديدة، وأن والدي استخدمها في حقي مرارًا من قبل، لكنه لم يسع لفعل شيء، مثل أن يوقفني بعصا الأبوة، ساعة أن أخبرته بقراري السفر، لا أن يلتقط مفاتيح دكانه، ويخرج. الشيء الوحيد المشرق في ذهني تلك الساعة، هو أن البلاد كانت محكومة بدم بريطاني، وقطعًا أستطيع اللجوء إلى أكبر مسؤول إن أحسست بالخطر. لقد علمني هارولد سامسون الخبَّاز، علامات الخطر التي إن رأيتها، وجب علي أن أقطع رحلتي بلا تردد وأعود، ولم تكن أي واحدة من تلك العلامات موجودة حتى الآن.. كان الخطر كله في نفسي، داخل البؤر المعدة للخوف، وكنت أشعلها بلا معنى. سيف القبيلة لن يمكث في أرض البطانة طويلًا، هي أسابيع قليلة ويعود.. أنا متأكد من ذلك، وساعتها أعود إلى صحبته حتى يسافر.

عند الظهر سمعت طرقًا خفيفًا على باب غرفتي، و عبد الرجال يسأل إن كنت حيًا بالداخل.

لقد أحست صاحبة النُزل بالقلق على نزيل جديد لم تره طوال ساعات الصباح يتحاوم في المكان، كعادة النُزلاء الجدد، ولا شاهدته يتناول شيئًا من الطعام والشراب، ومن ثم أرسلت خادمها للسؤال عليه. أخبرت المملوك أنني بخير، وأنني قادم، وجلست حتى تأكدت أنه غادر المكان، وخرجت.

- 10 -

استكشاف

الآن أتحسس طريقي في المدينة، وداخل نُزل مستكة المرتب، أتعرف على أسراره وحكاياته، وعيد الخميس كما يسمونه، وهو حفل أسبوعي ضاج، تقيمه مستكة منذ أنشأت ذلك المكان، وتدعو إليه ليس ضيوف بيتها المهمين فقط، ولكن عددًا من وجهاء المجتمع المحلي، وبعض الأجانب الذين يحتلون وظائف نافذة في البلاد، أو يحتكرون أنشطة مميزة في مجالات أخرى واسعة. وألتقي بالفتاة شرفية، التي لم أستسغها أبدًا أول الأمر، ثم ساهمت بعد ذلك بشكل عنيف، في تغيير معالم حياتي في أرض السودان.

في ذلك اليوم الذي سافر فيه سيف القبيلة إلى موطنه في أرض البطانة، وأورثني بعض الخوف الذي تجاوزته بعد فترة وجيزة، وخرجت من غرفتي إلى ساحة النُزل، تعثرت بحجر أسود كبير، كان يستخدم في طحن الحبوب، ويسمى (المرحاكة)، بلغة المحليين، من دون أن أراه، وسقطت على وجهي.

كنت في لحظة دوار عنيف، لكني استطيع أن أرى، و أسمع وأشم الدم، أشاهد صاحبة النُزل فزعة، وتلهث، وعبد الرجال يحاول إسكات الدم على جبهتي، بخرقة بيضاء، وعددًا من الناس، لا أدري من أين خرجوا، يتحدثون عن حالة خطرة، وشرخ كبير في مقدمة الرأس لن يلحمه سوى (فضلي الدباغ)، ولم أكن أعرف من فضلي الدباغ هذا؟. حُملت إلى داخل غرفتي المسماة الزاجل، مرة أخرى بساعدي عبد

الرجال القويين، وُضع عطر نفاذ على أنفي، بغرض الإنعاش، وسقيتُ قليلًا من الماء، وما لبث تدفق الدم أن توقف لأنني لم أعد أشمه أو أحس لزوجته في موقع الإصابة.

ظلت مستكة تلازمني كظلي، تاركة أشغال بيتها بلا رقابة ولم أكن أحس بغوايتها، أكثر من إحساسي بأنها صاحبة نُزل خائفة، وُضعت مصلحتها في المحك فجأة. كانت امرأة نافذة، هذا شيء لا جدال فيه، فقط يظل نفوذها محصورًا في محليته، ولن يصبح نفوذًا كبيرًا، إذا ما مات شاب أوروبي يقيم ضيفًا في بيتها لأي سبب من الأسباب.. كانت تضحك أحيانًا، ولا أحتاج لخبرة معلمي مستر ويلارد، لأعرف أنها ضحكة رعب.. حتى الرعب يمكنه أن يضحك البشر في وقت ما، وبعد حوالي الساعة تقريبًا، جاء عبد الرجال، يصحبه رجل أبيض قليلًا، بلا شارب ولا لحية، ولا شعر في رأسه، وممتليء الجسم، يرتدي الملابس الأفرنجية، ويحمل جرابًا صغيرًا من الجلد في يده، لم أشك لحظة أنه فضلي الدباغ، المعالج الذي كانوا يتحدثون عنه، بينما كنت على حافة الغيبوبة، وأنه من مصر التي تشاركنا حكم السودان، ويعمل رعاياها في مهن كثيرة، بعضها في الحضيض، وبعضها في غاية الأهمية. لم يطرح الرجل علي أي سؤال خلافًا لعادة الأطباء الذين يرهقون المرضى بالأسئلة قبل الفحص والعلاج، وخلته لم ينظر إلى وجهي حتى، لأن عينيه كانتا مثبتتين في مكان آخر. أزال الخرقة البيضاء من مكان الجرح بيد خفيفة ومدربة، طلب ماء حارًا، غسل به المكان بتأن، وماء باردًا على طبق، عجن فيه عددًا من المساحيق التي أخرجها من جرابه، حتى تحولت إلى نسيج متماسك ولزج، لبخه على الجرح، غطاه بقماش نظيف أخرجه من جرابه أيضًا، ووضع في حلقي مسحوقًا آخر أخضر اللون، وبلا رائحة أو طعم، لم أجهد نفسي في محاولة معرفته، وابتلعته من دون أن يطلب مني ذلك، ثم حمل جرابه، وخرج.

ما أسعدني في تلك الفترة التي قضيتها مضمدًا في غرفتي، هو أنني لم أنزعج أبدًا من معالجتي بتلك الطريقة البدائية، وبواسطة عطار صارم الوجه، لم يكترث أبدًا لآلامي.. تركت نفسي على خطى المحليين الذين قد ينجرحون مثلي ويعالجون بهذه الطريقة، كان هناك مركز طبي قريب من المكان كما لاحظت أثناء قدومي إلى النُزل بصحبة سيف القبيلة، ولا بد فيه أحد يعرف كيف يعتني بجرح لكن أحدًا لم يفكر بأخذي إليه، وبدوري لم أطلب ذلك رغبة مني في إخضاع جسدي لتجربة جديدة.. ما أسعدني أكثر أن مستكة كانت قريبة مني، وتشرف على إطعامي بتلك الوجبات الخاصة المجانية، التي كانت تطعم عادة للمرضى، مثل لحوم الحمام والغزلان، وشراب التبلدي المنشط، وأن مخاوفي تجاه الخادم عبد الرجال، قد تلاشت تمامًا، وما عادت كرَّة أسنانه التي أسمعها من حين لآخر، ترعبني، ولا طرقه باب غرفتي أو دخولها بلا طرق في كثير من الأحيان، يوقف شعر رأسي، كما حدث في ذلك اليوم الذي سقطت فيه. والواقع أن عبد الرجال الذي يناديني الآن باسم عثمان حافية من كل لقب، بدأ يستولى على جزء من المكان الذي خلفه سيف القبيلة، حين سافر إلى موطنه. وفي اليوم الخامس لإصابتي، وبعد أن أتى العطار المصري الجامد التقاطيع، وأزال الخرقة المتسخة وتفحص الجرح وغسله، وأعلن بأنه التأم تمامًا ومضى، اقترح علي عبد الرجال أن يصحبني في جولة تعريفية لبعض معالم المدينة التي لم أرها جيدًا، وذلك بعد أن أستأذن له من سيدته. كان صريحًا جدًا حين أخبرني بأنه ضجر من قفص الخدمة المهلكة في هذا المكان، وضجر أكثر من الساعات التي يسرقها أحيانًا، ليذهب بعيدًا، يتنفس هواء آخر، ويريد أن يتخذني غطاء للخروج. و كان عبد الرجال كما حكى لي، قد سرق ساعات طويلة من خدمته عند أسياد سابقين قبل أن تشتريه مستكة، وتوظفه في بيتها، تعلم القراءة والكتابة عند شيوخ الطرق الصوفية،

وكان يكتب أشعارًا مادحة لرسول الإسلام الكريم، يبيعها لأولئك الشيوخ بملاليم قليلة، ويطرب حين يسمعها تردد بأصوات المنشدين في ذكرى الموالد النبوية، والأعياد والاحتفالات الدينية، وربما ينحشر في وسط أولئك المنشدين، يردد معهم. اكتشفت أيضًا أنه يجيد الحكي في كل شيء، والعزف على آلة الربابة ذات الوترين المنتشرة بشدة في تلك البلاد، وإن كانت مستكة لم تسمح له أبدًا باستخدامها، لا داخل النُزل ولا خارجه، ويمكن أن تحرمه من وجبات يوم كامل، لو ضبطته بصحبة تلك الآلة. وقد سعى مرارًا ليحب واحدة من نساء الرقيق اللائي يصادفهن في الشوارع والأسواق، وساحات الإنشاد الصوفي، ويسعى للزواج منها، وينجب أطفالًا، لكن ذلك لم يتحقق. كن يطالبنه بمهر واحد: أن ينال حريته أولًا، ويمنحنهن الحرية بعد ذلك، وكان مهرًا غاليًا لم يستطع تدبيره. كان قد بلغ الخامسة والخمسين، والآن شبه خصي لأنه ما عاد يحس بفوران الرجال ولا رغبتهم، ولا تعني له المرأة في أفضل حالاتها، سوى عدة عظام ولحم، وصوت متغطرس يأمره بمزيد من الخدمة. كان على حق، وكان مسكينًا، وأستغرب من مسألة الرقيق تلك، وكيف أنها ما تزال موجودة وشديدة الكثافة، ومعترف بها رسميًا، وماذا كان يعمل هارولد سامسون ومنظمته في هذه البلاد؟.. قطعًا كانوا تجار رقيق بلا ضمير، يرتدون ثياب المحاربين، كما قالت الشائعات. فجأة تذكرت أن الخبَّاز نفسه، حدثني عن السراري من نساء الرقيق، اللائي يمتلكهن الرجال بلا عدد، واتضحت لي أشياء كانت غائبة عني.. إنها بلاد يأتيها الغربيون أوغادًا، ويغادرونها أوغادًا، وليتني لا أكون منهم.

كانت الفرصة سانحة لأسأل ذلك المملوك الذي صادقني بعمق، وكشف لي الكثير من أسراره، عن أصل سيدته وتاريخها، وكان لديه ما يؤجج الفضول أكثر مما يطفئه.. قال: إنه سمع بأن مستكة ليس اسمها

الحقيقي، وإنما اسم أطلقته على نفسها، وأنها من قبائل (البربر) التي تنتشر في شمال إفريقيا، وجاءت هاربة من خطب ما في بلادها، راكبة إحدى القوافل التجارية، وظلت هنا حتى أصبحت امرأة ذات ظلال، بفضل سحرها، تزوجت عدة مرات من رجال ذوي مكانة، ولم يعش معها زوج طويلًا، وطاردها أحد أحفاد آخر سلاطين مملكة الفونج الذين كانوا يحكمون هذه البلاد، وتمردت عليه، حتى مات غرقًا في النيل، لكن تلك كلها أشياء سمعها، لا شيء مؤكد على الإطلاق.

- أليس لديها أولاد من أولئك الأزواج؟
- لا أعرف.. لم أسمع بأن لديها طفلًا.
- ومتى أنشأت هذا النُزل المميز؟

كنت أسأله ولا أتوقع إجابة محددة.

- لا أدري.. اشترتني منذ أكثر من عشرين عامًا، وكان النُزل موجودًا.. كان في البداية صغيرًا، وفي حي بعيد عن وسط المدينة، وانتقلنا إلى هنا منذ سبعة عشر عامًا.

كان يوجد سؤال خبيث في قاع لساني، ولن يفارق ذلك القاع أبدًا.. سؤال بذيء لن أسأله:

هل يا ترى مستكة مثل نساء البلاد، مخفضة فرعونيًا؟

تلك الأيام، لم يخرج جبريل الكونت وعروسه الصعيدية التي لا يعرف أحد اسمها، من مخبئهما في الغرفة الذهبية، إلا لقضاء الحاجة أو الاغتسال، في غرفة من الطين قريبة من غرفتهما، كما عرفت من عبد الرجال. كان ذهاب جبريل إلى تلك الغرفة عاديًا، متمهلًا إلى أقصى حد، بينما ذهاب امرأته متعجل، ومحروس بشدة، حيث يظل واقفًا متصلدًا أمام الباب المغطى بالقماش حتى تخرج ويجرها إلى المخبأ، لكن عينيه ما تزالان كسيرتين، واكتسب عادة أن يضرب يده التي خذلته أمام أعرابي، في أي حائط يصادفه، ولم يسأل عني أو ينتبه

إلى غيابي، لأنه لم يتبادل كلمة حتى مع نفسه، وكان الطعام يأتيه هو وزوجته بانتظام في الغرفة، وتحمله خادمة عرجاء من الرقيق أيضًا اسمها دنيا، لم أرها سوى مرة واحدة، يوم قدومنا، وقدمت لنا شراب القضيم المرطب للحلق.

طلبت من مستكة أن تسمح لخادمها الأكثر نشاطًا وطاعة، بالتجول معي قليلًا في المدينة حتى أستكشف ما لم أستطع استكشافه في تلك الأيام المزعجة التي قضيتها مجروحًا في غرفتي، ووافقت من دون جدال، فقط حذرتني من محاولة تدليله واكتساب صداقته، وتصديق كلامه الفارغ، لأن المماليك في رأيها، كثيري الأحلام والثرثرة، ويصبحون صداعًا مزمنًا للرأس، إذا ما أحسوا بذرة عطف تتحاوم حولهم. كانت قد وضعت شيئًا من الكحل على عينيها الساحرتين، أضافت إلى عنقها الأملس عقدًا من الذهب الثقيل، وإلى كتفيها، قماشًا شفافًا أبيض اللون، بينما ظل شعرها مفرودًا كعادته، ويلمع بفعل زيت جوز الهند الذي يجلب من ضمن تجارة القوافل، ولا تستخدمه سوى النساء القادرات على تدبير سعره الغالي. كانت مغرية جدًا، وتقع في دائرة الإغواء الرهيب لشاب أعزب لم يلمس امرأة، مغرية كانت أو غير مغرية، منذ زمن بعيد. الشيء الذي لم يشجعني على محاولة إقحامها في رغبتي الحبيسة، هو أنها لم تبد راغبة في مغامرة من أي نوع، لا مغامرة حب، ولا مغامرة جسد.

كنت أنظر إلى عبد الرجال، ونحن على وشك أن نركب حمارين بنيين تابعين للنُزل، ويؤجران للنُزلاء إذا ما أرادوا القيام بجولات في العاصمة، أنتظر أن يحدثني عن الحمير الوطنية، وعدم تقبلها لظهور الغرباء، وإمكان أن تغدر بهم، كما حدث من سيف القبيلة، حين أسهب في وصف إبل القافلة التي حملتنا من وادي حلفا، خاصة أنني كنت الآن بعيدًا تمامًا عن المحليين، وأرتدي نفس ثيابي التي كنت أرتديها في لندن، وقد تدلي السلسل الذهبي من رقبتي، لكن عبد الرجال لم يقل شيئًا والحمار

الوطني الهزيل، منحني ظهره بلا اكتراث ولا ضغينة، وبالرغم من أنني لم أكن فارع الطول، إلا أن قدمي كانتا تحتكان بالأرض، وأنا على ظهره.

كانت الشوارع في فوضاها التي خبرتها.

الرجال المندسون في الجلابيب والعمائم البيضاء.. النساء المزركشات بزينة الفقر.. الأطفال الحفاة، العراة، الدواب المترحلة، بعضها يحمل أشخاصًا وأمتعة، وبعضها عاري الظهر حتى من سرج، مررنا بالسجن الكبير مرة أخري وكانت بوابته محروسة، لكنها هادئة، في يوم عادي ليس من أيام الزيارة التي يصطخب فيها الزائرون. مررنا بالمسجد الطيني الصغير، وكان ساكنًا أيضًا، لم يحن بعد موعد صلاة الظهر، ولم يكن ثمة درس ديني في تلك الساعة، يهزني بشيء من القرآن المرتل، لم نعبر بسوق الشمس هذه المرة، واتجهنا إلى سوق آخر كان أقل ازدحامًا من سوق الشمس، وترص فيه البضائع داخل دكاكين من الطين، أو طاولات خشبية تحت مظلات من القصب. إنه سوق (الرواكيب)، السوق الثاني في العاصمة، والأكثر رقيًا، حيث البضائع المستوردة عن طريق القوافل، مثل القماش والعطور، وأواني الطعام، وحيث الخياطين والصاغة، وتجار الأثاث و التحف، وصانعي الأحذية من الجلود والوبر، وأنشطة أخرى عديدة، بدت لي برغم بدائية عرضها، تليق بعاصمة إلى حد ما. وعلى عكس الأعرابي سيف القبيلة، لم يبد أحد من المارة، أو زبائن السوق، مكترثًا بعبد الرجال، لا تحية هبت في وجهه، ولا يد متسول امتدت تطالبه بشيء، وبالطبع لا أحد سيسمي ولدًا على اسمه المستعبد، وأحسست من نظرات عديدة، انتبهت إليها تطاردنا، أن فضولًا غريبًا يود لو يعرف سر تلك الصحبة الغريبة بين مستعمر ومملوك، ولن يعتبرني أحد سيده، لأن السادة لا يركبون المطايا التي يركبها عبيدهم. وكان ما أثار استغرابي أن شاهدت المصري فضلي الدباغ، واقفًا داخل أحد المحلات، وخلفه حزم من الأقمشة مختلفة الألوان، وأمامه امرأتان محليتان، تقلبان

قماشًا ورديًا مفرودًا على الطاولة.

هتفت في عبد الرجال، وأنا أشير إلى المصرى:

- هل هو الرجل الذي عالج جرحي؟
- نعم.
- هل هو تاجر قماش أم معالج؟

ردد وهو يلكز حماره:

- تاجر قماش و طبيب معالج، وقابلة لتوليد النساء أيضًا، وأحيانًا سقا، وقارئ بخت، ومؤذن في المساجد. في هذه البلاد يمكنك ممارسة أي مهنة تخطر ببالك، إن كنت تعرفها أو لا تعرفها.. ستكتشف ذلك بالتدريج.، اصبر.

وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك بمدة، حين اكتشفت بأن ما ذكر عن البستاني المتواضع في أي حديقة مهملة من حدائق لندن، الذي يمكنه أن يدير شؤون الزراعة وري المحاصيل في أي بلد إفريقي، في أحد الكتب التي قرأتها قبل الرحلة، واعتبرته افتراء عنصريًا، كان صحيحًا إلى حد الجنون. ذلك أنني عثرت على نجار إيرلندي تخصص في إعداد الأخشاب للسفن في بلاده، يعمل مساعدًا لمدير إدارة الطرق، ويشرف على إنشاء خط السكة الحديد الذي سيربط العاصمة بوادي حلفا، وشاهدت حفرياته حين أتيت، ومنحني وظيفة بعد ذلك، ساهمت في استقراري. وعاملًا ألمانيًا سابقًا في ورشة حدادة في ميونيخ، يعمل تاجر أراضي، ومشرفًا على تعيين العمد والمشايخ في الإدارة الأهلية، التي أنشأها البريطانيون، لكسب ولاء الأهالي، والأغرب من ذلك، أن قسًا كاثوليكيًا، منحرفًا، ومطرودًا من سلك القساوسة في الكنيسة، كان يرتدي الثوب والعمامة، ويصلي الجمعة في المساجد، ويعقد الزيجات للمسلمين بكل طقوسها، وقوانينها الشرعية، وما تتطلبه من خبرة، ولم تكن كل تلك البذاءات خافية على الحكومة، أو تمارس في السر. بل

كانت بمباركتها المطلقة.

أمام أحد الدكاكين الخالية، وعلى دكة من الطين الأبيض، كان يجلس رجل متقدم السن، بدا من ضيق عينيه وابيضاضهما، وتوهان نظراته في الفراغ، أنه أعمى. لكن أغرب ما فيه، هو أن ملامحه كانت مختلفة، ولا تمت بصلة لملامح المحليين التي خبرتها. كان في تلك اللحظة يحكي شيئًا، وعدد غير قليل من الناس يتجمعون حوله في انشداد ظاهر، ولدرجة أن أحدهم كان سرواله ممزقًا وتطل عورته، لكن لا أحدَ ينتبه إليها..

قال عبد الرجال، واستفسارى على فمي، لم أطلقه بعد:

- إنـه الهنـدي (كايتـا فلابيل عسـكر)، أكبـر المعمرين سـناً في أرض السـودان، لقد تجاوز عمره المئة والخمسـين، و شـهد مالم يشـهده أحـد غيـره مـن الأحياء، وأصبح بسـبب حكاياته الغريبة، من أشـهر وسائل الترفيه في المدينة.
- هندي ومن أرض السودان؟
- نعـم، ويوجـد كثيـرون غيره، يوجد صينيـون، ومهاجرون من مالطا، والملايـو، وأي مـكان.. وربما تصبح أنت أيضًا. إنجليزيًا من أرض السودان ذات يوم.. تعال لنستمع.

قال عبد الرجال، وهبط عن ظهر حماره، وهبطت مثله واقتربنا من المعمر عسكر. كان ثمة رجل آخر بملامح هندية واضحة، يترقب التفاف الناس حول الحلقة، ويستلم من كل قادم جديد عملة من فئة المليم، يضعها في جيبه قبل أن يسمح له بالاقتراب، وبرغم أن المعمر كان يجلس في العراء وفي وضع يسمح بالفوضى وتسلل الكثيرين بلا ثمن للاستماع، إلا أن عيني محصل النقود، كانتا حادتين، وحركته سريعة، ويستطيع أن يقتنص عدة أشخاص في وقت واحد كما لاحظت.

لكزني عبد الرجال لأدفع، ودفعت، جلسنا على الأرض وسط

الآخرين وكان المعمر أقوى من عمره كثيرًا، وذا صوت لم يشخ أبدًا، صوت صبي، يتحدث المحلية. كان يحكي غرائبه، وعيناه الضريرتان، ثابتتان في فراغ بعيد:

- حين أراد مولاي (صابر) أن يتزوج من (سندس) سليلة أمراء الحبشة، كنت صبيًا في العشرين، أرسلني إلى الغابات البعيدة برفقة عدد كبير من مماليكه، لأبحث له عن قرد من فصيلة الماندريل، ذات الذراعين الطويلتين، والعينين الشبيهتين بعيني الخنزير، حتى يذبحه في ليلة العرس، بناء على شرط سندس التي أحبها، ولم يرد أن تحزن.. غربلنا الغابات كلها، وسافرنا شهورًا في الدنيا حتى عثرنا على واحد عجوز، تركته قبيلته بالقرب من بركة ماء في إحدى غابات غرب إفريقيا. أحضرناه داخل قفص ممتلئ بالماء والطعام، وكان حزينًا، ومحطمًا، وأقسم أحد المماليك أنه نطق، وطلب إعادته إلى موطنه حتى يموت.. لكننا لم نفعل، وأحضرناه حتى بيت مولاي صابر..
- هل تعرفون ما حدث بعد ذلك؟

ردد عدد كبير من الحاضرين، بصوت واحد، وردد عبد الرجال معهم، وهو منتش:

- مات القرد قبل أن يذبح إرضاء للعروس.
- لا..لا..لا

ردد الضرير المعمر، وعيناه أكثر ثباتًا في الفراغ، وابتسامة نصر صغير تلوح في شفتيه الضامرتين حتى لكأنهما خطين متعرجين على الجلد.

- هاجمتنا العشرات من قرود المندريل القوية التي تبعتنا، ولم نحس بها، قتلت عددًا كبيرًا من السكان، وأثارت الرعب في المدينة، وحررت القرد العجوز وذهبت به..هل تعرفون ما حدث بعد ذلك؟

لم ترتفع أصوات كثيرة، مرددة إجابة محتملة، كما حدث في السؤال السابق، ويبدو أنهم كانوا يفضلون المنديل مذبوحًا ومعلقًا في ساحة العرس إرضاء لسندس الحبشية، على نهاية أخرى للقصة، التي لم أفهم مغزاها، ولم أرد أن أعتبرها تخاريف عجوز، تجاوزته الدنيا منذ زمن بعيد وما زال يجلس متقرفصًا على حافتها. على الأقل احترمت أولئك الناس الذين يدفعون المال ليرفهون عن أنفسهم، ولم يسألوا تلك الأنفس يومًا، إن كان يوجد بالفعل في التاريخ السياسي لبلادهم، سلطان أو ملك اسمه صابر؟.. شخصيًا لم يصادفني هذا الاسم في تلك الكتب التي أزعم بأنني خبرت خفاياها جيدًا. لكزت عبد الرجال لنمضي في رحلة الاستكشاف الأولى للمدينة، ولم يرغب المملوك الذي أطلقت سراحه اليوم في استثناء نادر، أن ينهض. كان في لحظة نشوى كبيرة.

- هل تعرفون ماذا حدث؟..

يصرخ العجوز.

ويردد النفر القليل الذي استجاب:

- أقلع مولاك صابر عن الزواج من تلك المرأة النحس التي مات بسببها المئات من أبناء شعبه، وشارك في دفن الموتى وتضميد جراح المصابين.

علامة نصر كبير، تشع مع ابتسامة المعمر، يقول:

- لا..لا.. أنتم مخطئون..لا يملك مولاي صابر مثل تلك العواطف، تزوج في نفس اليوم من سندس، وجُلدت ثمانين جلدة على مؤخرتي بسبب إحضاري لزعيم قرود الماندريل، الذي لم يترك ليموت كما تخيلت، كان في لحظة تأمل واسترخاء حين اصطدناه.

ضحكت كثيرًا لهذه النهاية البلهاء، غير المطابقة لأي حكمة أو مغزى، وضحك الآخرون أيضًا، فقط كانت ضحكاتهم، ضحكات تمجيد لا سخرية، عرفت ذلك من رنة الضحك وتعابير بعض الوجوه التي كانت

في مرمى تأملي.. إنها عبقرية مستر ويلارد التي تعلمتها منه، وما زالت ترافقني حتى الآن. وقبل أن يبدأ المعمر في سرد قصة جديدة.. أمسكت عبد الرجال من يده، وانطلقنا على ظهر الحمارين مواصلين لجولتنا، وهنا شاهدت لأول مرة كنيسة مشيدة من الحجر، ومزركشة برسومات العذراء والملائكة والقديسين، في أحد الشوارع الكبيرة، ولم أهتم كثيرًا بمحاولة تفقدها والتأكد من أنها كنيسة حقيقية، يرتادها المتدينون، لم يكن الأمر يعنيني كثيرًا.

ونحن في ناصية زقاق ضيق، ومغمور بالماء، على جانبيه صفان من البيوت الواطئة المعروشة بالقش، وتفوح من داخله رائحة شبيهة برائحة الحرائق، همس عبد الرجال في أذني:

- هل تود الدخول؟

لم أكن أعرف ما يحويه الزقاق، وإن كانت تلك الرائحة قد ذكرتني بشوارع العهر التي كنت أرتادها ذات يوم في لندن، هي نفس الرائحة تقريبًا. الشيء الذي أثار دهشتي، ليس توافرها في تلك البلاد، ومعروف أن المنكر واسع الانتشار منذ بداية التاريخ، ويوجد حتى في أكثر البلاد قداسة، ولكن دعوة عبد الرجال التي لم أكن أنتظرها من دليل سرقت له عدة ساعات من سيدته. سأقول أنني أستكشف، وأنني أوثق لرحلتي، والمنبوذون وتاجرات المتعة وحتى اللصوص والقتلة، وقطاع الطرق، جزء من ذلك الاستكشاف، وبالتالي سأهز رأسي موافقًا.. وهذا ما فعلته بالضبط. وجدت رفيقي منشرح الوجه، ونافر عضلات الرقبة، وتصدر من حلقه أصوات شبق غريب.. كان بعيدًا تمامًا عن ذلك الوصف الذي وصف به نفسه من قبل، وأنه يحمل إحساس خصي، ولا تعني له المرأة في كل حالاتها، أكثر من عظام ولحم، وصوت يأمره بالخدمة. أردت أن أتراجع حتى لا أتسبب في نزوة، تعاتبني عليها مستكة لو انكشفت، لكن عبد الرجال كان الآن قد ربط حماره إلى أحد الأعمدة الخشبية في طرف

الزقاق، أسرع خبًا إلى أحد البيوت في المنتصف، وابتدأ يطرق الباب في عنف. حين وصلت إلى الباب، كان قد انفتح، وبدت المرأة الواقفة أمامنا شبه عارية، في أفضل حالاتها، كابوسًا، لا جسدًا تعتليه الشهوة، لم تكن حتى في مستوى أي غجرية من غجريات الضواحي العجائز اللائي كنت أصادفهن يتسكعن في ليل لندن. ضحكت، وكان لا بد أن أضحك، وأنا أشاهد عبد الرجال يشد المرأة إلى صدره، يقبلها باشتهاء وتبعده في رفق وهي تقول:

- اليوم أنا معذورة يا فحل... تعال في يوم آخر.

وتتراخى شهوة المملوك فجأة، ثم تخمد تمامًا، ولم أكن في حاجة لقاموس كبير ومحتشد، لأعرف أنها في أيام دورتها الشهرية، وقد أضاعت على رجل محبوس في قفص، فرصة انطلاقة كبيرة، لن يعثر عليها بسهولة مرة أخرى، وفي اللحظة التي هممت فيها بسؤاله عن سبب عدم انطلاقه إلى بيت آخر في ذلك الزقاق، ما دامت صديقته معذورة، كان يقول:

- أبرهيت الحبشية، هي الوحيدة التي توقظني. لا أحد غيرها.. لماذا معذورة في هذا اليوم بالذات؟

ثم التفت إلي قائلا:

- هل لديك رغبة يا عثمان؟

كانت لدي رغبة.. ليست مثل رغبته هو، ذلك الماكر الكبير، وإنما رغبة في الفرار من ذلك الزقاق الوعر.

حين عدنا إلى النُزل بعد تلك الجولة الكبيرة، والتي شملت أيضًا مصلحة البريد والتلغراف، حيث قمت بإرسال عدة رسائل مختصرة لوالدي وأختي وصديقي رامي القرص بيتر مادوك، بالرغم من يقيني بأن تلك الرسائل ربما لا تصل أبدًا، كان النهار قد بدأ يتلاشى، امتلأت الدكك الطينية أمام البيوت برجال يثرثرون، وثمة عازف ربابة بعين واحدة وسراويل ممزقة، يتحاوم بين الدكك، ينشد في صبر، ولا يمنحه الجالسون

شيئًا. نساء أسرفن في وضح الكحل حول أعينهن، وتزيَّن بعقود الخرز والقصدير، وتفوح من أجسادهن عطور المحلب، يتمشين جيئة وذهابًا، ويحصدن شيئًا من نظرات الرجال، وعبارات غزل ناعم أو جارح. كان المسجد الطيني، ممتلئًا بالتقوى والصوت الشجي، يردد:

(كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة).

وأحس بالرعشة، أتأمل عبد الرجال على ظهر حماره، وأراه حزينًا وخامدًا.

- 11 -

جبريل الرحال

صباح الأربعاء، في بيت مستكة، وقبل عيد الخميس الذي سمعت عنه كثيرًا من عبد الرجال، ومن نُزلاء آخرين شهدوه مرات عديدة، وأترقبه بلهفة، خرج رافع الأثقال جبريل الكونت من عزلته في الغرفة الذهبية أخيرًا. كان قد استعاد شيئًا من غطرسته القديمة، المشية المختالة، الصدر المنتفخ، العينين اللتين ترتفعان وتتلفتان، وتنبشان الدنيا بحثاً عن نظرة اشتهاء تحوم حول زوجته حتى ينازلها، وكانت الزوجة قد خرجت أيضًا، ومجرورة خلفه في استكانة، كما اعتادت دائمًا.

لم تكن مستكة موجودة في النُزل تلك الساعة المبكرة، كانت قد خرجت برفقة خادمتها العرجاء دنيا، لشراء مستلزمات حفل الخميس، وهو التسوق الوحيد الذي تقوم به وحدها، بعيدًا عن خدمات عبد الرجال المنغرس في كل الخدمات الأخرى ابتداء من تكسير الحطب، إلى تحويله جمرًا. كنت أعبر من ركن الاغتسال إلى غرفتي لأغير ملابسي وأتسكع قليلًا في الشوارع مستكشفًا المزيد من الخفايا، حين اقترب مني جبريل بغتة، أمسكني من كتفي مسكة آلمتني بشدة، جرني إلى وسط النُزل، أجلسني على الأرض عنوة، وأمسك بقبضتي اليمنى، لاعبني لعبة القوة من دون طبل ولا طقوس ولا متفرجين، ولا رغبة مني في مقاومته، وهزمني في ثواني معدودة بلا معنى، وسلمني يدي متورمة وحمراء، واضطررت لغمرها في ماء دافئ مذاب فيه الملح، بعد ذلك حتى استعادت شكلها السابق، وتوقفت عن النباح. نهض من أمامي متهيجًا وابتدأ يطرق الغرف

الأخرى التي فيها نُزلاء من بلاد شتى داخل أرض السودان وخارجها، بعضهم سياح عاديون قدموا للاستكشاف مثلي، وبعضهم تجار، يأتون لمتابعة أعمالهم، أخرجهم فزعين، ولاعبهم بنفس الطريقة التي لاعبني بها، وهزمهم بلا أي ضرورة لفعل ذلك. وأخيرًا تمطى في وسط النُزل وهو يصرخ:

- أنا الكونت جبريل عبد الغني الرحال، أقوى رجل في البلاد كلها. أين الأعرابي سيف الكلب حتى يلاعبني.. لو كان رجلًا فليأت حالًا.

كان من الواضح أنه في لحظة سخافة غير عادية، أو لحظة جنون أوقدتها بداخله هزيمته الكبرى أمام غريم ظنه وظننته أيضًا، لن يصمد في مواجهته دقيقة واحدة.

مؤكد أنه كان طوال المدة الماضية منذ رحل سيف القبيلة، يقاتل نفسه من الغل، يتخيل غريمه مسحوقًا أمامه، ومحاطًا بنفس الشماتة التي أحيط هو بها من قبل.

مؤكد أن فتاة الصعيد التي جعلتها الأقدار عروسًا له، قد نالت شيئًا من ذلك الغل، وأشك أنه قتلها فحولة، بل قتلها إساءة. تمنيت في تلك اللحظة، لو استطعت أن أكشف عن جسدها، وفي ذهني كدمات وسحجات بلا حصر، تمنيت لو أدخل نفسها، لأشاهد مخلفات الأذى، وآخر أمنية تمنيتها، أن يظهر صديقي الأعرابي سيف القبيلة فجأة من حيث لا يدري أحد، ليستمع إلى اسمه القبلي العريق وقد تحول إلى كلب، وليطفئ ذلك الشر الذي نجح في إطفائه مرة، وللأسف كانت تلك مجرد أمنية.

كان من ضمن صلاحيات الخدمة عند عبد الرجال زافو، أن يفض أي منازعة أو اشتباك يحدث في النُزل، أن يزيل الفوضى إن حدثت، ويعيد التوازن لبيت الضيافة المشهور ذلك..إنها أشبه بوظيفة رجل الأمن الذي يحرس الفنادق والملاهي الليلية في لندن وسائر بلاد أوروبا، ولا يسمح

بأي تعكير حتى لو صدر من حاكم أو سياسي مرموق، وأزعم أن عبد الرجال يستطيع ذلك، وأكثر من ذلك لو أراد، وكان قويًا، يكسر الحطب يوميًا، ويجلب الماء من بئر السقاية التي تتوسط الحي، ويحمل حقائب النُزلاء إلى داخل النُزل وخارجه، ويمشي أميالًا بلا دابة، والأهم من ذلك أنه كان بلا شهوة يريقها هنا وهناك، وتضعف ركبتاه، إلا نادرًا وعند أبرهيت الحبشية فقط، كما قال.

ما أدهشني أن عبد الرجال لم يغير وقفته، ولم يتحرك شبرًا ليطفئ من هيجان جبريل، كان يراقب النُزلاء يُجرون ويُغرسون في الأرض، وتتهاوى قبضاتهم تباعًا، ولا يتحرك، ولمحته يفرك أصابع يده اليمنى كأنها سقطت مثل أيادي الآخرين، وقد تجاهله جبريل عن عمد، ولم يسع إلى نزاله، لا أدرى استخفافًا به، أم ترفعًا عن منازلة مملوك.

كرر الكونت صراخه:

- أين سيف الكلب؟ فليخرج من جحره حالًا إن كان رجلًا.

ولم يرد عليه أحد من الحاضرين. لا أنا ولا غيري. من المنهزمين بلا ضرورة. كنت أعرف أين غريمه، لكن الآخرين لا يعرفون، وحتى لو عرفوا وأخبروه، فلا معنى لذلك والمسافة بين الخرطوم وأرض البطانة لا تقل عن ثلاثة أيام من السفر المتواصل. من حسن الحظ أن مستكة الأسطورة، ظهرت في تلك اللحظة، محملة بحاجيات يوم الخميس، وكان ظهورها مثل دواء سحري، ضُخ في الجسد المعتل، وشفاه على الفور.. تسحب جبريل الرحال من وسط بؤرة هياجه، متجهًا إلى غرفته في هدوء، ناسيًا حتى أن يجر امرأته التي انساقت خلفه بعادة الانسياق، بينما تحلقنا جميعًا حول صاحبة النُزل، نحكي ما حدث باستفاضة، ومستكة تستمع، وتغلظ ملامح وجهها شيئًا فشيئًا، حتى تحولت في النهاية إلى امرأة ساخطة، بعيدة تمامًا عن الأساطير الحالمة.

في يوم الأربعاء الغريب ذلك، غادر جبريل عبد الغني الرحال،

الذي يلقب نفسه بالكونت، ويعرف أن ذلك اللقب، أكبر منه ومن كل وجهاء هذه البلاد والبلاد المجاورة، غادر نُزل مستكة كسيرًا، وصاغرًا وقد قضى سبعة أيام من شهر عسل متخبط، وتافه ولا يمت لشهور العسل الوارفة بأي صلة، دحرجه عبد الرجال إلى الخارج في تشف، تحت حماية قسوة مستكة وعصبيتها وصياحها، واعتذاراتها المتكررة لكل من هوت قبضاتهم، وتألموا، وصارحوها برغبتهم في الرحيل من ذلك الوكر، بأنها تأسف جدًا، ذلك أنها لم تكن تعرف حين استضافته، بأنها استضافت قاطع طريق. شاهدت العروس الصعيدية تبكي في صمت، ولا يلمس بكاؤها ذرة شعور في قلب مستكة، تشير بيدها خلسة مودعة، وينشطر قلبي، وقلب مستكة صخرة عصية على الانشطار. سيأخذها الزوج المعتوه إلى مكان آخر، لن يقتلها فحولة، بل غمًا.. تذكرت فجأة ما قاله مستر ويلارد ذات يوم في درس عابر، لم يكن من ضمن مقررات الدراسة:

-لا تمتلك الغيرة قلب الرجل وكيانه إلا في حالة واحدة.. أن لا يكون رجلًا.

إذن فقد أصبت.

- 12 -

عيد الخميس

أخيرًا أقبل عيد الخميس المرتقب، وكان حفلًا لم أكن أتصور وجوده في بلاد لممت الكثير من تفاصيلها في فترة وجيزة جدًا، عرفت مفاتيحها وعادات شعبها، وأوساخها، واحتمالات تحضرها، وكانت من نوع تلك البلاد التي تنطبق عليها المقولة:

حبها كما هي، أو اتركها وارحل.

وكنت مستعدًا لحبها، على الأقل في هذه المرحلة من مراحل وجودي فيها، كان كل شيء يمضي سلسًا إلى حد ما، سلسًا ويشدني، وباستثناء سقوطي على الأرض وجرحي الذي عزلني عدة أيام، وقصة جبريل الرحال، لم يكن هناك دليل واحد، على أنني سأغادر في وقت قريب. كانت في ذهني خطط كثيرة، وقد فكرت وأنا أشاهد أطفال الشوارع الحفاة، أن أعلمهم شيئًا من الألعاب التي لن يسمعوا بها أبدًا، كرة القدم مثلًا، المصارعة الحديثة مثلًا.. أشياء من هذا القبيل.

وقفت مستكة شامخة ومتأنقة في ثوب أرجواني من الحرير، تستقبل ضيوفها المهمين، أو كما أسميهم مصادر قوتها في هذه البلاد، وقد وفدوا تباعًا، بعضهم محلي يرتدي الثياب المحلية من ثوب وعمامة وحذاء من جلد النمر الغالي، وبعضهم غريب، يرتدي الزي الإفرنجي كاملًا، لم يغفل حتى المنديل الحريري في جيب السترة. وكان بينهم (فاير هاينريش)، الخياط الألماني الذي كان أول من أنشأ محلًا لتفصيل الثياب الأوروبية في البلاد، وأصبح في سنوات معدودة من الوجهاء الراسخين،

والسويسري (دونان غريسر)، وكان تاجر ساعات، كبير ووحيد في بلاد لا يقتني فيها الساعات إلا من يعرفون قيمة الزمن، وما كانت في الحقيقة ثمة قيمة كبيرة للزمن هنا، و(الفاضل مسيك) الذي ينحدر من أسرة قيل إنها من أشراف المدينة المنورة، ويدير عدة محلات لتجارة الحبوب، ومعروف بزيجاته وطلاقاته المتعددة، وقيل إنه من عشاق مستكة الذين ما تغيروا منذ عرفوها. أيضًا شاهدت الرحالة الفرنسي الشهير (وليام بارتليت) ولم أستغرب وجوده في تلك البلاد، ولا توجد في الدنيا بقعة لم يزرها، وقد عاد من رحلة طويلة إلى جنوب السودان، وجاء برفقة فتاة سوداء ناعمة التقاطيع ويرتدي ثوبًا فُصل من جلد نمر مخطط، وحذاء من نفس الجلد، وأهدى مستكة لوحة من أعماله، وكانت تمثل صيادًا من قبيلة الشلك الجنوبية، يغرس حربة في قلب ظبي، وعلقتها مستكة بعد ذلك في صالتها الواسعة في وسط النُزل. وفوجئت كثيرًا حين شاهدت الهندي المعمر، كايتا فلابيل عسكر، يدخل النُزل يمشي متعثرًا على قدميه، ويقوده الهندي الذي كان يحصد نقود حكاياته في السوق ذلك الصباح، وتأكد لي فعلًا أنه فقرة مهمة من فقرات الترفيه هنا كما قال عبد الرجال، ولدرجة أن يكون ضيفًا في عيد الخميس، وحين ابتدأ الحفل، كان هو الفقرة الأولى التي قُدمت، وتركه الجميع يحكي من دون مقاطعة، حتى لهث صوته بفعل العمر، وكانت حكايته هذه المرة، ذات عنوان وماكرة بعض الشيء بالرغم من ثغراتها العديدة، وخلت الحاضرين الذين يجيدون اللغة، ويملكون مفاتيح البلاد، يلهثون خلف صوته الأشيب، ولعلهم يتمنون لو كانت حقيقة بالفعل، حتى يسعون خلفها. إنها حكاية السر، حكاية منجم الذهب المدفون تحت جبل بلا اسم في شرق البلاد، واكتشفه المعمر مصادفة حين أرسله مولاه صابر هذه المرة لينتقي له امرأة من قبيلة (الأمرأر)، التي تتمركز في الشرق، وتُعرف بنسائها ذوات المواصفات الجمالية العالية. وحين سأله أحد الحاضرين، عن موقف

صابر حين أخبره بحكاية منجم الذهب.. رد بأنه لم يخبره حتى مات، وحذر العبيد الآخرين من إخباره، بأن اخترع لهم قصة عن اللعنة التي تصيب كل من رأى ذلك المنجم وتحدث.

أعترف بأن حكايات عسكر كانت ستبدو مسلية، لو رويت لأولئك الأطفال الحفاة في الطرق، يلعبون الحجلة، والتخفي، ويتصايحون، ولا تصلح لتكون فقرة ترفيه للبالغين في السوق، أو هؤلاء المتأنقين في مكان أنيق، ويملكون عقولًا مكتنهم من الرزق الواسع في هذه الأرض، وفكرت أن أخبر مستكة بذلك، وأخبر المعمر نفسه، وخفت أن أبدو سخيفًا وسط قوم اعتادوا السخافة ولا يظنونها سخافة، وأخذت أتأمل العجوز بتأن، أحاول أن أحصي أيامه المتبقية، التي سينتهي بانتهائها كل ذلك، ولم يبد لي أبدًا رجلًا يقترب من النهاية، كان مستعدًا ليعيش عمرًا آخر.

كان أيضًا من ضمن الذين ملأوا الفقرات، ممثل هاو قلد نباح الكلاب ومواء القطط، وصوت الضبع أو (المرفعين)، حين يعثر على فريسة، وكان أداؤه مرتبكًا، ولم يعجب أحدًا، وعازف ربابة يبدو مشهورًا، اسمه (القوز)، وتعني عند العرب، التل الرملي، وبدا لي فعلًا يشبه التل بجسده الرخو الممتلئ، وما نثره من ألحان لم أفهمها، أو أستسغها، بينما الآخرين كانوا على عكسي، يتمايلون طربًا، والجنوبية، صاحبة الرحالة الفرنسي، ربطت وسطها بقماش حريري أسود، انتزعته من كتفيها، ورقصت بجنون غريب، وسط الهتاف والتصفيق.

ما خرجت به من عيد مستكة الخميسي كان عدة أشياء، اعتبرتها مفاتيح مهمة للغاية، يمكنها أن تدور في أقفال محكمة، وتنفتح. طلب مني مسؤول إنجليزي، يعمل في مجال شق القنوات والترع، لري المحاصيل، أن أزوره في مكتبه في أي وقت، إن كنت قد أغرمت بالسودان وأهله، أعطاني الخياط الألماني وعدًا، أن يساعدني في أمور كثيرة، إن احتجت مساعدته، وقال (عبد الإله صقر)، وهو دليل سياحي يجيد لهجات القبائل

كلها تقريبًا، بأنه لن ينساني حين ينظم رحلة إلى الأماكن الغامضة التي تستهوي المستكشفين، ولا يستطيعون الوصول إليها إلا بمساعدته، وللأسف لم أستفد من عرضه، وقد التصقت بالعاصمة لم أغادرها إلى أي مكان.

كان من بين الضيوف الذين توفروا في تلك الليلة، وغادروا سعداء قرابة الفجر، فتاة غريبة السلوك، اسمها (شرفية)، كانت في نحو العشرين، أو أصغر قليلًا، سمراء لكن بملامح العرب، البعيدة عن ملامح الرقيق، نحيفة جدًا، ولا تحمل وشم الجمال المعروف عند القبائل على خديها، ذلك الوشم الذي لم تنج منه امرأة في ذلك الزمان إلا نادرًا. كانت همجية في طرحها لمواضيع النقاش، وتلقيها لطرح الآخرين، ولم تلتقط من المائدة العامرة التي رصت في آخر الحفل، سوى قطعة خبز رقيقة مغطاة بالسمن، وليمونة خضراء، قشرتها بأظفارها الطويلة المتسخة، وابتدأت تمصها بشغف، زاهدة عن تناول أي شيء إضافي، وكانت المائدة عامرة بما يسيل اللعاب.

لقد لفتت تلك الفتاة انتباهي بشدة، وظَّفت محاضرات مستر ويلارد كلها، وفلسفتي الشخصية التي اكتسبتها، لأقرأ وجهها وحركة يديها، وجسدها الضامر، والمغزى الذي يكمن في قصها لشعرها حتى ليشبه شعور الصبيان ولم أستطع، ولا أنكر أنني فكرت في مرض الشذوذ، والميل لنفس الجنس، وقارنتها مقارنة عكسية بمغني أسماك البحر، جون القصير، ثم عدت وأبعدت تلك الأفكار سريعًا، فليس ثمة إيحاء قويًا بها، إضافة إلى أن تلك الأمراض في الغالب من سمات العوالم المتحضرة، وتندر في هذه الأنحاء.

كان عبد الرجال مغروسًا في الخدمة حتى ركبتيه، يرفع طبقًا فارغًا من المائدة، ويضع طبقًا ممتلئًا، ويلبي رغبات الضيوف التي كانت كثيرة ومتتابعة، ولم يكن بمقدوره أن يساعدني في حل لغزها تلك الساعة

بالذات، وقد أضحت بالفعل لغزًا، واجب الحل.

وجدت نفسي بلا دافع كبير ولا ضغينة مفترضة، أكره تلك الفتاة شرفية، أتخيلها من الضواري وقد قدمت من إحدى الغابات المحيطة بالعاصمة توًا، أتمنى لو أن مستكة أمسكتها من عنقها وألقتها خارج النُزل، وكانت مستكة على العكس، تتودد لها بشدة، تضحك من سلوكها العصبي، ولم يكن يضحك، وتستحلفها أن تحكي أكثر، كلما توقفت عن الحكي، ومدت أنفها في المكان، تتشم روائحه، ونهضت مرة من مقعدها، قشرت لها ليمونتين طريتين، وضعتهما أمامها.. ويبدو أن معظم الحاضرين، أو كلهم تقريبًا، كانوا يعرفونها، لأن لا أحدًا اغتاظ منها، أو استغرب من سلوكها، باستثنائي، والرحالة الغريب بارتليت، الذي قرأت في عينيه شيئًا من عدم الارتياح، وأحسست بأنه كان يقصدها شخصيًا حين تحدث عن امرأة من أهل الجنوب، نحيفة وهمجية، وبلا شعر رأس، صادفها في رحلته الأخيرة، وتمنى لو ماتت فجأة، لأن لعابه كان يجف في حلقه كلما التقت عيناه بعينيها.

صاح أحد الحاضرين:

- ساحرة بلا شك يا مسيو.

وأجاب في تأن:

- ليست ساحرة يا سيد.. إنها امرأة بلا مستقبل..

ثم رأيت عينيه تبتعدان بسرعة عن وجه شرفية، ولسانه يمتد خارج فمه، يحاول أن يبلل به شفتيه الجافتين.

على أن رأي ذلك الرحالة الكبير، وهو رسام معروف أيضًا، لم يستمر فعالًا لفترة طويلة، فقد رأيت مستكة تنهض من جلستها فجأة، وقد تغيرت معالم وجهها الذي بدا مثل وجه ممغوص، تقترب من الفرنسي بارتليت، وتهمس في أذنه، ولم تكن إلا ثواني معدودة، حتى سمعت صوته ينطلق واضحًا وكثيفًا، وبلهجة جاهد أن يقربها من اللهجة المحلية

قدر المستطاع..

كان يقول:

- لنحيي جميعاً سيدتنا شرفية.. تشرفت بمعرفتك سيدتي.. ومعذرة لتطفلي على مائدتك.

وأعقب ذلك بأن وقف على قدميه الطويلتين، وانحنى عبر المائدة، مادًا يده الخشنة الملونة بأصباغ الرسم، نحو الفتاة التي تناولتها بلا اكتراث، وما زالت تمص الليمونة بين شفتيها.

كانت دهشتي الآن بلا حد، وأيقنت أن ثمة سرًا مرعبًا وخطيرًا، تحمله تلك الفتاة، وخفت أن تكون ساحرة، وقد قرأت أفكاري الخاصة بكرهها، وتخطط لشيء ضدي، بالرغم من أنها لم تلتفت إلي إطلاقًا، ووجدت نفسي بلا وعي، أنهض من جلستي أنا الآخر، أمد يدي ليد الفتاة غير المكترثة، وأنا أردد ما قاله الرحالة الكبير:

- تشرفت بمعرفتك سيدتي.. اعذريني للتطفل.

ولم يحذ الآخرون حذونا، لأنهم كانوا يعرفون الفتاة كما يبدو، ويستسيغون حكاياتها منذ زمن طويل.

حين ذهب الجميع بمن فيهم شرفية، ولم يبق في النُزل سوى سكانه المعتادين، تهاوت مستكة بما تبقى من أناقتها، على أحد المقاعد منهكة، طلبت كوبًا ساخنًا من شراب (الحرجل)، الذي يسكن صداع الرأس، ويعالج أمراضًا أخرى مثل التقلصات المعوية، ويستخدمه الناس كواحد من العلاجات الشهيرة، تجرعته بمشقة بما يدل على مرارته، ثم نهضت وتجرجرت إلى غرفتها، ولم تدع لي فرصة لسؤالها عن تلك الضيفة النحيلة، غريبة الأطوار.

حاول عبد الرجال أن يفلت من حصاري، وأنا أستحلفه، أن يساعدني في حل لغز شرفية، تحدث عن ضياع عقول العبيد بعد منتصف الليل، وأنهم لا يفهمون جيدًا إلا في النهار، وأعرف أنه يمزح مزاح رجل ظل

واقفًا على قدميه أو يركض بهما طوال الليل، ويريد أن يسترخي، أو لعله الخوف، لا أدري بالتحديد، ولن أدعه يفلت، لأنني لن أنام دقيقة واحدة تلك الليلة، لو لم أعرف شيئًا عن تلك الفتاة التي لم أحبها، وشاركني في عدم حبها، رحالة أوروبي مشهور، قبل أن يغير رأيه تحت وطأة خوف أصابه من همس مستكة في أذنه، ولسوء الحظ أفلت عبد الرجال، اختفى في أحد البيوت المجاورة للنُزل، وكان ملكًا لمستكة، تستخدمه لإيواء الخدم، وُتبقي العرجاء دنيا فقط، حتى إذا احتاجت لشيء في الليل، أو أرادت إرسالها لتنادي عبد الرجال، وجدتها متوفرة.

- 13 -

فاير هاينريش الألماني

- إنها ليست بشراً يا عثمان.. هي من الجن الذين يظهرون في هيئة البشر، ويكثرون في هذه البلاد. صدقني إنها الحقيقة.

لم يكن ذلك الإيضاح المختصر عن الفتاة شرفية، الذي صدر من فم عبد الرجال، قد قيل بسهولة ويسر في اليوم الثاني كما كنت أتعشم، إرضاء لفضولي الغريب. كان وليد إلحاح متواصل، استطعت بوجبه أن أنتزعه من رجل خائف ومرتجف، بعد أكثر من أسبوع على ظهور تلك الفتاة، همجية وغريبة السلوك، وتمص الليمون في عيد الخميس الأول، والذي تلاه وحضرته أيضًا بوصفي من نُزلاء مستكة المهمين، وكانت موجودة بكامل تصرفاتها وقلة اكتراثها، وشعرها الذي يحاكي شعور الصبيان.

لم يكن الرحالة الفرنسي وليام بارتليت موجودًا، ليشاركني إحساسي بالفزع، حين رأيت الفتاة، فقد غادر أرض السودان متجهًا إلى عمق إفريقيا في رحلة بحث جديدة، وقد ارتبكت بالفعل حين رأيتها تدخل، ركضت باتجاهها، التقطت يدها كما فعلت في السابق، وجلست طوال ساعات الحفل، أتقصى سلوكها، أتأمل قشر الليمون المكوم أمامها، وما أزال متوجسًا، أن تكون قد عرفت ما بنفسي، وتخطط لشيء ضدي، وحين رفعت إصبعها في وجه الخياط فاير هاينريش، الذي كان يتحدث عن أحدث أنواع الأقمشة الواردة إلى السوق، وإمكانية أن تحدث ثورة في عالم الأناقة، خاصة لدى السيدات. سكت على الفور، وتحدثت هي مبينة أن ما يسمى أناقة، ليس إلا تفاهة اخترعها الخياطون الرديئون، وصدقها

الجهلة، وفوجئتُ أن الخياط نفسه، يتجاوز عن تلك الإساءة، ويهز رأسه مؤمِّنًا، وكذا فعل الآخرون وفعلت مثلهم، ولأول مرة ألاحظ أن شرفية لم تكن أنيقة أبدًا، بل حتى لم تكن في المستوى العادي المنتشر في الشوارع كلها. كانت ترتدي ثوبًا بلون الرمل، وبلا أي لمسة جمالية أو غير جمالية.

في صباح الجمعة الذي تلى الحفل الأول، وكنت قد نمت نومًا مضطربًا تخللته عشرات الكوابيس، منها كابوس شاهدت فيه القبطان لويجي آر، مذبوحًا أمام ملكة الجمال سونيا أفرين، وآخر هاجمني فيه جون القصير، وغرس سكينة حادة في رقبتي، لم أعثر على عبد الرجال زافو في النُزل، ولا في البيت المجاور الذي يؤوي الخدم وشاهدته يدخله في آخر ليل الخميس، وعلمت من خادم آخر مكلف بسقاية الحمير والجياد، وتوفير العلف، اسمه (قنطار)، بأن عبد الرجال يمنح في هذا اليوم بالذات، ساعات الصباح كلها إلى ما بعد الظهر، ليصلي الجمعة في مسجد بعيد قليلًا عن الحي، حيث لا تقام صلاة الجمعة في المسجد المجاور للنُزل. كان فهمي للمساجد معقولاً في رأيي، وإنها جميعًا بيوت الله، ولم أفهم لم تقم صلاة في مسجد، ولا تقام في آخر، ولم أعرف إلا بعد مدة بأن صلاة الجمعة الأسبوعية، واحدة من المؤتمرات الإسلامية الهامة التي يلتقي فيها الناس بكثافة، وتقام في المساجد الكبرى، حرصًا على تجمعهم.

تجولت على قدمي في الشوارع المحيطة بالنُزل، وكانت شبه خالية، لا نساء يغرفن من البئر الذي كان محيطه ساكنًا، وفتحته مغطاة بخشب بال، وقد تناثرت دلاء الغرف المصنوعة من الحديد، حوله. لا أطفال يلعبون حفاة، أو يتخفون في الأزقة أو يتصايحون، وعدد قليل من الرجال، يرتدون جلابيب وعمائم نظيفة، يسيرون على أقدامهم، أو يركبون حميرًا منهكة، وغالبًا يقصدون صلاة الجمعة في أحد المساجد الكبيرة.

توقفت عند بناء مهدم من الحجر، كُتبت عليه بالفحم، وبالحك على

جدرانه، بآلات حادة، كتابات مريعة، وقاسية مثل:

تسقط فكتوريا الملكة

لا للسوط والقبعة والنجاسة.

المصريون خونة.

نحن سادة بلادنا..

واستنجت أنها مقاومة مسكينة ربما يقودها بعض المحليين المتعلمين، ويطمحون أن تصبح نواة لثورة ضد الحكم الإنجليزي المصري، لكنها لن تتعد في رأيي، تلك الحيطان المتآكلة، ولا يملك الشعب أي خيار سوى البقاء مستعمرًا.

ساعة الظهر، وعند بداية ترديد الآذان خافتًا، من مساجد لم تكن في نطاق الرؤية، شاهدت امرأة تقف على باب شبه مفتوح، حافية وترتدي قميصًا قطنيًا قذرًا، وتشير لي بأصابعها وتضحك، ويطل من تحتها وجه صبي مترب، يمد لسانه وإصبعه في اتجاهي أيضًا.

تلفّتُ في قلق، وأنا أبحث في ذهني عن علامات الخطر التي زودني بها هارولد سامسون، ووسعت من خطواتي عائدًا إلى النُزل مرة أخرى، وأتلفت بين حين وآخر، وفي ذهني حجر أو سهم طائش، ربما ينغرس في ظهري وأسقط. وجدت مستكة قد استيقظت من رقاد مضعضع كما يبدو، لأنها كانت بلا أناقة، ولا مكملات جمالية في الوجه والعنق واليدين، وإحدى عينيها حمراء، وقد جعلت شعرها ملفوفًا في شكل تل أسود صغير، أعلى رأسها، وأمسكت بيدها كوبًا يحتوى شراب الحرجل المر. سألتني إن كنت قد أفطرت، ورددت بالنفي، إن كنت سأتغدى في غرفتي، وأجبتها: نعم. وكانت الفرصة سانحة لأقحمها في لغز شرفية الذي قلبني على فراشي بلا نعاس، واستورد عشرات الكوابيس.

لم أحس بها ارتعبت، أو تغير وجهها، فقط كان لسانها يابسًا، وإجابتها شديدة الجفاف، لم ترض أن تبللها بأي حديث مرطب:

- اسمع يا جلبرت. أقصد يا عثمان.. عليك أن تتقبل شرفية كما هي، ولا تسأل عنها أبدًا.. كلما رأيتها عندي أو في أي مكان آخر، تعامل معها بأفضل معاملة عندك.. ولو استطعت أن تمنحها ظهرك لتجلس عليه.. امنحها.. إنها ليست من ضمن مغامرتك الاستكشافية.. صحيح؟

ممكن جدًا أن أعاملها بأفضل ما عندي وهذا شيء كنت أنوي فعله، وقد تعودت باستثناء هفوات نادرة، مثل عشقي للإسبانية هيلينا دا سيلفا، وأغنية أجبن من قطة التي جرتني إلى هذه البلاد، أن أبدو متزنًا إلى أقصى حد، لكن أن أمنحها ظهري لتجلس عليه، هذا ما جعلني أرتعب أكثر، وأبتئس أكثر.. كان طلبًا لا يمنح إلا لديكتاتور.

- وهل هذا ما قلته للرحالة بارتليت حين استفزها بتلك القصة؟

كنت أسألها محاولًا أن أعثر على ثغرة في لسانها الجاف، أن أعرف ما جعل رحالة شهيرا، ورساما عالميا في نفس الوقت، يملك خبرات بلا حصر في شتى مناحي الحياة،، ينحني بتلك البذاءة، أمام فتاة لن تلفت نظر لص، أو حتى متسول في الطرق، ما جعله يسميها سيدتنا، وهو الأوربي الذي من المفترض أن يكون سيدا أينما حل، وليس نُزل مستكة بأفضل مكان زاره ذلك الذي يستقبله رؤساء الدول، وتعزف له الأناشيد.

- نعم.. هذا ما قلته للمسيو بارتليت، وكان متفهمًا جدًا.

لم تقنعني إجابتها، ولم تكن ثمة حيلة لانتزاع مزيد من التفاصيل في موضوع بدا لي ممنوعا على التداول، ولا أظن أن عبد الرجال المملوك، سيكون أسخى من سيدته الحرة، ورغم ذلك لن أتركه، سأحاول إغراءه بجنيه مجيدي كامل، أو عدة جنيهات، وأرى ما سيحدث.

تركت مستكة تتجرع دواءها المر، واستلمت غدائي من الخادمة العرجاء دنيا، اتجهت به إلى غرفة الزاجل التي أقطنها، وأتطلع بين يوم وآخر إلى عودة صاحبي سيف القبيلة من موطنه، حتى تضج الغرفة مرة

أخرى، ويعود المرح وقد خطر لي أن ذلك الأعرابي ربما يعرف شيئًا عن هذه الفتاة التي بت أحملها لغزا لا يفارق تفكيري، وأستغرب من نفسي، كيف تركت كل شيء في هذه البلاد التي جئتها مغامرًا مستكشفًا، وتفرغت لمطاردة لغز.

خلال ذلك الأسبوع، لم يطرق عبد الرجال باب غرفتي أبدًا، ولا استوقفني في أي وقت من الأوقات، شاكيا بحذر من عذاب الخدمة في النُزل كما اعتاد أن يفعل دائمًا، وذلك الشوق الذي يحمله تجاه الحرية، هو وكثيرون غيره من أهل البلاد، شاءت أقدارهم أن يولدوا مستعبدين. بالنسبة لي لم أكن أجد فرقا في مسألة الاستعباد تلك، بين مملوك وحر من أهل البلاد، كانوا جميعًا تحت نفس النظرة المستعلية التي يرمقهم بها المستعمرون. ظللت بدوري أطارد خطواته في النُزل وخارجه، أراه يكسر الحطب، ويحمل حقائب القادمين والمغادرين، وأجولة السكر والقمح، والبقوليات على ظهره، أحاول استدراجه ويراوغ، وحذرني بلؤم لأول مرة منذ عرفته، بأنه سيخبر مستكة عن إلحاحي، وعلى بعد ذلك أن أبحث عن سكن جديد، كما حدث مع الكونت جبريل.، لكنه لم يفعل ذلك قط.

وبرغم ذلك التفكير المضني الذي أحمله، ولا يفارقني ليل- نهار، استطعت أن أتلمس طريقي في المدينة وحدي، راكبًا واحدًا من حمير النُزل المنهكة، أو ماشيا على قدمي، زرت سوق الشمس مرة أخرى، وتسوقت قليلًا، اشتريت حذاء من جلد الحية، وثوبًا وعمامة جديدة، وشاهدت مزيدا من الفقراء يجلدون بسياط إنجليزية قاسية في وسط السوق، بسبب سرقات الفقر التي لا تتعدى حبة طماطم، أو قطعة صغيرة من قصب السكر، ذهبت إلى السوق الآخر المسمى سوق الرواكيب، وشاهدت المعمر الهندي عسكر يروي تخاريفه عن مولاه صابر. والعشرات يحتشدون، ومحصل النقود نشيطًا، يصطاد القادمين بلا عناء.. زرت التاجر الطبيب فضلي الدباغ، وشكرته على إسعافي، ولم يبد مهتمًا

حتى بالسؤال عن اسمي وسبب زيارتي لهذه البلاد، زرت محلًا صغيرًا لبيع التذكارات، وعرضت السلسل الذي يتدلى من رقبتي للبيع، فقلبه التاجر بين عينيه، وعرض سعرًا لا يدفع حتى لخاتم نحاس أو قصدير، وعرجت على الألماني هاينريش، في محل الخياطة الذي يديره في ذات السوق، كأول محل وجد في البلاد، أعقبته عدة محلات أخرى لكنها كانت أقل شهرة، كان اسم محله بريمن للخياطة، سماه بلا شك على اسم مدينته الألمانية التي قدم منها، وكتبه بالعربية والإنجليزية، ولا أعرف السبب الذي قاده لهذه البلاد بالذات، ولم يكن محلًا واسعا أو يحمل بصمة تنظيمية خاصة كما كنت أظن. كان مبنيا من الطين أسوة بغيره من المحلات، ببابين من الخشب، ويقع وسط صف من الدكاكين الأخرى، وقد التصق به محل لصياغة الذهب، تملكه عائلة تبيدي، التي تحتكر تلك الصنعة في البلاد منذ عرفت. وجدته يجلس على ماكينة خياطة من ماركة سنجر المخترعة حديثًا، يعمل على إنهاء حلة سوداء ذات جيوب متعددة، قال بأنها تخص جنرالاً هرمًا في الجيش الإنجليزي المرابط في البلاد، ويجب تسليمها غدًا على أكثر تقدير، لأن الرجل تقاعد أخيرًا، ويقام له حفل تكريم، يغادر بعده إلى بلاده. كانت زوجته مسز هاينريش موجودة أيضًا، وكانت في نحو الستين، هادئة، ونحيفة جدًا، لكأنها خيال، وتقوم بخياطة زي نسائي على ماكينة سنجر أخرى، بينما عاملة من النساء المحليات، اسمها الحقانية، شاهدتها مرة في بيت مستكة نهارًا، تخيط الأزرة على الثياب، وتنهض بين حين وآخر، تكنس قصاصات القماش المتساقطة على الأرض.

لم يكن في ذهني شيء محدد، من تلك الزيارة، مجرد زيارة أردتها ودية لرجل عرض مساعدتي ذات يوم، وربما أحتاج لتلك المساعدة فعلًا. لم يكن في نيتي سؤاله أبدًا عن الفتاة صاحبة اللغز، ولا كان يجدر بي سؤال خياط مهتم بصنعته ومجده الشخصي و لمجرد أن فضولًا غريبًا

يتملكني، وقد كان هو وغيره من جلساء حفل الخميس عاديين تجاه الفتاة، لم يبدوا اهتمامًا ملحوظًا بها، ولا تجاهلوها أو استفزوا مشاعرها كما فعل الفرنسي بارتليت. الذي حدث أن الخياط هو من جاء بسيرتها، وكان يمسك بحلة الجنرال السوداء، يفردها بين يديه، ويتأملها بشغف.. كانت على شفتيه ابتسامة شبيهة بابتسامات الألمان كلها، ابتسامة قاسية:

- لماذا كنت تتودد للفتاة شرفية في يوم الخميس؟

الحقيقة أن سؤاله باغتني، ولم أعثر على رد معقول، أواجه به ابتسامته.

وبدلا من أن أجيبه، باغته بنفس السؤال:

- وأنت.. ألا تتودد لها؟

تغير فجأة، ابتسامة الألمان التي خلتها قاسية، اختفت، وحلت محلها لغة في غاية الجفاف، كان يخبط على ماكينته من شدة الانفعال، وقد سقطت حلة الجنرال المتقاعد على الأرض، ولم يلتقطها:

- اسمع.. أنا صاحب صنعة، ولا أتودد إلا لهذه الماكينة.. وصانعها العظيم اسحق سنجر.. شرفية وغيرها من الذين، لا يحلمون بأن يرتدوا ما أصنعه، لا أحفل بهم.. في الواقع ازدريهم.

لم أجد أي مبرر لكل ذلك الانفعال. وذلك الازدراء الذي أطلقه تجاه مواطنين، غزا بلادهم ويعيش فيها ناعمًا وثريًا، لم يعجبني مطلقًا. أحسست أن فاير هاينريش مرتعب هو الآخر، ويحاول أن يغطي الرعب بتلك الثورة غير المبررة، لقد عرفت بأنه يقيم في الخرطوم منذ أكثر من اثني عشر عامًا، ويسافر إلى بلاده مرة كل عامين، وكان يخيط الثياب بيديه قبل أن يحضر ماكيناته الجديدة، وكان حتى لحاق زوجته به الذي حدث منذ ثلاث سنوات فقط، ممتلكا لعشرات السراري من نساء الرقيق، كان يشتريهن من زبائنه الأوروبيين الذين تعسرت ظروفهم لأي سبب، بأسعار زهيدة، وكن في الغالب مليحات الأجساد، وذوات مواصفات ممتازة،

وأخبرني قنطار، الخادم الذي يعلف الحمير ويوفر ماء السقاية لها عند مستكة، حين جلست معه في واحدة من ليالي القلق، إنه كان أحد مماليك هاينريش الألماني، وباعه لمستكة حين كبر وقل نشاطه، وأن سيده كان مهووسا بنساء الرقيق، لدرجة أن مذكرة رسمية من الحكومة صدرت في حقه، وطلب منه أن يخفض عدد السراري في بيته، ثم صدر بعد ذلك قانون ينظم تلك المسألة ولا يسمح بامتلاك أكثر من أربع نساء في وقت واحد. في تلك الليلة، تذكرت هارولد سامسون الخبَّاز مرة أخرى، وأحسست بالخزي تجاه منظمة كان يقودها لتجارة الرق، تحت ستار محاربته.. وقد غادر بثروة لن تتوفر أبدًا لمحارب إنساني، حتى لو انتصر على قوى الشر كلها.. وهذا فاير هاينريش، واحد آخر من تجار الفجيعة، يمتلك مفاتيح أرض السودان بجدارة، وترعبه فتاة بشعر مقصوص، تتغذى على الليمون.. أي سر تحمله تلك الفتاة؟.. سأكون أتفه مغامر لو لم أكتشفه، وفي لحظة من لحظات الزهو، تملكتني فجأة، أقسمت أن أروض شرفية تلك، أحولها إلى سيرة عذبة لا تستوجب هذا الرعب كله، ولا تجبر رحالة متمكنا في الأرض مثل وليام بارتليت، أن ينحني أمامها بكل تلك البذاءة، لكن ذلك الزهو ما لبثت حدته أن خفت، حين ظهرت الفتاة في عيد الخميس التالي، ووجدت نفسي ألهث إلى يدها، وقد لفني الارتباك.

غيرت معالم الحديث بسرعة، حتى تخف حدة هياج الخياط، أخبرته بأنني درست الرياضيات في إحدى المدارس الهامة، وعملت محصلا للضرائب لعدة أعوام، ثم تركت الوظيفة بسبب الملل، وسخط دافعي الضرائب، وأنوي الإقامة هنا مدة طويلة، لأن أجواء البلاد استهوتني.

سألني عن مواردي، التي أنفق منها، فقلت:لدي مدخرات لا بأس بها، جلبت بعضها معي، وتركت بعضها في إنجلترا كاحتياط ربما أطلبه ذات يوم، فرد في صوت خبير:

- ستنضب كل مدخراتك في النهاية، وعليك منذ الآن أن تبحث عن

صنعـة، لا أحـد يعيـش على مدخراته، حتى لو كان لص مجوهرات سابق.. انظر إلى زوجتي هذه إليانور هاينريش، إنها تعمل بلا توقف برغم تيبس مفاصلها، وإصابتها بجفاف الحلق، ورفضها القاطع أن تتعلم حرفا من لغة المحليين.. على الأقل أنت تعرف اللغة.

أضاف وهو يلتقط حلة الجنرال من الأرض، ويمعن في تأملها، وقد بدا صوته خافتا بعض الشيء، صوت من يدلي بسر:

- وعليـك أن تبحـث عـن سـكن مسـتقل فـي واحد من الأحيـاء التي يسـكنها الأوربيـون، إن كنـت جـادًا في الحياة هنا.. عند مسـتكة لا تسـتطيع أن تختلـي حتـى بنملة مـن دون أن تفضح.. خيرات البلاد كثيرة أيها الشاب.

ابتسم، وكانت ابتسامة ألمانية قاسية مرة أخرى.. نعم خيرات البلاد كثيرة إذا ما نظرت إليها بمنظاره العنصري، وقليلة جدًا إذا ما وظفت منظارًا آخر شديد الرهافة، ونظرت به. كنت متأكدًا أن هاينريش لم يكن خياطا بارعا في بلاده وربما لا يكون خياطا على الإطلاق، وما تلك السمعة التي اكتسبها هنا، إلا وليدة جهل أولًا، ثم احتياج من أولئك الغزاة الذين لا يستطيعون أن يصبحوا محليين بالثياب المحلية، ولا يستطيعون الحياة في ألبسة فصلت بعيدًا من دون تغييرها.

وأنا أهم بالنهوض، تركت مسز هينريش عملها على ماكينة الخياطة فجأة، اقتربت مني وسألتني بإنجليزية، غاية في البدائية:

- هل أنت متدين؟
- لا

رددت عليها بلا تفكير، ويبدو أنها كانت تنتظر ردًا آخر حتى تكتمل ابتسامتها الوليدة التي كانت ستبدو قاسية وشبيهة بابتسامة زوجها، لأن الابتسامة تلاشت فجأة وحل محلها وجه جامد جدًا، جلست به المرأة على ماكينة الخياطة، وواصلت عملها.

غادرت الخياط الألماني. أمشي متوترا فُي الطريق، وقد بدأت تغتالني الشكوك حول مدخراتي. كنت أدفع يوميا لإقامة النُزل، أدفع للأكل والشرب وغسيل الملابس، وكماليات أخرى مثل استئجار الحمير في تنقلاتي الاستكشافية، ولم يحدث أن أحصيت من قبل، جنيهاتي المربوطة في جراب تحت ملابسي، لا أنزعه إلا حين أغتسل فقط، وفي غرفتي التي أغلقت بابها جيدًا، تحسبًا لتلصص الخدم، أخرجت الثروة وأحصيتها بدقة، وكانت كما قدرت تكفيني لثلاثة أو أربعة أشهر قادمة، وعلي بعد ذلك أن أرحل ولم يكن في نيتي الرحيل.. لقد راقتني البلاد برغم بدائيتها، واكتشفت بأن صناعة الشخصية تكمن في الوعورة، لا في رغد العيش. سأعثر على صنعة تلائم خبراتي أو لا تلائمها، هذا غير مهم. مادام النجار الإيرلندي، قد أصبح مسؤولًا كبيرًا في مشروع خط السكة الحديد، والحداد الألماني، يعين شاغلي الإدارة الأهلية، وتاجر الأقمشة الذي يساوم المشترين في السوق، طبيبًا يثق في طبه الناس، قطعًا سيصبح محصل الضرائب، ذا وظيفة مرموقة في هذه البلاد، وقد تلاعبت في ذهني عدة مهن في تلك اللحظة، منها مهنة والدي العتيقة، أن أتاجر في الورد وأشجار الزينة، وكان تفكيرًا فجًا، لأن تجارة كهذه لا يمكن أن تورق في بلاد مثل أرض السودان.

- 14 -

مغامرة العتمة

– من الجن الذي يظهر في هيئة بشر.

أخيرًا استجاب عبد الرجال زافو لحصاري المحكم، لم يعد بإمكانه أن يكسر حطبة أو يشعل نارًا في موقد، أو يحمل جوالًا من القمح، أو حقيبة لنزيل من دون أن أعترضه. اصطحبني ذات مساء بعد أن تلفت كثيرًا واستوثق من أن لا أحد يراه، خاصة سيدته مستكة، إلى غرفة الزاجل التي أقطنها، طلب مني أن أغلق بابها بحرص، وهمس في أذني بتلك الهمسة المقتضبة. وكدت أضحك، لا أحد بمستوى ثقافتي التي أعتقد جازمًا بأنها ثقافة مميزة، يمكن أن يصدق مثل تلك الحكاية، التي ربما تصدقها العجوز سكر، في بلدة مثل وادي حلفا، أو أولئك الذين يثرثرون على دكك الطين أمام البيوت، أو يسيرون في الشوارع بلا أفق، أو يتجمعون في السوق، ويدفعون ملاليمهم القليلة، ليستمعوا إلى تخريف المعمر عسكر عن مغامرات لا توجد إلا في خياله العجوز، وقد سمعت عن حكايات مشابهة لهذه في إنجلترا، وغيرها من البلاد الأوربية، ولم أصدقها، مثل حكاية القزم الميت الذي يتمدد في الشوارع، في الليل، يتسول من السكارى، منذ قرون، والملاك الأخرس الذي هبط من السماء في إحدى القرى الفرنسية، وكان يمسح على جباه المرضى، فتزول آلامهم على الفور، وحتى حكاية الشيخ المنادي الذي يخرج لينادي المطر في وقت الجفاف، التي سمعتها من هارولد سامسون، وحكيتها لركاب الباخرة، لم أصدقها حقيقة، ورويتها فقط لإبهارهم، وحين كنت تحت مظلة العشق

في حضرة الشقراء هيلينا دا سيلفا، أخذتني مرة إلى جلسة تحضير أرواح في بيت واحدة اسمها بيتي أو بياتريس، لا أذكر الآن بالتحديد، كانت تلك السيدة تدعي مناداة أرواح الموتى، ومخاطبتها وسؤالها عن ماضيها وحاضرها بعد أن خرجت من الأجساد وحلقت بعيدًا، وقيل أنها اهتدت بسبب موهبتها تلك، إلى عشرات الألغاز التي صنفت بلا حل في أزمنة متعددة، ودفنت في الذاكرات.

لم أستسغ تلك الزيارة ولا وددت الذهاب لولا الخوف من أن تغضب هيلينا، التي كانت تعشق تلك الجلسات، وتعقد الصداقات بالوسطاء الروحيين، وأخبرتني كاذبة أن ذلك جزء من بحث تجريه، لتقدمه في إحدى الجامعات، وأعرف أنها مثلي، لم تقف على باب جامعة قط.

كان بيت الوسيطة غاية في الكآبة، ويقع في بلدة صغيرة في الريف الإنجليزي، قريبًا من إحدى الغابات الموحشة، ووصلنا إليه عبر طريق ضيق قطعناه خبًا في أول الليل، بعد أن رفض سائق العربة، ورفضت خيوله أن تتوغل أكثر من ذلك. بيت رمادي من الداخل والخارج، أبوابه رمادية وستائره رمادية، ومدفأته محشوة بالرماد، والشموع التي كانت تضيء البهو حيث جلسنا، في غاية الشح، لا تضخ سوى ضوء شاحب هزيل. وكانت الوسيطة لدهشتي الشديدة، فتاة لم يتعد عمرها الثانية والعشرين، ضئيلة الجسم، ووجهها أصفر ممتلئًا بالبقع، وأستغرب كيف ومتى استطاعت تكوين اسم، أهَّلها لتكون معروفة بهذا الشكل ولدرجة أن تسمع بها هيلينا دا سيلفا، وتقودني صاغرًا إلي جلستها هذه.

كان عدد من الناس موجودين ساعة أن دخلنا، رجال ونساء يحملون ملامح مضطربة كما بدا لي، يجلسون في صمت، وأعينهم تتابع صوت الوسيطة الجارح، وهي تحكي شيئًا من التفاصيل قبل بدء الجلسة، وكانت مخصصة لاستدعاء روح زوجة الشاعر الرومانتيكي المعروف بيرسي شيلي، التي انتحرت بإلقاء نفسها في إحدى البحيرات ذات مساء، وكان

ذلك بناء على طلب أحد الحاضرين، وكان مغرمًا بذلك الشاعر، وأراد أن يستوثق أن لا دخل له في انتحار الزوجة، ومن ثم يواصل الإعجاب به إلي ما لا نهاية، أو يتركه ويتفرغ للإعجاب بغيره من الشعراء، في حالة أن أثبتت الروح تورطه. كان طلبًا غريبًا، ويدل على هوس صاحبه واضطراب سلوكه، فما الجدوى من كل ذلك، وحتى لو جاءت روح المنتحرة وتحدثت بالفعل، وأقرت بأن الشاعر هو الذي ألقاها في البحيرة، وهو أمر أشك فيه، فماذا يفيد كل ذلك؟.

أخذت أتأمل الجالسين، الصامتين محاولًا أن أعرف صاحب ذلك الطلب، ولم يكن الأمر عصيًا أو يحتاج لمحاضرات مستر ويلارد، فقد كانت امرأة. واحدة في منتصف الثلاثينات، سمراء وممتلئة الجسم بوضوح، وتحرك عينيها بلا توقف وتحمل بين يديها مخطوطًا كتب بحروف كبيرة ذهبية اللون، إنه قصيدة الشاعر المسماة: أغنية للريح الغريبة.

كنت الوحيد الذي يعض على تماسكه في جلسة غريبة، انطلقت وسط الفزع وانتهت وسطه، اليقين الذي أحمله بأن ما يحدث خرافة، وحيلة من حيل اكتساب المال، جعلني أبقى متماسكًا إلى آخر لحظة.. أراقب الستائر الرمادية، تتحرك أعلى وأسفل، والشموع تنطفئ وتضيء وحدها، وأسمع صوت الوسيطة وقد اخشوشن، أرى جسدها يذبل، ووجهها وقد امتلأ بتجاعيد مفاجئة، وأظل كما أنا، وقد التصقت بي هيلينا دا سيلفا، أحاطتني بكامل جسدها، وهي تتأوه، لكأننا في لحظة عناق حميم، ولا أنكر أنني استثرت في تلك اللحظة، فرت مراقبتي للروح الهائمة بعيدًا، ليحل محلها اشتهاء غير محدود، ولدرجة أن فكرت في اختلاس قبلة.

كانت المرأة ممولة الجلسة، قد هبطت تحت مقعدها وصرخت، وقصيدة الريح الغريبة قد طارت من يدها، والتصقت بالحائط في وضع تحفة عُلقت عمدًا لإبهار الضيوف، وبقية الحاضرين، إما يرتجفون وإما

يتصببون عرقًا، وإما يتجهون بأنظارهم إلى باب البيت المغلق، كأنهم يبحثون عن حيلة للفرار. كان ثمة عواء مرتفع يأتي من خارج البيت.. وركضت قطة سوداء من ركن إلى ركن.

الشاعر الرومانتيكي بيرسي شيلي، بريء من دم الزوجة المنتحرة.

هكذا ردد صوت الوسيطة الخشن، قبل أن تفارق الغيبوبة، وترتد فتاة في الثانية والعشرين، وهكذا دلت قصيدة الروح الغريبة التي طارت من يد المعجبة المهووسة، والتصقت بالحائط في وضع التحف النادرة، ثم ليتنفض الحاضرون بعد ذلك من رعبهم ويهنئون المرأة ببراءة شاعرها الأثير، وتبكي تأثرًا، وكنت الوحيد الذي لم يفعل ذلك، اتجهت مباشرة نحو الوسيطة، لم أقدم إليها نفسي، كما تقتضي اللياقة، وأخبرتها برأيي بجلافة وحزم، وكان ذلك سببًا لجفوة طويلة بيني وبين هيلينا، انتهت بعد محاولات إرضاء كثيفة، ذلك أن الوسيطة ألغتها من ضيوف جلساتها إلى الأبد، بسبب إحضارها لمتشكك أزعجها وأزعج الأرواح الهائمة التي ترفرف حول بيتها باستمرار.

الآن عبد الرجال في مصيدتي المحكمة، ولم يقل أكثر مما قال، ولن يقول لا في المستقبل القريب، ولا البعيد. استحلفني أن أريحه من تلك المعاناة، وأتركه يعيش برغم بؤس عيشه، ولا أهمس حتى لنفسي بما قاله. وإن كنت قد جئت حقًا بسبب حب المغامرة، فعلي أن أغامر في حدود البشر، وأبتعد عن تلك السكك التي لا أتوقع نهايتها، لكنه أضاف قبل أن أسمح له بالرحيل وأعده بأنني لن أطارده مرة أخرى، إن الأمر متروك لي في النهاية، هي روحي وتخصني وحدي، ولو أردت ضياعها، أنا حر.

- سؤال أخير يا عبد الرجال.. هل شاهد أحد شرفية في هيئة أخرى، غير هيئة الإنس التي تنتحلها؟

قلت وأنا أتجه نحو الباب لأفتحه، فلم يرد.. كان يرتجف حقيقة، وفر من الغرفة، يتخبط في مشيه.

مساء الخميس التالي، لم يكن هناك حفل أو عيد في النُزل كالعادة، فقد ألغي فجأة بسبب مغص طارئ أصيبت به الأسطورة مستكة، والأرجح أنه المغص الشهري الذي يعتبر ورطة عند بعض النساء، طلبت كوبًا من شراب الحرجل، أعد لها سريعًا، واعتذرت بشدة لضيوفها حين أتوا في الموعد المعتاد، وكانوا هم الوجوه المألوفة نفسها، بمن فيهم الخياط فاير هاينريش، وتاجر الحبوب المزواج الفاضل مسيك، ومسؤول خط السكة الحديد الأسكتلندي الذي كان غائبًا في أول عيد حضرته وحضره الرحالة بارتليت، وشرفية، فتاة الجن، التي قررت بكل ما أوتيت من صلابة أن لا أرتبك أمامها هذه المرة، وأغامر بروحي من أجل معرفة قصتها. لم تقنعني قصة الجن تلك، لكن بالمقابل كنت أكيداً بأن هناك قصة أكثر قابيلة للتصديق، في ماضي وحاضر تلك الفتاة المحيرة، وللحظة خلتني أعدت صياغة مشاعري تجاهها، وأنني الآن لا أكرهها، أو أحمل لها ضغينة. وأحترم بشيء من الحذر، قلة اكتراثها الواضحة تجاه ضيوف ذائعي الصيت، لكن لا يهمونها في شيء.

راقبت الضيوف وهم يغادرون إلى بيوتهم مبتئسين، بعد أن اعتذرت مستكة، وتسللت إلى غرفتي بسرعة، ارتديت الثياب المحلية التي اشتريتها مؤخرًا من سوق الرواكيب، الثوب الأبيض الطويل الذي يصل حتى الأرض، طاقية الرأس الحمراء، والعمامة البيضاء المموجة من قماش الكرب الغالي، وحذاء جلد الحية المرقط، وحملت عصا الأبنوس بنية اللون التي اشتراها لي سيف القبيلة من وادي حلفا، حين أراد تزويري حتى لا أنكشف أمام الجمال الوطنية، وخرجت أكثر عجلة إلى ساحة النُزل وكان من حسن حظي أن شرفية ما تزال موجودة، تجلس على أحد المقاعد صامتة، وتحمل في يدها ليمونة خضراء، تقشرها بأظفارها.

اختبأت في زاوية معتمة لا يصل إليها ضوء الفوانيس المشتتة في المكان، لمحني عبد الرجال، وسمعته يضحك، وكان في الغالب يضحك

على هيئتي التي لم يرني بها أبدًا من قبل، ولا أظنه فكر في أنني أستعد لمغامرة ليلية، لأنه لم يسألني أو يقترب مني، واستمر في إطفاء نيران المواقد التي لن يطهو عليها أحد شيئًا في ذلك الخميس.

كنت أريد أن أتبع شرفية، أن أحل طلاسمها وحدي من دون مساعدة أحد، أن أعرف بيتها، وعالمها، وإن كانت من الجن فعلًا، أم أن ذلك مجرد أداة تخويف، لوح بها عبد الرجال في وجهي حتى أبتعد عن سر أكثر خطورة. مضى أكثر من ربع الساعة، وأنا متلاحق الأنفاس أترقب، عيناي على باب النُزل، وأذناي واسعتان تلتقطان همهمات، وأحاديث عابرة، وصياح يأتي من بعيد، ثم أشاهد شرفية، وقد حملت عصا رفيعة، وفانوسًا شاحب الضوء، وانطلقت إلى الطريق.

لم أكن بالطبع في وضع يسمح لي بالتقاط فانوس، أستعين به أنا الاخر، في تلك الليلة المعتمة، وقررت أن أسير على هدى الفانوس الذي تحمله هي، حتى إذا ما اختفى الضوء فجأة، عرفت أنها وصلت بيتها، لم أفكر كثيرًا في الحفر، والمياه الراكدة في الشوارع، واعتمدت على عصا الأبنوس الصلدة التي يمكن أن تدافع عني، لو هاجمتني كلاب الليل وضواريه، وأعرف أن الكلاب هنا وغدة وسخيفة، وتهيجها روائح الغرباء أكثر من أي شيء آخر، والغابات المحيطة بالعاصمة، التي لم تطلها يد العمران بعد، تضخ ضواريها أحيانًا، ويمكن بسهولة شديدة أن تشاهد ثعلبًا يتسلى بملاعبة القطط، أو نمرًا شديد التوحش، يتمشي في الشوارع ليلًا بلا أدنى إحساس أنه يثير الرعب في قلب أحد. وبالرغم من ذلك كان الناس يعيشون بطريقة عادية، يطرقون الشوارع ليلًا، يطرقونها راكبين المطايا، أو على أقدامهم، وما حفلات مستكة التي تقيمها حتى مشارف الفجر، ويحضرها عدد من رموز المجتمع، إلا دليلًا على أنهم لا يهابون الخروج، فقط يتسلحون بالضوء من أجل الرؤية، وبالعصي والبنادق إن كانوا مترفين.. وكانت طريدتي تمشي على قدميها لحسن الحظ.

في البداية شاهدت عدة فوانيس شاحبة تتحرك أمامي، مما أربك خطتي وجعلني أفكر في التراجع. كانت الليلة باردة قليلًا، فقد كنا ما نزال في فصل الشتاء، لكن البرد لم يكن عائقا، وقد أتيت من بلاد صيفها برد كما يقولون، وتلك الرعدة الخفيفة التي أصابتني، لم تكن من لسعة البرد قطعًا، كان سببها كلب صغير لم أتبينه، تشمم قدمي قليلًا وهو يصدر همهمة ثم ابتعد، وفي اللحظة التي قررت فيها أن أتراجع فعلًا، وأعود إلى النُزل، أتسلى بأحلام نزقة أخترعها، أو أقرأ قليلًا في كتاب أكلة لحوم البشر للقس المبشر، الذي أحضرته معي، وأؤجل مطاردة شرفية ليوم يكون مقمرًا وأقل إنهاكًا للأعصاب، اختفت أضواء الفوانيس، ولم يبق منها سوى واحد، يتأرجح يمينًا ويسارًا، واستطعت أن أخمن بشيء من التشكك، بأن الفوانيس التي اختفت، كانت لسكان من أهل الحي، وصلوا بيوتهم، وذلك الذي يتأرجح، هو فانوس شرفية، وهي علي الأرجح تسكن في مكان آخر، وأزعم أنني خبرت الحي وأزقته في تلك الأيام التي تسكعت فيها، ولم أصادفها في الجوار مطلقًا. تبعت الفانوس وقلبي يرتجف، الكلاب تعوي لكنها بعيدة، قدماي تلجان الحفر وتخرجان منها، تلجان برك المياه الراكدة وتتلوثان، وثمة شوكة أو عقرب لا أدري اخترقت حذاء الحية، وآلمتني، لكني لم أحفل.

كانت تلك أكبر مغامرة أغامرها في حياتي، داخل المغامرة الكبيرة التي أتت بي هنا، وقد سميتها مغامرة العتمة، كناية على أنها جرت في الظلام، بلا أي مرشد سوى إحساس هو أيضًا معتم إلي أقصي حد.

لا أدري كم من الزمن مضى، وفي أي مكان من العاصمة صرت، حين توقف تأرجح الفانوس الوحيد أخيرًا، وتحول إلى ضوء ساكن، ظللت أتجه إليه في حذر، إلى أن اقتربت بمسافة قدرت أنها الحد الفاصل بين أن أنكشف ولا أنكشف، ووقفت أتشمم الهواء، وأوسع حدقتي عيني، علني ألتقط شيئًا.

تلك اللحظة، توقف شعر رأسي رعبا، تسارعت أنفاسي بشكل هستيري، وخيل لي أن قلبي قد فارق الصدر، ويعدو في الطريق المعتم، ذلك أنني شممت رائحة ليمون حامض، تداعب أنفي، وسمعت صوتا أنثويا واضحًا، يضحك، ثم يردد:

- تعال يا عثمان.. تعال.

ازداد ضوء الفانوس قوة، بحيث استطعت أن أرى بوضوح، أنني في بيت من الطين، متساقط الجدران، في وسطه عشة من الصفيح، مسورة بالخرق، وشرفية أمامي، بنفس هيئتها التي غادرت بها بيت مستكة، وكانت الليمونة بين شفتيها، تمصها في شره.

- 15 -

شرفية فتاة الجن

لن يظل السر الذي تكون بيني وبين الفتاة شرفية في تلك الليلة، سرًا مطويًا لزمن طويل، ذلك أنني دخلت عالم شرفية فجأة من باب ضيق جدًا، لا يتسع حتى لمرور ضحكة أو همسة، أو لمسة حنان واحدة، وبدأت جرجرتها لعالم آخر، لم يكن في مخططها أن تجرجر إليه، تمامًا كما جرجرتني ليلة تافهة من ليالي لندن إلى مغامرة لم أخطط لها في يوم من الأيام. كانت تعيش ليس على هامش العالم فقط، ولكن في بقعة أدنى كثيرًا من ذلك الهامش.

القصة ليست طويلة جدًا، وليست قصيرة جدًا.. قصة فتاة الجن التي لولا إصراري وفضولي الغريب واستعدادي أن أموت في ليلة معتمة بلا ضوء، لظلت هكذا، نفس القصة الروتينية، الحالية المعيشة، والمستقبلية التي ستروى لأجيال عديدة تأتي بعد غروب الحكاية.

لا جنية ولا خرافة، ولا أي اعتقاد آخر متأصل في عقول أولئك الذين عرفوا شرفية رضيعة ملقاة في الخرائب المرعبة، تحت شجرة ليمون عتيقة، وفتاة عشقت السكنى في تلك الخرائب بعد ذلك، وعشقت سيرتها الشخصية المرعبة التي تعلم تمامًا أنها على كل لسان، ولم تسع أبدًا إلى تغييرها، اعتبرتها أداة تمييز سلس، تتيح لها الحياة كما تريد، وعكاز حماية لها من شرور الدنيا، إلى ما لا نهاية. مجرد فتاة هائمة ومشردة، وبلا مستقبل كما قال الرحالة بارتليت وهو يبلل شفتيه الجافتين في تلك الليلة.

تعال يا عثمان.

وأسمع صدى اسمي العربي المرادف يتردد في ذلك الليل، كأنه ينبع من ألف حلق، وأنقاد وما زال شعر رأسي واقفًا من الرعب إلى عشة الصفيح المسورة بالخرق، وأجلس كما أمرتني الفتاة في واحد من أكثر أركان الدنيا بؤسًا كما أعتقد. كان ثمة حصير متسخ من سعف النخيل يغطي جزءًا يسيرًا من المكان، قدور فخارية مكسرة الحواف، ليمون يابس وأخضر، ورماد وقلة ماء وبعض الخرق التي لن ترتديها واحدة مثل مستكة أو الملكة سونيا أفرين، حتى وهي ميتة في الطريق إلى الدفن، مشتتة في المكان.

كانت نظرة الرعب كبيرة جدًا، وعلى ضوء الفانوس الذي وضعته شرفية في وسط المسافة بيني وبينها، استطعت أن ألم مفردات أخري عديدة، مفردات فوضوية، ونشاز، وملعونة، وتستطيع بجدارة أن تصنع السير المرعبة، وتحول عشرات البشر، إلى شياطين. طيور ميتة، جرذان مهترئة، ألسنة حيوانات متصلبة، خيوط حمراء على الأرض، تشبه الدم. لم أكن هادئا أبدًا، ولا سعيت للبحث عن التماسك، كما حدث في جلسة تحضير الأرواح التي حضرتها برفقة هيلينا دا سيلفا، على العكس كنت أبحث عن مزيد من الإضطراب، عن الغيبوبة الأخيرة، أريد أن أصل إلى ذروة الخوف الذي تعقبه السكتة الدماغية، وينتهي كل شيء.. لقد تورطت في متابعة كابوس، وأريد أن ينتهي سريعًا، وتلك ليست من ضمن محاضرات مستر ويلارد، لكنها محاضرتي الخاصة التي أنشأتها في التو وأنا أراقب شرفية تجلس على الأرض أمامي، مكومة ساقيها خلف ظهرها، وقد لمعت في فمها ابتسامة غير مطمئنة:

- لماذا كنت تتبعني يا غريب؟

لم تقل يا عثمان، وخاطبتني بصفة نفي لم أحبها، صوتها أفضل كثيرًا من ذلك الصوت الذي كانت تستخدمه في أعياد مستكة وتجادل به وجهاء المجتمع في أشياء تعرفها ولا تعرفها، يدها تخلصت من الليمونة،

وارتفعت في مواجهتي مضيفة صيغة تعبيرية للسؤال، ولا أرد، أتعارك مع القلب الواجف، أستحلفه أن لا يضخ الدم، مع الدماغ المشوش، أترجاه أن يسكت.

- منذ رأيتك أول مرة، عرفت أنك شخص غير عادي..

إنه إطراء بلا شك، اللا عادية إطراء حين نطلقها على الناس، والعادية مجرد صفة روتينية تركب الجميع، سقراط غير عادي لأنه غير شيئًا في حياة البشرية،، شكسبير غير عادي لأنه أضاف، مستكة غير عادية، وأسطورة، وحتى الأعرابي سيف القبيلة، غير عادي لأن لا أعرابيًا عاديًا، يفعل ما فعله منذ عرفته في الباخرة النيلية، حتى غادر إلى أرض البطانة. على النقيض، كانت هيلينا دا سيلفا، عادية إلى أقصى حد، فتاة شقراء مثل ملايين غيرها، تعشق وتهجر وتنحر القلب، وربما تعيش الآن قصة حب أخرى، تستعد فيها لنحر قلب جديد، عبد الرجال زافو، عاديّاً في ممارساته اليومية ولو مات واقفًا على قدميه من شدة الخدمة، ملهمته أبرهيت الحبشية، عادية في الشكل والمضمون الذي يتطابق مع مضامين بنات الهوى في الدنيا كلها، وجبريل الرحال عادي جدًا، حتى لو لبس غيرات الأزواج كلهم، ورفع أثقال الدنيا كلها. على أن كلمة غير عادي تلك، تحتمل السب أيضًا، لو قيلت في حق لص أو حاكم دكتاتوري، أو مغن منحرف مثل جون هايدي، المعروف بجون القصير، وكنت في تلك اللحظة قريبًا جدًا من اللصوص، كوني تتبعت فتاة لا تعرفني جيدًا، ولم تكترث بوجودي وارتباكي، بغرض سرقة سيرتها الخاصة، وقد تشوشت ثقافتي بصورة كبيرة الآن، خلتني في ثقافة عبد الرجال الذي يعتقد جازمًا أن شرفية من الجن الذي يتمثل في هيئة بشر..

في تلك اللحظة، وتحت عناد هروب الغيبوبة، وإصرار الوعي أن يظل وعيًا كاملًا ومرتعبًا، صارحتها بكل شيء، عدم احتمالي لها وهي بلا أناقة في سهرة تضج أناقة وتوصف بأنها عيد أسبوعي، يحرص وجهاء

المجتمع على حضوره. عدم تذوقي لما تطرحه، وما لا تطرحه من أحاديث تدخلها، وهي في قمة السطحية، إضطرار رحالة عالمي، تستقبله الدهشة في كل مكان يرتحل إليه، إلى الإنحناء ببذاءة أمامها وهي تمص الليمون بلا اكتراث، خوف المحيطين بها من الخوض في سيرتها، واعتراف من أحدهم، جاء بعد ضغط كبير، أنها فتاة جن، تتمثل في هيئة بشر. لم أقل عبد الرجال لأنني ما زلت مشوشًا ولا أعرف إن كنت أخاطب جنية بالفعل، أم مجرد فتاة بلا مستقبل.

ضحكت ورأيت أسنانها صفراء بفعل حموضة الليمون، وفعل الجير الذي لا بد تراكم على طبقتها، ولا أظنها غسلت أسنانها من قبل قط. لكن ضحكتها رنانة، وفيها أنوثة، ويمكن أن تتطور في أي وقت من الأوقات، إلى ضحكة دلال سافر، يجر الشهوة وما بعدها. ضحكت معها، وكانت ضحكة الخوف المعروفة في مثل تلك المواقف، حتى الخوف يمكنه أن يضحك..كما كان يردد معلمي مستر ويلارد.

- وما رأيك أنت يا غريب.. جنية أم من البشر؟

أعطتني خيارين علي أن أختار أحدهما الآن، وكان الأمر صعبًا للغاية.. هيئتها وحديثها، وانخراطها في مجتمع مستكة الأسبوعي، يقربها من البشر بلا شك، وسكناها في تلك المزبلة، وسط جرذان ميتة، وخرق، وقذارات أخرى، يقربها من الجن.. لم أفكر كثيرًا، واخترت الاحتمال المنطقي، الاحتمال الذي لن يختاره عبد الرجال، أو مستكة أو أي مواطن من هذه البلاد، لو وضع في مثل هذه الظروف.. قلت:

- من البشر طبعًا.. لا يوجد جن يشبه البشر.

كانت الآن تنهض من جلستها التي كومت فيها ساقيها خلف ظهرها، تقترب مني بشدة، وتجييء القشعريرة مرة أخري بعد أن ذهبت للحظات، تضع وجهها غير الموشوم في مواجهة وجهي، تفتح فمها وتغلقه، تفتح عينيها بإصبعيها وتغلقهما، ترفع قميصها إلى مستوى رقبتها، وأرى جسدها

أنثوياً براقًا، جسداً رشيقاً، مقسماً، وينطوي على إثارة، كان من بين أندر الأجساد الأنثوية التي رأيتها من قبل، لكنه قذر، ويملك رائحة المكان بجدارة. تنزل قميصها، تعود إلى مكانها، تتكوم وتحكي.. وكنت الآن مستمتعًا في واحدة من المحاضرات التي ستتغير بعدها حياتي إلى الأبد.

الخلاصة، أن شرفية لا تعرف سوى أنها وُجدت في تلك الخرائب وتربت فيها، لا تعرف من الذي وضعها ومن اعتنى بها، ومن أطعمها وسقاها حين كانت في حاجة لطعام وسقيا، وتتذكر بشيء من الضبابية، امرأة مغطاة الوجه كانت تأتيها بشكل شبه يومي، تحضر لها حليبًا وشيئًا من الطعام ولا تنطق بحرف وتمضي، حتى كبرت قليلًا فانقطع حضور تلك المرأة. وكان الليمون الذي يتساقط من الشجرة العتيقة، فاكهتها التي عشقتها وما تزال إلى الآن، تأكل قليلًا حين تعثر على طعام، أو حين تريد هي الطعام، لكن الأمر ليس هامًا، ولا يشكل محورًا من محاور حياتها.. سمت نفسها شرفية، لأن الاسم أعجبها حين سمعت رجلًا رشيقًا، ينادي به امرأة جميلة في أحد الشوارع، اعتُبرت جنية، وعرفت بذلك مبكرًا، وكان هذا النسب الذي اخترعته المخيلات جواز مرور لها، إلى أي مكان تريد أن تدخله، وكذا دخلت بيت مستكة وغيره من البيوت الأخرى بلا اعتراض، وترى نظرات الخوف، وعبارات التبجيل تتساقط حولها، تعلمت اللغة في الشوارع، تثقفت في الشوارع، لم يزرها أحد في خرائبها قط، وما سعت الدولة الرسمية أو غير الرسمية، لحل لغزها، ولا هي سعت لأن تصبح بلا لغز.. وحين سألتها عن ديانتها، إن كانت مسلمة أو مسيحية أو وثنية، ردت بأنها تعرف هذه الديانات، تعرف شعائرها، والكثيرين من معتنقيها، لكنها شخصيًا، لا تعرف ديانتها، وبالتالي لم تمارس شعائر دينية قط.

سؤال آخر عن سر احتفاظها بالقذارات ما دامت واعية لهذه الدرجة، وكانت الإجابة التي أعرفها سلفًا، وأردت أن أستوثق منها:

ليزيد الاعتقاد بأنني جنية فعلًا، إذا ما فكر أحد في دخول عشتي بأي دافع.

سؤال جديد:

كيف استطعت أن تتعايشي مع حياة كهذه؟

جواب: بإرادتي.

سؤال.. جواب.. سؤال.. جواب، والليل يمضي إلى نهايته، بلا رعب وأضحك من نفسي، كيف تناسيت ثقافتي وتحضري وفلسفتي في الحياة، وارتعبت بهذه الدرجة؟، وتجتاحني فجأة لحظة عطف غريبة وكبيرة تجاه تلك الفتاة التي عاشت حتى بلغت العشرين ولم يسأل أحد نفسه أبدًا، كيف عاشت؟، حتى القساوسة المبشرين، ورجال الدين المسلمين، والمتصوفة الذين يملأون البلاد ضجيجًا، ويحييون الليالي الذاكرة، لم يسألوا أنفسهم، مستكة الأسطورة، لم تسأل برغم سعة أفقها، وأولئك الذين كتبوا على الحوائط تلك العبارات المريعة عن سقوط الملكة وخيانة المصريين، كيف يحلمون بطرد سيطرة استعمارية بهذه الخطورة، ولا يفكرون في معرفة ظروف فتاة بلا مستقبل، صنعت حياة أخرى بلا أي خيار آخر، ثم ليأتي غريب فضولي مجنون مثلي، يحل تلك الطلاسم التي كانت بسيطة جدًا، وتحتاج فقط إلى ليلة معتمة لتحل نفسها بنفسها.

الاستنتاج المنطقي هنا، هو ترديد الخرافة حتى تصبح حقيقة لا تحتمل الشك. ما دام الكل قد اتفقوا على أن فتاة وجدت في الخرائب وعاشت فيها حتى نضجت، فهي من الجن، وما دامت الفتاة نفسها واعية، ولم تسع لتثبت أهليتها كإنس، فهي من الجن، كنت أكيدًا أن آلاف الحكايات صيغت عنها في همس، وتستعد تلك الحكايات لتدخل الموروث الشعبي، وتروى لأجيال قادمة، لكنني لن أترك ذلك يحدث.

كان الصباح مضيئًا في الأفق، حين حللت لغز شرفية بالكامل، السر الذي بيني وبينها، والذي لن يستمر سرًا إلى الأبد، وقطعًا سيعلن في وقت

ما.. أقنعتها بضرورة أن تنظف عشتها، لأن لا أحد سيفكر في غزوها وقد كبرت جنية في نظر الناس.. أقنعتها بضروة أن تأكل بشكل عادي، تلبس بشكل عادي، ومنحتها عدة جنيهات، تكفي لإعادة صياغتها، ورفضت بشدة، وكان دوري قد حان لأعمل أنا على إعادة مستقبل هارب من فتاة، ولو نجحت في ذلك، فلن يكون ثمة رحالة كبير وشهير مثل وليام بارتليت، مضطرًا لينحني ببذاءة مرة أخرى، لو عاد إلى أرض السودان، وحل ضيفًا في عيد من أعياد مستكة، ولن يضطر الآخرون أن يضحكوا أو ينفعلوا برعب.

حين نهضت عائدًا إلى النُزل، كنت فرحًا أغني، وأهنئ نفسي، بنجاح مغامرة العتمة، أخطر مغامرة أقوم بها داخل المغامرة الكبيرة التي أتت بي إلى هنا.

- 16 -

وظيفة المشرف

ظهر الأعرابي سيف القبيلة أخيرًا، ظهر بعد أن تملكني اليأس من عودته، وخلته قد مات أو اعتزل السفر، ليلصق في أرض البطانة، قريبًا من الإبل والرعاة..

ظهر رافع الأثقال القوي جبريل الكونت أيضًا، ولم يكن أمر ظهورهما في نفس الوقت، مصادفة جرت في نُزل مستكة، ولكن جاءا معًا، يحملان كثيرًا من الصخب. أحدهما غالب بحرارة القلب، والآخر مغلوب يسعى للنيل من غريمه.

كانت قد مضت ثلاثة أشهر كاملة منذ وصلت الخرطوم، وأقمت في نُزل مستكة، واستكشفت كثيرًا من الخفايا، وحللت لغز شرفية فتاة الجن، التي بت لصيقًا بعالمها، ولصيقًا بقلبها أيضًا، وفي ذهني خطط أوسع كثيرًا من اعتبارها مجرد فتاة مشردة ولغزًا حللته ذات يوم.

كنت قد عثرت على عرض من الإسكوتلندي، جيرمان جيسي، المعروف وسط المحليين، والأجانب المحيطين به، بجيرمان قرنفل، والذي يعمل مساعدًا للمشرف العام في إنشاء خط السكة الحديد الذي سيربط فيما بعد بين العاصمة، ومنطقة وادي حلفا، مختصرًا لعذاب قوافل السفر، وداعمًا لتدفق التجارة بين مصر وأرض السودان بصورة أكثر. كان العرض عبارة عن وظيفة مشرف ثان في مشروع خط السكة الحديد، بأعباء بسيطة جدًا، أن أذهب إلى منطقة الإنشاءات داخل العاصمة والضواحي القريبة، مرتين أو ثلاث أسبوعيًا فقط، أتجول على ظهر جواد قوي سيمنح

لي من ضمن مخصصات الوظيفة، أستخدم صوتي بكامل قوته أحيانًا في زجر عامل كسول، وأحيانًا سوطًا من جلد البقر، أهوى به على ظهر من لا يفهم لغة الصياح، وفي أحيان قليلة، علي أن أبدو أكثر تعسفًا، أقوم بطرد عاملًا أو عاملين، من المشروع، إلى الأبد، أو أعيد عشرة عمال على الأقل إلى بيوتهم، بلا أجر شهري.

كان عرضًا في غاية الأريحية، لو قدم لأي مغامر من الغرب البعيد، لا يحمل بذرة تعاطف ما، وفي غاية العنصرية لي أنا جلبرت أوسمان- عثمان، وقد بت أكثر قربًا إلى الشعوب المنهوبة، مني إلى الشعوب الناهبة التي أنتمي إليها. أصبحت أتذوق عبد الرجال زافو بشدة، أتذوق خدم مستكة الآخرين، أتذوق سرقات السوق المنحصرة في حبات الخيار والطماطم ورزم الخس والجرجير، التي يجلد بسببها الفقراء على دكك الطين، وأعتبرها لا سرقات على الإطلاق، أتذوق ترتيل القرآن كلما مررت بمساجد الطين في ساعة الدروس، وتزداد في بدني القشعريرة، أتابع لابسي العمائم والجلابيب، يذهبون على ظهور حميرهم، أو على أرجلهم إلي صلاة الجمع، وينتابني إحساس غريب، وأهم إنجاز حققته في وجودي هنا، هو أنني أفشلت المستقبل البائس الذي كان ينتظر فتاة مثل شرفية، وحولته إلى أمل في مستقبل. أيضًا وقفت في إحدى العصريات في وسط الحي الذي فيه نُزل مستكة، وبعد أنتهت صلاة العصر، وانتهى الدرس الديني الذي يليها، ناديت على الصبيان الذين استعدوا للركض حفاة، أو للعب لعبة الاختباء السطحية، وكانت في يدي كرة من القماش صنعتها بتأن بعد أن استعرت أدوات خياطة من مستكة، وابتدأت أعلمهم كيف يستخدمونها، واكتشفت بأن معظمهم أذكياء جدًا، تعرفوا على اللعبة في غضون عدة دقائق، وبعد أسبوعين من دروسي اليومية، نشأ فريقان متنافسان في الحي، وانتقلت اللعبة بلا أي تدخل مني بعد ذلك إلى أحياء أخرى مجاورة. ونشأ من وسط أولئك الصبية، مدربون لها.

قررت أن أقبل عرض النجار الإسكتلندي الذي صيرته السطوة الاستعمارية، مسؤولاً كبيرًا في مشروع كبير، ذلك لأسباب عديدة، منها أن مواردي قد نضبت تقريبًا، وأنني لا أنوي الرحيل، إضافة إلى شرفية ومستقبلها الذي علقته بإرادتي على عاتقي، ولا يدهشني أنني فعلت ذلك.

زرت جيرمان قرنفل في مكتبه بناء على موعد مسبق، حين اقتربت منه كثيرًا في أعياد مستكة الخميسية، كان مكتبه جيدًا بالنسبة لما تخيلته عن مكاتب الإدارة هنا، يقع في بناية من الحجر، ومفروش بطريقة أوروبية بحتة، كأنه استورد من أوربا هكذا، وزرع في تلك البناية. وجدت عنده مغني الربابة المترهل الذي اسمه القوز، وكان يعمل ساعيًا في المكتب كما عرفت، ويغني كنوع من الهواية، وقدم لي شايًا بنكهة النعناع، شربته بمتعة، وشخصاً آخر قصيرًا وممتلئًا، ذا ملامح إفريقية واضحة، يرتدي ملابس الصوفيين التي أعرفها والمكونة من الجبة الخضراء المرقعة، والطاقية الحمراء ذات الثقوب، ويعلق مسبحة كبيرة من ثمار اللالوب على رقبته، وقدمه لي باسم الشيخ صاحب الشأن مولانا، شيخ الطريقة الصاحبية الشأنية التي دخلت البلاد قادمة من غرب إفريقيا، على يد جده الشيخ صاحب الشأن مولانا البنبازي، و هي إحدى أهم طرق التصوف، ويتبعها الآلاف من أهل البلاد، ولها مقر في العاصمة، تقام فيه الموالد والاحتفالت الدينية، ومقرات في الأقاليم أيضًا، حيث يوجد الكثير من أتباعها المخلصين.

كان ثمة حديث ودي بين الأسكتلندي، وشيخ الطريقة الصاحبية الشأنية، تبادلا فيه الضحكات، قبل أن أقطعه بدخولي، وغادر الشيخ، وفي رأسي مئة سؤال عن تلك العلاقة الودية التي ربطت بين اثنين، لا يمتان بصلة لبعضهما البعض. وتأتي الإجابة إلى ذهني سلفًا، بأن ثمة مصالح متبادلة بلا شك، ولأكتشف بعد ذلك خطئي الكبير، حين توثقت علاقتي بصاحب الشأن مولانا، ذلك أن المتصوفة بطبعهم كانوا ودودين لأقصى

حد، ويتذوقون المر، كما يتذوقون الحلو، ويدعون حتى الأعداء السافرين إلى اعتناق دين الرحمة، بلا صراخ أو وجوه متجهمة، وقد كان الشيخ صاحب الشأن في واحدة من المهمات الدعوية، حين صادفته.

في ذلك اليوم الذي أعتبره واحدًا من أيام عمري التاريخية، مُنحت وظيفتي شبه الإسمية، ولم أكن أنوي استخدام صلاحياتها كاملة أبدًا، منحت جوادًا قويًا أسود اللون، في عنقه بياض، وراتبا تمهيديّاً، سيزداد قريبًا بعد أن أستقر في الوظيفة، وأقرضني المسؤول الأسكتلندي، راتب عدة أشهر مقدمًا، وكان حافزا كبيرًا لأن أخرج من بيت مستكة وأبحث عن سكن مستقل، وأيضًا لكي أذهب إلى سوق الرواكيب، في ذلك اليوم بالتحديد، أبدأ محاولات تعديل شرفية من جنية مزعومة، إلى فتاة تخيلتها ستخلب لبي لو استجابت وانقادت لمحاولات التعديل.

كان المعالج. تاجر القماش المصري فضلي الدباغ، موجودًا في محله حين وصلت، وثمة امرأة في حوالي الخامسة والخمسين، تبدو على وجهها دلائل حزن كثيف، تجادله على سعر ثوب من الدمور الخشن، ويستجيب لها بأن يخفض السعر قليلًا، وهو يقسم بلهجته المصرية، أن هذا السعر، هو رأس ماله الذي اشتراه به، وترد المرأة بأنها تشتريه للحداد على والدها، وعليه أن يقدر الظرف، فيخفض أكثر، ويستجيب أيضًا، مقسمًا هذه المرة أن البيعة خاسرة. انتظرت حتى غنمت المرأة الحزينة ثوبها وذهبت، ووقفت أمامه. كان متجره ممتلئا بالقماش الملون من مختلف الأنواع، حزم رصت فوق حزم، ثمة حراير وأصواف وأنسجة قطنية، ولم يكن في ذهني قماش محدد، فقط قياسات جسد شرفية التي انطبعت في ذهني بصورة شرسة، وأستطيع أن أرسمها لأي خياط، من دون أن تحضر بنفسها، والواقع أنني في أوقات استرخائي، كنت أرى الفتاة أمامي كاملة، أراها وأكاد ألمسها، وأذهب إلى خرائبها في الليالي المعتمة، أتأكد إن كان ثمة تعديل قد طرأ، وقد سرني أن المزبلة قد كنست

أخيرًا، ولم تبق من مقومات الجن، سوى السمعة، والتي أرادت شرفية أن تبقى كما هي في الوقت الحاضر، وما زالت تخيف الجميع، وتذهب إلى بيت مستكة، بنفس هيئتها الأولى غير المناسبة، فقط نبت شعر الفتيات على رأسها، ليترك علامات استفهام في وجوه الحضور، لكنها لم تتعد كونها علامات استفهام فقط، لم تجرؤ، لتصير أسئلة مباشرة قط. أراقب كل ذلك وأضحك في سري، المتفرنجون الأنيقون، يقمعون بإشارات وألفاظ تصفهم بالجهل، صاحبة النُزل الأسطورة، وقد انحنت سطوتها، لتركبها سطوة الفتاة الجنية. لا أحد يعرف، ولا أي سلوك صدر مني أو من شرفية يوحي بأنني أعرف..

عرفني المعالج التاجر بالطبع، وأيضًا تعمد في هذه المرة، أن لا يسألني عن حالي وحياتي في هذه البلاد، وإن كنت راضيًا أم ساخطًا، أو أنوي الرحيل إلي بلادي، كما يفعل كثيرون أصادفهم أثناء مروي في أي مكان. سألني عن طلبي مباشرة واخترت من رفوفه ثلاثة ألوان من الحرير النسائي، قدرت أنها ستعدل أناقة شرفية أمامي على الأقل، وأخذتها مقصوصة ومرتبة، وملفوفة بالورق، إلى محل بريمر للخياطة، وأنوى أن أسلمها مسز هاينريش وأصف لها قياسات الجسد الأنثوي الذي سيرتديها، وأحاول الاستعداد لأي أسئلة مفاجئة ربما تطرحها علي بخصوص المرأة صاحبة الفساتين، من هي؟، ولماذا لم تأت بنفسها؟.

عرفت جوادي الخياط وزوجته، وجواد مستكة البني الممتلئ، حين رأيته مربوطًا أمام محل الخياطة، والحمار المنهك الذي تركبه خادمتها دنيا، وكان مربوطًا على مسافة من الجواد، هي نفس المسافة التي بين مستكة ودنيا، بين سيدة ذات ظلال، وخادمة بلا ظل، ودرت بجوادي الذي أركبه لأول مرة وأحاول التماسك على ظهره حتى لا أسقط، مبتعدًا حتى لا أواجه بمأزق أو أسئلة بلا إجابات في الوقت الحاضر، وعدت بعد أكثر من ساعة لأجد مستكة قد انصرفت وأستطيع الآن أن أدخل محل

الخياط بلا فزع.

لم يكن هاينريش موجودًا كما دل غياب جواده الذي كان موجودًا من قبل، وكانت امرأته التي تعاني من تصلب أصابع اليدين، في لحظة استرخاء كما يبدو، لأن صحيفة ألمانية قديمة بعناوين بارزة، كانت مفرودة أمامها علي ماكينة الخياطة، بينما أقمشة كثيرة بألوان مختلفة، تتكوم على الأرض تحت الماكينة. كان ثمة صليب ذهبي كبير يتدلى على صدرها المغطى بقماش رمادي محكم. والمرأة المحلية التي تخيط الأزرة، انزوت في أحد الأركان، تأكل شيئًا على قدح من الفخار. لم تبتسم إليانور هاينريش حين رفعت عينيها عن الصحيفة ورأتني، لا ابتسامة ناعمة ولا قاسية، وقالت مباشرة بإنجليزيتها متآكلة الحروف:

- فاير غير موجود، أيها الشاب،ذهب إلى قصر الحاكم العام لأخذ قياسات ابنه الصغير، من أجل ملابس جديدة سيرتديها في عيد ميلاده، تعال في العصر وستجده.
- أتيت لخياطة ثياب نسائية، لو سمحت لي.

رددت عليها، وأتابع تعابير وجهها التي لم تتغير كثيرًا، أو بالأحرى لم تتغير على الإطلاق، وأقسم جازمًا أنها تعتبرني صعلوكًا غير جدير بأن تمنحه تعابير من أي نوع، وأنا الذي نفيت تديني بفجاجة، حين سألتني.. لكن فاير هاينريش غير متدين، وعرف بعشقه للسراري، واقتنائهن بلا عدد، حتى تدخلت الحكومة وقيدته، وبالرغم من ذلك، هو زوجها وتعيش معه؟.. لم أستطيع الوصول إلى نهاية لخواطري التي ستتشعب حتمًا لو استمرت هكذا.

- أين المرأة لآخذ قياسها؟.

إنه السؤال الذي كنت أتوقعه، وحاولت أن أستعد له كثيرًا، ولم أستطع، لو قلت إن المرأة مريضة، فلن تكون إجابة مثالية، والمريضة يمكن أن تشفى وتأتي بنفسها لأخذ قياسها، لا شيء عاجل أو طارئ، لو

قلت مسافرة، فالمسافر يعود، ولو قلت من أجل شرفية المعروفة وسط الناس بفتاة الجن، وتسكن في إحدى الخرائب،، لهوت من مقعدها..

لا إجابة للسؤال، وأجرب طريقة أخرى من دون توضيح:

- أعرف قياسها جيدًا سيدتي، وسأبينه لك..

قبلت بذلك الحل بهزة من رأسها، ومرة أخرى أزعم أن اعتباري صعلوكًا قد تضخم في عقلها بصورة أكبر، لا يوجد رجل يعطي قياسات جسد أنثوي بدقة، ما لم يكن قد شاهد ذلك الجسد مئات المرات، ما لم يكن قد لمسه، رجه، التحم به.. تعرف أنني أعزب، وأنني غريب، وأنني غير متدين، ماذا بعد؟

كتبت لها قياس الصدر والخصر والردفين، والطول المطلوب، وحجم الكمين، طلبت تفصيلًا على نهج الموضة الحديثة، وسلمتها بضاعة الحرير الملونة، من دون أن أنطق أو تنطق، فقط كلمة واحدة قالتها وأنا أهم بالإنصراف:

- بعد أسبوع.

حين خرجت من محل برايمر، راعني أنني شاهدت شرفية في النهار لأول مرة، كانت تتجول متسخة على قدميها اللتين تنتعلان حذاء من جلد الماعز الرخيص، في وسط المتسوقين، وأرى الناس يفسحون لها الطريق في رهبة، باعة الخضار ينادونها لتشرف، وتنتقي الليمون الذي تريده، والجنود الإنجليز المختصين بجلد سارقي التوافه اليوميين، يتوقفون عن جلد صبي يصرخ، ويتأملونها، وعلى شفاههم ابتسامات هشة، لكنها لا تكترث. كان شعرها الأسود الذي بدأ يطول، يلمع تحت وهج الشمس، وقد تمزق أحد أكمام قميصها الرمادي المتسخ، موحيًا ببؤس قذر، وبلا ضمير، وشعرت بشيء من الإكتئاب، لم أكن أريد أن أرى تلك الفتاة تعامل نفسها، ويعاملها الناس بوصفها جنية، لكن لم تكن لدي حيلة، وقد أبت أن يكشف السر في الوقت الحاضر. كان مجيئي إلى السوق من

أجلها، وأكاد أجزم أن بقائي هنا، سيكون من أجلها أيضًا. لم تكن مثل نساء عرفتهن قطعًا ولن تكون مثلهن لسبب بسيط أن كل النساء اللائي عرفتهن من قبل، كن بلا غموض، سوى ذلك الغموض الاستفزازي العادي الذي تخترعه المرأة، من أجل أن تصبح مرغوبة في نظر الرجال.

استلمت عملي فعليًا في خط السكة الحديد، كان ذلك في يوم شديد الحرارة، إنه صيف الخرطوم الذي يأتي مبكرًا، ولا يمضي إلا بعد زمن طويل..ارتديت ملابسي الإفرنجية، قميصًا أبيض بكمين قصيرين، وسروالًا كاكيًا، وطاقية من سعف النخيل طويلة الحواف، اقتنيتها مؤخرًا من سوق الشمس، وانطلقت على ظهر جوادي القوي، حتى مواقع الحفريات. كان العمال كثيرين، كأن البلاد كلها تعمل في ذلك المشروع، فقراء الملامح وبائسين، ويعملون بجد وسط أناشيد حماسية، تنطلق من حلوقهم اليابسة، تجولت وسطهم برفقة ملاحظين، ورؤساء ورديات أجانب ومحليين، وتوقفوا عن العمل عدة دقائق، يطالعون مشرفهم الجديد، ولا بد يقيسون أبعاده، يحاولون ملامسة قلبه، وإن كان بغيضًا أم مجرد مشرف، لن يستخدم جبروت الطغاة في قهر أحد، وأعتقد أنني كنت عند حسن الظن، لأنني ترجلت عن الجواد، تحدثت إليهم بود، وتركت انطباعًا لا بأس به. لقد عادوا إلى الحفر، وتليين الحديد وتطويعه وغرسه في الحفر، بنشاط أكثر، وأغانيهم ترتفع مالئة المكان ضجة كبيرة.

لقد تزامن استلامي للعمل، مع خروجي من نُزل مستكة أخيرًا، واستئجاري لبيت صغير من الحجر الخشن، به حجرتان، وصالة صغيرة، ومكانًا للطبخ وآخر لقضاء الحاجة، في حي سلامة الذي يعتبر حيًا نظيفًا، مقارنة بأحياء أخرى في العاصمة الكبيرة، وكان معروفًا بتنظيمه، واتساع شوارعه قليلًا، ويسكنه في الغالب معظم الأجانب الذين يحتلون وظائف جيدة في البلاد، ومن بينهم قرنفل نفسه، مسؤول السكة الحديد، الذي أرشدني إلى ذلك البيت، والألماني فاير هاينريش، وتاجر الساعات

السويسري دونان غرايسر، الذي تعرفت عليه في بيت مستكة.

كان خروجي من نُزل مستكة عاديًّا بالنسبة لتلك المرأة الأسطورة التي ما كانت غواية ولا حتى سراب غواية لي أبدًا، جميلة، ومغرية، وشديدة الإغواء، فقط بلا أي إضافة أخرى، ولعل ذلك كان سر تمددها لتصبح بكل تلك الظلال، أن تكون قريبة من العشق ولا تمنح العشق لأحد، ناعمة وخشنة في بسط النعومة. أمرت خادمها عبد الرجال زافو أن يحمل حقيبتي المرتبة إلى مكان جوادي خارج النُزل، وأن يتأكد بأنني أخذت كل شيء، وكنت في الحقيقة قد جردت الغرفة حتى من أحلامي التي حلمتها داخلها، وكوابيسي التي أرقتني، أحلام عن لندن البعيدة، كوابيس جون القصير، والقبطان لويجي آر كميلسون، وشرفية فتاة الجن، التي أعترف بأنني حلمت بها أحلامًا غاية في النظافة، وغاية في البذاءة، حتى قبل أن تبدأ رحلة التعديل التي رسمتها لها.. من جنية تحتلب الرعب إلى أنثى يحفها المستقبل.

عبد الرجال كان مكتئبًا من ناحيته، ولم يستوعب أبدًا أن يعمل في النُزل وأنا خارجه، لم يحمل حقيبتي القماشية إلى الخارج فقط، بل رافقني على حماره الهزيل حتى حي سلامة، دخل بيتي، تفقده ركنًا ركنًا، وتأكد من نظامه، وكنت قد أحضرت كثيرًا من المقاعد وأسرة الحبال، وأواني الطبخ والطاولات، وأشياء أخرى مهمة لتأثيث البيوت، وتبقت معضلة الطبخ الذي لا أجيده، وغسيل الملابس الذي ينهكني، ويضيع الكثير من الوقت، ولم أعثر على امرأة مستأجرة تقوم بتلك المهام، لأضطر في النهاية وضد مبادئي أن اشتري امرأة من الرقيق البائر، في نحو الستين، قضيت أيامًا أبحث عن مواصفاتها، ذلك أن المرأة الرقيق المتقدمة في العمر لا تعرض للبيع، لأن لا مشتر سيدفع فيها شيئًا. كان اسمها رقيون، موشومة في خديها، وشعرها خشن، موصول بضفائر اصطناعية، اشتريتها من فرنسي يملك مزرعة لتربية الخيول في أطراف الحرطوم، وكان في

نيتي أن أمنحها الحرية بعد ذلك، كلفتها بمهام إدارة البيت، وكانت مريحة وكثيرة الصمت، وتعرف كيف تؤدي المهام.

زياراتي الليلية المستترة لم تنقطع لخرائب شرفية، وكانت بعيدة قليلًا عن حي سلامة، آتيها ماشيًا على قدمي، حتى لا يفضحني الجواد، فقط كانت هناك ميزة كبيرة، ذلك أنني أستطيع الآن أن أحمل فانوسًا يضيء العتمة، وأدخل إلى عشتها، دخولي لبيتي، بعد أن أستوثق أن لا أحدًا يراقبني، ولا فانوسًا آخر بخلاف فانوسي يتحرك بالجوار. وحين أخذت إليها الحراير بعد أن خاطتها إليانور هاينريش، وارتدتها بعد أن اغتسلت في عشة أخرى، أنشأتها حديثًا، بالقرب من عشتها الأولى، وجاءت، لم تكن قطعًا فتاة الجن التي يعرفها الجميع ويرتبكون عند رؤيتها، كانت فتاة أخرى، لن تقل رونقًا، ولا ملاحة عن أي فتاة عادية، نشأت في ظروف عادية، وتعلمت كيف تعيش.. وكان علي أن أخب في مشروعي الذي يخصها وأنجزه.. وهذا ما سيحدث قريبًا.

اليوم الذي ظهر فيه سيف القبيلة وجبريل الرحال، كان يوم جمعة وكنت في عطلة من العمل، والحقيقة أن معظم أيامي عطلات، بسبب وظيفة شبه اسمية. كنت أسترخي في بيتي برفقة كتاب القابلة مس أنطونيو، أقرأه للمرة الثالثة بنفس متعة قراءته الأولى، أحاول أن أتخيل شكل الخفاض الفرعوني كما وصفته، وهل كان إحساسها صادقًا بالفعل، حين خضعت لذلك الموروث المتخلف، أم أرادت تجربته على جسدها من أجل كتاب، سيربح كثيرًا حين يكتب بصدق؟، لقد ذكرت في إحدى الصفحات، إنها جربت اللقاء الحميمي بوضعها القديم والحديث، وندمت لأنها دخلت عالم النساء الحقيقيات متأخرة، لكنها لن تجبر امرأة أخرى على خوض التجربة.

الذي طرق الباب في تلك اللحظة، هو عبد الرجال، وقد قطع مسافة طويلة، راكبًا على حمار من حمير النُزل، ليستدعيني، بناء على

رغبة صديقي سيف القبيلة الذي عاد. نهضت كالمجنون حين سمعت اسم الصديق يتردد، إنها لحظة فرح غامرة:

- أين هو؟ لماذا لم تحضره معك؟

أسأل عبد الرجال في توتر، وأعرف من إجابته، أن سيف القبيلة التقى جبريل الرحال في سوق الشمس مصادفة، قبل قدومه إلى النُزل، تعاركا بالألفاظ المسيئة، وصمم جبريل على أن يعيدا لعبة القوة في نفس مكانها الأول، وتحت نفس الظروف، وبحضوري لأكون شاهدًا على هزيمة صديقي.

ما أغرب المصادفة؟، أن يأتي الأعرابي من أرض البطانة ويصادف غريمه الذي اختفى من ساعة أن طردته مستكة، وكنت أظنه قد أكمل شهر العسل بكل ما فيه من مرارة، وعاد إلى أهله؟، لم أسترسل في التخمين، ركضت إلى جوادي بسرعة، وقد لاحظت لأول مرة، أن عبد الرجال بطيء الحركة، ويرتعش كأن به حمى، وكانت به حمى حقيقية، تأكدت منها حين لمست جبهته، وحين أخبرني صراحة ونحن في الطريق إلى النُزل، أنه سرق ساعتين من خدمته، مستغلًا غفوة إنهاك، غفتها مستكة، منذ عدة أيام، قضى منها جزءًا مستمتعًا في أحضان أبرهيت الحبشية، وأصابه مرض الماء الأبيض، ويتلقى علاجًا عند فضلي الدباغ منذ أمس.

- 17 -

امرأة رجل

كان سيف القبيلة هادئًا حين وصلنا النُزل بعد أكثر من ساعتين استغرقهما الطريق، نظيفًا ومتأنقًا في ثوب أبيض طويل يحتك بالأرض، وعمامة متموجة من قماش الكرب الغالي، وحذاء خاصًا من جلد فرس البحر، لا أدري من أين جاء به، ولم يكن من ضمن الأحذية المعروفة في البلاد، ولا أظنه صناعة مصرية لأخمن أنه اشتراه من مصر. وخيل لي أنه صغر كثيرًا عن عمره الذي أعرفه، في تلك المدة التي غاب فيها، بينما جبريل الرحال متسخًا وثائرًا، يعارك الهواء بقبضتيه، وقد ارتدى قميصًا مقلمًا، ضيقًا، يظهر عضلات صدره ويديه، متورمة، وتنضح بالشر.

نزلت عن ظهر الجواد بسرعة، أسرعت إلى سيف القبيلة، عانقته بحرارة، وعاتبته على الغياب الطويل، وأردت أن أحدثه عن المستجدات التي طرأت على حياتي منذ تركني ضيفًا حديث العهد بالبلاد وبنُزل مستكة، إلى أن توظفت في مشروع السكة الحديد، وابتدأت ظلالي تتكاثف، ولم يكن بالطبع في نيتي إخباره عن شرفية، فلم يكن الوقت قد حان بعد. لكن الظرف لم يكن مناسبًا لمثل ذلك الحكي، وقد عثر عليه جبريل في سوق الشمس، يشتري الإبل ويبيعها بسرعة نوعًا من التسلية التي يمارسها دائمًا حين يزور العاصمة، تحداه، وجره إلى هنا، وأفسد كما قال لي همسًا، مشوارًا هامًا كان سيذهب إليه، وقد استعد له بكل تلك الأناقة. كان ذاهبًا لخطبة امرأة، واحدة من الغجر المهاجرين من بلاد الشام، تعرف عليها، حين كانت تبيع الفول المطحون وقصب السكر، في مهبط قوافل البطانة،

وصمم على خطبتها، حتى إذا ما سنحت فرصة أخرى، تزوجها في السر، ولم يكن أعزب.. كان متزوجًا من ثلاث نساء في موطنه.

أجلت استغرابي من سلوك سيف القبيلة، والحقيقة كان سلوكًا عاديًّا من رجل مثله، أن يقترن بعدة نساء في وقت واحد، وليس أغرب من إندلاع شهوته بكل جنونها ولعنتها، حين شاهد العجوز سكر، ترتدي الثياب اللماعة التي أحضرها لها، وتتعطر بالعطر الرخيص الذي جلبه من منطقة الشلال، وكان نزعه لملابسه، والانحناء للجلد في ذلك العرس القروي، من الغرائب التي ما ظننت حدوثها أبدًا..

لن يدهشني سيف القبيلة بأي حال من الأحوال، حتى لو قال بأنه متزوج من ناقة، سأصدقه بلا جدال.

من ناحيتها، كانت مستكة موجودة، وغاضبة، وتردد بصوت أعلى كثيرًا حتى من صوتها المعروف في ساعة الغضب، إن بيتها ليس ساحة حرب، تتكرر فيه الصراعات، وإنها ما رضيت بالمرة الأولى إلا لأنها جاءت بغتة، وكان الغريمان من نُزلاء بيتها، أما أن يأتي كل ضائع في الطريق ليشعل مثل ذلك التحدي في بيتها، فهذا لن يحدث أبدًا. ويبدو أن جبريل لم يصنف نفسه ضائعًا حتى تلك اللحظة، لأنه اتجه إلى ساحة وسط النُزل، فرش حصيرًا من السعف عليها، ونادى بصوت انفتحت له أبواب الغرف المغلقة:

- تعال ياسيف الكلب لو كنت رجلًا.

كان سيف القبيلة جبارًا في هدوئه، وأعلن بأنه يحترم سيدة المكان، ولن يؤذي أرض بيتها، بهزيمة أجرب، ستكون مباراة التحدي في الشارع ليشهدها المئات، ويتعهد بأن تكون نهاية لجبريل، لن ينهض بعدها أبدًا..

في اللحظة التالية خرج سيف القبيلة من النُزل، وخرجت أتبعه، ونهض جبريل الرحال وتبعنا صاغرًا، وكان عبد الرجال محمومًا ويرتجف، لكنه لم ينس أن يحضر إناء النحاس المستخدم طبلًا، وقبل أن يجلس

الغريمان على الأرض الوعرة الخالية من أي بساط، قال سيف القبيلة:

– سأعلن شرطي للتحدي.

– أعلنه. أنا أقبل به من الآن، وأمام كل الناس.

قال الكونت، ويحرك قبضته اليمنى يمينًا ويسارًا، كمن يلاعب غريمًا غير مرئي. وتمطى قليلًا فطار زران من أزرة القميص الضيق.

– تشهد يا عثمان؟

– نعم أشهد.

قلتها بلا تفكير، وأحسست بعد ذلك بالخوف، وأن الأمر قد يكون ورطة لا أستطيع الخروج منها، لكن لم يكن ثمة طريقة لأسحب قولي، كما هي عادة الرجال في تلك البلاد. الذي يسحب قوله، ليس رجلًا، ولكن امرأة.

– تشهد يا أخ؟ ما اسمك؟

أشار سيف القبيلة إلى رجل طويل، متأنق في نحو الأربعين، كان يقف بين الحشود التي تزايد عددها الآن، ملتصقًا بظهر أحد الصبيان، ولم أرتح له شخصيًا حين رأيته. كانت أشياء كثيرة قد تعطلت في الحي، غرف الماء من البئر، شراء الخضروات واللحم من المتجر الطيني الصغير، الجلوس على الدكك الطينية من أجل الثرثرة، ولعب الصبيان الذين كانوا يقيمون في ذلك اليوم، مباراة كرة قدم فاصلة بين فريقين متنافسين، بعد أن أتقنوا ما علمتهم من مبادئ اللعبة..

– طمبليت متعفر.

أجاب الرجل.

لم يبد على سيف القبيلة أن الاسم لفت نظره، أو أثار استغرابه، وكذلك لم يبد على وجوه المحتشدين القريبين من الرجل، أنهم فوجئوا باسمه، بعكسي أنا حين وجدته اسمًا غريبًا، اسمًا غير متداول، ولا سمعت به في خلال احتكاكي بالبلاد وأهلها في تلك الفترة التي قضيتها، كان

تفكيري جانبيًا بحتًا.. ماذا تعني طمبليت، ومتعفر. في الحقيقة لم تكن تعني شيئًا.

- تشهد يا طمبليت متعفر.
- أشهد

ابتسم الرجل، ولا حظت أن إحدى يديه ترتعش، ونظرة مجون خطرة، علقت بعينيه

لم يكن شرط سيف القبيلة كما تخيله جبريل الرحال، حين أعلن موافقته في ثقة قبل أن يسمعه، ولا أنا، حين شهدت. كان شرطًا في غاية المكر. حقيقة. كان شرطًا قذرًا:

- إن هزمتني أعود إلى البطانة، وآتيك بناقتي (أم الحجلة)، التي لا تقدر بسعر. وتفوز في كل السباقات التي تدخلها بلا أي جهد، وإن هزمتك، أحصل على زوجتك فردوسة.. تطلقها فورًا.

توقعت أن يحدث ذلك الشرط بكل قسوته تلك، رد فعل سلبيًا وسط أولئك الذين يشهدون هذا الحمق، وأعرف أن المجتمع برغم تخلفه، وابتذاله في أحيان كثيرة، إلا أن مجرد ذكر المرأة، أو إدخالها قسرًا في خصومات الرجال، أمر لا بد أن يحدث ثمة رد، لكن أحدًا لم يقل شيئًا.

كان جبريل الكونت الآن في قمة غليانه، ولا أظنه سيخمد حتى لو هزم سيف القبيلة، لو مزقه تمامًا، ولا شك مثلي يفكر وسط ذلك الغليان، كيف تعرف ذلك الأعرابي غريب الأطوار على اسم زوجته، وكان سرًا من أسرار غيرته أفلح في إخفائه زمنًا طويلاً، لم نسمعه يتردد في الباخرة النيلية، ولا في سفرالقافلة من وادي حلفا، الذي استغرق قرابة الشهرين، وحتى في تلك الأيام التي قضاها حبيسًا في نُزل مستكة قبل أن يطرد.

كان يغلي وتخرج الكلمات من حلقه متقطعة:

- زوجتي.. اسمها.. كيف؟.. زوجتي..

ويبدو سيف القبيلة هادئًا، منتشيًا في أناقته التي كان سيخطب بها

الغجرية، ومرت دورية من شرطة الخيالة الإنجليز على جيادهم العالية والسياط في أيديهم، لم يلفت انتباههم كل ذلك الهرج الذي يبدو أنهم تعودوا عليه، ولفته وجودي وسط أولئك الشعبيين، في مباراة للقوة، ويبدو أن ذلك الطقس لا يحظى باحترام كبير لدى الدولة، ولا يجب أن ينغرس في وسط أجنبي من المفترض أنه أرفع شأنًا.

ترجل أحدهم عن فرسه، اقترب مني، وتصنع ابتسامة.. قال:

- هل تحتاج إلى شيء يا سيدي؟
- لا.. أشكرك.

قلت وتوقعت أن ينصرف، لكن الشرطي الخيال، كان مترددًا، خاطبني مرة أخرى:

- هل تحاول أن تتسلى قليلًا يا سيدي؟
- نعم..

حك شاربه الكثيف، تلفت ناحية زملائه كأنه يحاول اصطياد عبارة مناسبة يوجهها إلي، التفت مرة أخرى:

- أوكي.. لكن خذ حذرك..لا نستطيع حماية الفضوليين في هذه الحالات. احم نفسك جيدًا.

ثم أمسك فجأة بأحد المتجمهرين، وكان صبيًا في حوالي السادسة أو السابعة عشرة، اسمه جوهر، كنت أعرفه، وكان من الصبيان الذين دربتهم على لعب الكرة وأجادوه، ألقاه على الأرض الوعرة، وبسوط جلد الثور الحاد الذي يحمله في يده، جلده عشر جلدات في ظهره، وقفز إلى فرسه ومضى، تاركًا الصبي يبكي، وثمة دمدمة غاضبة من أولئك المحتشدين، وشعورًا في غاية الكآبة لدي، الشعورالذي جعلني أتلفت في ذعر، وأبحث عن علامات الخطر التي أحفظها تمامًا من شدة ما رددتها لنفسي، لكن لا خطرًا في المكان، ولم يسع أحد للانتقام بذبحي أو على الأقل، إلقائي على الأرض وجلدي، كان لحظة غضب، مرت سريعًا، وعاد المتجمهرون

إلى انشدادهم، يتعجلون مباراة القوة التي من المفترض أن تجري الآن أمامهم.

- اجلس يا زوج فردوسة.. اجلس.

ابتدأ عبد الرجال برغم الحمى والقشعريرة، ينقر إناء النحاس، نقرات سريعة ذات إيقاع،، جلس سيف القبيلة على الأرض واضعًا قبضته اليمنى في وضع البداية، الكوع يلامس الأرض واليد في الهواء، ظهرت مستكة على باب بيتها لحظات واختفت، ردد الحاضرون صراخ سيف القبيلة.. يا زوج فردوسة، هيا.. اجلس. وأنا والشاهد الآخر، طمبليت، كنا في موضع حسد من الآخرين، لأننا اخترنا للشهادة في مثل تلك المباراة الكبيرة الحاشدة.

الذي حدث أن جبريل الرحال، لم يستجب، اهتز شموخه فجأة، واتجه وجهه ناحية الأرض، لقد اختار الخسارة الأخرى، الخسارة الأقسى، أن ينسحب راضيًا بلقب (امرأة)، الذي سيطلقه عليه كل من كان حاضرًا، ويمكن أن يتذكره ذات يوم، لو صادفه. اللقب الذي لن يفارقه طيلة حياته، بناء على قوانين القتال في تلك البلاد، منذ اليوم سيصبح جبريل الكونت اسمه المرأة، سيتبعه عدد من الرجال إلى حيث يسكن، وينادونه طوال الطريق: يا امرأة.. سينقلون اللقب إلى أهله وأقاربه، وعلى أولئك الأهل أن يقبلونه امرأة، أو يتخلون عن قرابته علنًا، حتى الزوجة في هذه الحالات يمكن أن تسأل، والأولاد البالغين يمكن أن يسألوا، وفي أغلب الأحيان لا ترضى المرأة، ان تكون زوجة لامرأة، ولا يرضى الأبناء أن يظلوا تحت رعاية امرأة، وفد عرفت بعد أن عشت أطول في تلك الأرض، وشهدت انكسارات مشابهة لانكسار جبريل، أن رجالًا كانوا يلحسون النار، ويأكلون الحصى، صاروا نساء حين انسحبوا من القتال، لذلك كان الرجال يظلون متمسكين برجولتهم حتى النهاية، الانهزام الذي يكسرهم معنويًا ولفترة قصيرة، أفضل ألف مرة من انسحاب

يكسرهم إلى الأبد. ولم تكن النساء تعتبرن ذلك الطقس مسيئًا، أو يقلل من شأنهن. تعتبرنه طقسًا عاديًّا موروثًا، مثله مثل طقوس كثيرة، عشن في وسطها، وتعودنها. وبعضهن من ذوات الشخصيات الضارية، ويوصفن بالمسترجلات، كن يشاركن في امتطاء الحمير، والطواف بها مع الرجال، في طقس الإخبار عن الرجل الذي انكسر. لقد أعلن جبريل انسحابه من صراع القوة، ويعرف تمامًا ما ينتظره، فضل أن يصبح ما سيصبح عليه، على أن يطلق زوجته لأعرابي ربما يهزمه كما هزمه من قبل، وفي محاولة أخيرة ليظل رجلًا في نظرالجميع، تمطى فجأة ومزق قميصه كاشفا عن عضلاته المتورمة، اصطنع ابتسامة لا تشبه شفتيه أبدًا، ولا تمت بصلة للموقف الذي وضع نفسه فيه، قال:

- كنا نمزح يا جماعة الخير.. ليس هناك خصومة بيني وبين سيف القبيلة.. كنا نمزح فقط، أليس كذلك يا عمدة؟.

كانت نظرة رجاء وجهها لسيف القبيلة الهادئ المنتشي.

لحظتها تمنيت لو أن سيف القبيلة أيد كلامه، لو قال إن الأمر مجرد مزاح بين صديقين لا منافسة على ناقة وامرأة مسكينة من صعيد مصر، شاء قدرها أن تكون عروسًا لواحد مثل جبريل، ومحورًا لا مبرر له في صراع غبي. تمنيت لو قالها، وكادت أمنيتي تتحقق حين شاهدت شفتي صاحبي تنفرجان، لكن انغلقتا بسرعة قبل أن يخرج أي حرف.

ذهب جبريل عبد الغني الرحال، الكونت السابق، وجبريل المرأة حاليًا، يتخبط في الطريق، مشى قليلًا ثم بدأ يركض فارًا من صياح الناس خلفه، ونسبة لأنه غير معروف في هذه الناحية، ولم يأتها إلا لقضاء شهرالعسل، ثم لمنازلة سيف القبيلة، كان يأمل كما يبدو أن يفر ولا يلحق به صياح أو أحد،وكان واهمًا لو فكر بذلك التفكير، فقد انطلق العشرات خلفه، وانطلق قبلهم عشرات يطوفون على أحياء المدينة كلها، راكبين حميرهم، ليعلنوا للناس أن ثمة رجل انسحب من القتال، وعليهم

أن يعاملونه كامرأة.

لم أكن في مزاج مضبوط حين انتهى كل شيء وعاد الطريق أمام النُزل، مجرد طريق عادي، بلا إضافات، النساء حملن قدور الماء، متجهات إلى البئر، الصبيان عادوا للحاق بما تبقى من الضوء ليعلبوا مباراة كرة القدم المؤجلة، والرجال عادوا إلى دكك الطين لبدء الثرثة، التي في الغالب ستكون ثرثرة استثنائية، ينبشون فيها انكسار جبريل الكونت، ويرسمون له مستقبلًا مسكينًا، تحت لقبه الجديد.

أكثر ما أحبطني أن الشاهد الآخر المتأنق، طمبليت، لم يذهب في حاله كما ذهب الآخرون، اقترب مني، وضع يده على كتفي بطريقة سوقية، وقال مبتسمًا وألمح أسنانًا أكلها التنباك:

- ضاعت اللعبة بسببك أيها الحمريطي.. لست شاهداً مناسبًا لمبارياتنا، حتى لو كان اسمك عثمان... لكن بالمناسبة أنت جميل الوجه.

كانت المرة الثانية التي أسمع فيها بكلمة الحمريطي، وقد سمعتها أول مرة، حين نطقها سيف القبيلة في بيت العجوز سكر، وعرفت ماذا تعني بعد ذلك، والمرة الأولى التي يتحرش بي فيها أحد بصفة خاصة، وكان تحرش جبريل بي في بيت مستكة، تحرشًا جماعيًا لم يفرق بيني وبين كل من كان موجودًا في ذلك اليوم، ظلت يد الرجل تعض على كتفي، وأمسك بها محاولًا نزعها، وأراه يضغط أكثر ويحاول الالتصاق بي من الخلف، في حركة قذرة وأنفاسه متلاحقة، وأصيح في سيف القبيلة الذي لم يكن منتبهًا لما يجري، وحين انتبه كان الرجل قد أفلتني، وانطلق يعدو.

لقد كان ذلك الرجل هو طمبليت الضائع كما يسمونه، وعرفت تلك المعلومات بعد أن تحريت عنه بعد ذلك، وكان مشهورًا في العاصمة بشذوذه، وأنه من القلة التي أصيبت بذلك المرض، يتأنق ويتصعلك في الطرق باحثًا عن طريدة، ربما يعثر عليها، خاصة حين يكون ثمة زحام

تحتشد فيه الأجساد، مثل الأسواق ومواسم الأعياد، وحتى الليالي الذاكرة التي يقيمها المتصوفة. هو مثل جون القصير، لكن بطريقة عكسية، وبعد ثلاثة أشهر تقريبًا من ذلك اليوم، كما أذكر، عثر عليه مذبوحًا، وملقيًا في أحد الخيران، وقد جزت خصائص رجولته، ولم تهتد الشرطة المستنفرة إلى قاتله أبدًا، تناقل الناس تلك الحادثة في تشف، وكان التعليق السائد آنذاك، هو أن الضائع قد نال جزاءه.

لم يكن سيف القبيلة من المرغوب فيهم، في نُزل مستكة في ذلك اليوم، وكان ينوي قضاء عدة أيام فيه، لقربه من سوق الشمس حيث يستطيع أن يتسلى ببيع الإبل وشرائها، قبل أن يبدأ رحلته القادمة إلى مصر. أولاً كونه كان طرفًا في صراع غير مجد، أجج الطريق أمام النُزل، وأزعج طالبي الراحة بصياح الرجرجة، وثانيًا لأن مستكة توقعت وبناء على خبرتها في الحياة، أن يعود عشرات الذين شهدوا بدايات الصراع، يتجمهرون أمام بيتها، ليطالبوا الأعرابي بأن يلاعبهم وديّا بغرض التسلية، وربما لو كان جبريل من إحدى القبائل النافذة، أن لا تتقبل قبيلته مسألة انكساره تلك، وتحوله معنويًا لامرأة، ويأتي وفد رفيع المستوى من تلك القبيلة، ليضغط الأعرابي من أجل تحويل الصراع الجدي إلى مزحة، ومن ثم يسترد جبريل حياته، وهو أمر يحدث، ومن الممكن جدًا أن يؤدي إلى نتيجة.

وضحت مستكة كل ذلك، وضحته بغلظة لا تشبه جمالها، ولا رونقها، ورأسها مربوط بخرقة ضاغطة على صداع الرأس، ويدها تمسك بكوب الحرجل المر، وأحس بالأسى أننا أفسدنا لوحة جميلة، حين خربشنا على ألوانها بفرشاة فوضوية. قدمت اعتذاري للسيدة الأسطورة، ولم تكن تحمل ضدي أي حقد، وأكدت لي بالرغم من إعيائها، إن مقعدي في أعياد الخميس، سيظل موجودًا، طالما كنت مرابطًا في البلاد، وقد حاول سيف القبيلة بدوره أن يعتذر، واصفًا تلك الفوضى التي حدثت، بشرارة

الحسم التي أطفأت فوران قاطع طريق، ذكرها بتلك العبارة نفسها التي أطلقتها في حق جبريل، حين أفزع ضيوفها، وهزمهم بلا ضرورة، وكانت تعرف ذلك جيدًا، فقط لم تكن تحب أن تندلع الشرارة في بيتها أو بالقرب منه. قالت لسيف القبيلة: قبلت اعتذارك يا عمدة، لكن ليس لدي غرفة شاغرة في الوقت الحالي، لا غرفة الزاجل ولا غيرها، وعليك أن تتدبر الإقامة في أي نُزل آخر. كان طردًا مغلفًا فهمته، وفهمه صاحبي، ولم يكن تدبير الأمور صعبًا، حيث يوجد بيتي، وسأصطحب سيف القبيلة إليه، وما أزال حزينًا على كل ماجرى.

في اليوم التالي وقبيل المساء، سمعت طرقًا خفيفًا على باب بيتي فجأة، وكنا أنا وصديقي نسترخي على سريرين من الحبال في حوش البيت، وقد أعدت لنا المملوكة المسنة رقيون، عشاء جيدًا من فطير القمح المعجون في اللبن، بعد أن قضينا النهار بطوله مرابطين في سوق الشمس، حيث اشترى سيف القبيلة عدة جمال من الأصائل يملكها أعراب من بادية البطاحين، أحضروها من موطنهم بغرض البيع، وباعها في آخر النهار بسعر يرتفع قليلًا عن سعرها، لنفس الأعراب الذين اشتراها منهم، بعد أن أقنعهم بمميزات فيها، لا يعرفونها، وعارضته بشدة، لكنه لم يستمع إلى معارضتي، عد نقود البيع جيدًا، وضمها إلى تلك المربوطة في جرابه تحت الثوب، وأدخلني قسرًا في مزاد للأغنام، يضم تيسًا متهيجًا، وخروفين وست نعاج، وربحت من تلك الصفقة مبلغًا ليس بالقليل، وابتهجت في أول تجربة لي، لدرجة أنني نسيت تعاطفي مع أعراب البطاحين، وتعاطفي الأعظم مع الكونت جبريل الذي لا أعرف ماذا يحدث له الآن، وبأي روح يعيش، وفكرت أن أسلك درب التجارة في الأيام التي لا أذهب فيها لمشروع السكة الحديد، وقد فهمت الآن، كيف يمكن للأجنبي أن يعيش بعدة مهن في هذه البلاد الغريبة، وأوشكت أن أغفر للحكومة تهاونها، ولا مبالاتها تجاه شاغلي المهن المتعددة.

فتحت الباب، لأفاجأ بأشخاص لم أتوقع أبدًا حضورهم إلى بيتي. كانوا رجل الطريقة الصوفية، صاحب الشأن مولانا، وخمسة من أتباعه يرتدون الثوب الأخضر المرقع، والطاقية الحمراء ذات الثقوب، ويعلقون مسابح اللالوب على صدورهم، ميزت من بينهم الساكت، الشيخ المدجج بعلم روحاني يجبره على الصمت، وعدم الأكل والشرب، ورافقنا من مصر، حتى اختفى في أحد الشوارع، قبل أن تصل القافلة إلى خط النهاية. فوجئت بتلك الزيارة التي أربكتني قليلًا، وأربكت سيف القبيلة جدًا باعتباره مواطنًا ومسلمًا، من حق الرجال الذين يسيطرون على الجانب الديني، والتعليمي في بلاده أن يربكوه، وهو يشاهدهم يدخلون، يمدون له أيديهم، ويتخذون أماكنهم على أسرة الحبال في حوش البيت.. دعوناهم لمشاركتنا عشاء الفطير واللبن، فرحبوا بابتسامات بينت أسنانهم النقية من كل اتساخ، وجاءت رقيون بالمزيد منه في أقداح متعددة، كنت أراقب أكلهم، وكان غريبًا، يأكلون لقمة، يتبعونها بالماء، ويتوقفون ليمدوا أيديهم إلى مسابحهم، يحركون حباتها وأسمع كلمة الحمد لله، تتكرر من أفواههم باستمرار.. فقط لم أستطع تخمين السبب من زيارتهم بدقة، فكرت في احتمال أنها زيارة دعوية لهداية نصراني مثلي، بعد أن سمعوا عن تعاطفي مع عمال السكة الحديد، ومعاملتهم برفق، فكرت أنهم ربما كانوا مارين بالحي، وطرقوا باب بيتي بلا هدف محدد، ولم يخطر ببالي أبدًا أنهم، هم الوفد الذي تشكل في ذلك اليوم بإلحاح من عائلة جبريل الرحال، وجاءوا خلف سيف القبيلة لا خلفي.

- الحمد لله على النعمة.

رددوا بعد أن فرغت أقداح الطعام ودارت حبات المسابح بين الأصابع، دورات عدة، وتنحنحوا، واستلم صاحب الشأن دفة الأمسية، كان يقول:

-نحن نقدر شهامتك يا عمدة سيف القبيلة، نعرف أنك لم تكن البادئ

بالخصومـة، والبـادئ معـروف منذ فجر التاريـخ، بأنه الأظلم، لكن جبريـل منـا وفينـا، أهلـه صاحبيـون شـأنيون ومـن خلصائنـا، وهذا الدرويش المنكفئ على نفســه، يسـبح الله بكرة وعشـية، هو خاله الشـيخ سـوار الذهب الرحال الذي ما نام شـبعانًا قط، ولا قام من نومه إلا وسبحان الله على لسانه.

كان قد أشار إلى أحد الرجال الستة، وكان طويلًا عريضًا، ذا لون داكن، وشارب أبيض، ولحية مصبوغة بالحناء، كانت ذقنه مغروسة في صدره، ويده اليمني تجري على حبات المسبحة بسرعة غير عادية. لم أفهم كثيرًا مما قيل، والواضح أنه مفتتح البداية لحديث سيطول في أمر جبريل الرحال.

واصل الشيخ حديثه:

– جئنا عارضين تفاهتنا وصغر قاماتنا أمام مقامك يا عمدة، نريدك أن تنتصر بأخلاقك لا بأخلاق جبريل، والولد نادم، حملنا مسؤولية أن نعيد إليه حياته، ولا نريد جزاءًا ولا شـكورًا..قل ما عندك يا شـيخ سوار.

كان الشيخ سوار الذهب الرحال، خال الكونت، ما زال منكفئًا وحبات المسبحة، تجري بين أصابعه، وخلته قد غفا أو في غيبوبة بعيدة، لكني سمعت صوته يخرج من تحت الصدر وكان صوتًا رقيقًا جدًا ورقراقًا، لا يشبه طوله وعرضه:

– نادم.. نادم.. ضال.. ضال..

عند ذلك جاء دور الأعرابي صاحب القول الفصل، ليبدي رأيه، وأعرف سلفًا أنه لن يخزل واحدًا مثل الشيخ مولانا، ولن يخزل الأتباع المرقعين، الذين قدموا بهذا الشكل..

كان مشايخ الطرق الصوفية في تلك الأيام ذوي سطوة غير اعتيادية، ولهم نفس سطوة أساقفة الكنيسة في بلادنا، صحيح أنهم محكومين

كباقي الشعب، مستعمرين كباقي الشعب، لكنهم حكومة ظل جبارة، توجه العقول كيف تشاء، بخلاف رجال الذين التقليديين الذين تعلموا في الأزهر، في مصر، وعادوا بأفكار صلدة وفتاوي معقدة، أبعدت عنهم الناس، وحولتهم أنفسهم إلى أهداف تطاردها الحكومة المستعمرة.

لم يبد لي سيف القبيلة مشغولًا في البحث عن حل، ارتباكه الأول حين رأى المتصوفة، زال بسرعة فائقة، وكان يجلس صامتًا، متسخًا بثيابه العادية، بعد أن استبدل ثياب الخطوبة الراقية، وعاد راعي إبل من أرض البطانة، لم يوجه لي صاحب الشأن أي ملاحظة ولا استمالني لأشارك في حديث يجري في بيتي، ولم أتذمر، اعتبرت الأمر شأنًا محليًا بحتًا لا ينبغي أن يخوض فيه من لا يفهمه. الشيء الوحيد الذي كنت متأكدًا منه، أن هؤلاء الصوفيين، لن يخرجوا من بيتي صفر اليدين.

- كلمتك يا عمدة، تريح عباد الله الفقراء.. حي..قيوم.. حي..قيوم.

رددها الشيخ صاحب الشأن، ممتلئة وشبيهة بجسده الممتلئ، وارتج المكان بأصوات خمسة آخرين:حي قيوم.. حي.. قيوم، وهز الساكت يديه الإثنتين مشاركًا بهما، وارتعب سيف القبيلة فجأة. غمغم بصوت خافت لكنه مسموع:

- خذوا كلمتي يا أسياد..واحملوها إلى كل الأحياء في المدينة، وإلى أهل جبريل وزوجته، أنا وصديقي جبريل الرحال، كنا نمزح، وليست بيننا خصومة.. أبدًا.. كنا نمزح وعثمان يشهد على ذلك.. تشهد يا عثمان؟

رددت بلا أي تفكير:

- أشهد.

ابتسم المتصوفون، وقفوا على أقدامهم، وتبادلوا يد الأعرابي، قبلوها، وهو يحاول سحبها، وهمس الشيخ صاحب الشأن في أذني:

- هل أنت مسلم؟

قلت: لا..

لم يضف سؤالًا آخر، وكنت أتوقع أن يسألني: إذن كيف اسمك عثمان؟

حين خرج الرجال الظافرون من بيتي، كان الظلام قد غطى الدنيا في ليلة شبيهة بليلة العتمة التي طاردت فيها شرفية، ودعتهم حتى باب البيت، واستغربت أنهم كانوا بلا مطايا، ولا فوانيس ولا حتى عصي تدافع عنهم من كلاب الليل وضواريه.

على أن موافقة سيف القبيلة تلك، وإعادته جبريل إلى الحياة مرة أخرى، كانت أعظم غلطة يرتكبها في حياته، لأن الأمر لم ينته عند ذلك الحد.

حين عدت إلى داخل البيت، كان سيف القبيلة غير راض، لكن لا مجال لعدم الرضا بعد أن أعطى موافقته بتحويل الخصومة إلى مزحة، لرجال مهمين في عرف أهل البلاد، ويحظون بمعاملة خاصة من الحكام الأجانب، بوصفهم يملكون وصفات التهدئة المطلوبة، حين يغضب الشعب. كان حزينًا وقد خمد نشاطه فجأة، وارتخت عيناه وأخبرني بأنه لم يُعِد رجلًا حول معنويًا إلى امرأة، من قبل أبدًا، بالرغم من أنه كان يستطيع. شخصيًا كنت فرحًا، ليس من أجل جبريل، بل من أجل سقوط ذلك التقليد السخيف، حتى لو كان سقوطه هذه المرة فقط... قلت له فجأة:

- قل لي.. كيف عرفت اسم الزوجة؟

رد بصوت باهت:

- هل ركبت القافلة في وادي حلفا بلا اسم؟. أين ذكاء الحماريط يا عثمان.

- 18 -

سوق الدواب

شرفية فتاة الجن ما عادت فتاة الجن. مستقبلها غير المؤكد الذي وصفه الرحالة وليام بارتليت في تلك الجمل الساخرة، ما عاد كذلك، ونسبها المجهول، يوشك أن يعلن عن نفسه في واحدة من ليالي خميس مستكة المختلفة في كل شيء.

أكثر من شهر، قضيناه معًا أنا وسيف القبيلة الذي أجل رحلته إلى مصر من أجلي، ننام في وقت متأخر، وبعد أن تنام الدنيا كلها، بفعل الثرثرة التي تتفاقم بعد أن يمتلىء الأعرابي بعدة كؤوس من العرق، تجلبها المملوكة رقيون من أحد البيوت المتخصصة في صناعة الخمر المحلي، برغم اعتراضي، ولم أكن قد تذوقت خمرًا منذ هبطت في بر الإسكندرية قط.. نستيقظ مبكرًا برغم ذلك، نذهب إلى سوق الشمس البعيد من بيتي، أنا على جوادي الحكومي، وصديقي على جواد أقل فخامة، استعاره من تاجر حبوب يعرفه، ولم يكن تأجير الجياد عملًا شائعًا مثل تأجير الحمير الرخيصة. بمجرد وصولنا إلى السوق، يقتحم الأعرابي المتمرس، المكان المخصص لبيع الأغنام والإبل، يشتري ويبيع، ويشتري ويبيع عشرات المرات، ويدخلني مرة أو مرتين في أحد المزادات الخفيفة، وغالبًا ما أخرج بشيء من المال.

لم أذهب إلى مشروع السكة الحديد في تلك الأيام، إلا مرتين أو ثلاث فقط، تطلعت في السكة التي بدأت معالمها تتضح بجلاء، ناديت عمالًا منشغلين في الحفر، سألتهم عن أشياء تافهة، وآخرين كسولين،

أغريتهم بمكافآت إضافية، إن هم تركوا الثرثرة في الظل، وانتبهوا إلى العمل، ولم استخدم لا حلقي ولا سوط جلد البقر، في قهر أحد. لم أذهب إلى امتداد الخط في الضواحي أبدًا، وكان يوجد بين العمال المحليين، رجل في أواسط العمر، اسمه (عطبرة)، له جسد نخلة، ومواصفات قائد، ويجيد شيئًا من اللغة الإنجليزية التي تعلمها من تردده على أسرة بريطانية، كانت تقيم في البلاد، عينته بعد موافقة الأسكتلندي جيرمان قرنفل، رئيس عمال متنقلًا بين العاصمة والضواحي، اشتريت له حمارًا من راتبي، وجعلته يتنقل على طول الخط في رحلات تستغرق أيامًا في بعض الأحيان، ليزودني بتفاصيل ما يحدث، وكان سعيدًا، وبلغت به السعادة مداها، حين كاد أن ينسلخ عن جلده الوطني، يتحول إلى مستعمر، اقتنى سوطًا حادًا لم يكن من المفترض أن يقتنيه، استخدمه في جلد عدة عمال، شاهدهم يرضعون الحليب مباشرة من ثدي شاة عثروا عليها تتخبط في مكان عملهم، واضطررت حين وصلتني الشكوى، أن أحد من نزعته الخطيرة، بأن خصمت من راتبه يومًا كاملًا، فما عاد يحلم بصفات المستعمرين مرة أخرى.

كنا منغرسين يومًا في أحد المزادات المزدحمة، وكان على شحنة كبيرة من خراف الأضحية، وفدت من الأقاليم، وتكالب عليها سماسرة البيع، كل يحاول أن يظفر بها كاملة، ليبيعها أفرادًا بعد ذلك، وبسعر أغلى كثيرًا من سعرها الحقيقي المربح، وبذل سيف القبيلة مجهودًا خارقًا لدى مسؤولي المزاد، حتى يدخلني مزايدًا، وتوجد فتوى غير معلنة، تحرم مزايدات النصارى على خراف الأضحية، ويعمل بها في السوق من دون التأكد من مصدرها، ويبدو أن سلطات البلدية المشرفة على الأسواق، والتي يمثلها أجانب، تحترمها، حرصًا على بقاء الأمور هادئة.

كنت أرتدي الثوب والعمامة وحذاء جلد الماعز، ولولا حمرة اللون التي تزيد الشمس من حدتها، ولكنة اللسان التي لا تختفي مهما أجاد

الشخص من تعلم لغة جديدة، لما كنت مختلفًا كثيرًا عن أولئك الرعاة المسيطرين على المكان، وتفوح من جلودهم روائح الدواب نفسها. سمعت صوتًا مألوفًا يردد ورائي، كلما اقترحت سعرًا، يرفعه أكثر مما ينبغي، وانتبهت إلى أن غريمي كان جبريل الرحال، ولا أعرف من أين جاء، ولا كيف استرد عافيته المعنوية بهذه السرعة، وعاد رجلًا، وأيضًا أدهشني انحشاره في سوق الماشية، وأعرف أنه يعمل في تجارة الماء في أحد الأحياء البعيدة، حيث يمتلك عدة آبار، غير خاضعة للحكومة، حفرها بنفسه، وسورها بالحجر، وجعل لها قفلًا، واستخدم التراب والطين الذي استخرجه من الحفر، أثقالًا تدرب على حملها، حتى صارت له تلك القوة الغريبة، ولديه عمال ينقلون الماء على ظهور الحمير، لبيعه لأهل الجوار. إنها معلومات عرفتها منه شخصيًا، حين التقيته في الباخرة النيلية، ساعة السفر، ونسيتها أيام شراسته وعراكه الضال، وأتذكرها الآن وأنا شبه خاسر في صفقة كان يجب أن أكسبها بجهود سيف القبيلة.

انتبه التجار الذين استجابوا لرجاء سيف القبيلة من قبل، وكانوا يعرفونه، بأن يزايدوا برفق، ويجعلونني أكسب في ذلك اليوم، إلى الرجل الذي انحشر في المزاد، بعد أن دفع رسوم المزايدة، ولم يكن من الوجوه المألوفة لديهم، لكن لم تكن ثمة حيلة، ولا كان سيف القبيلة نفسه يملك سلطة أن يوقفه أو يمنع تلك البيعة أن ترسى عليه، هي محاولة قام بها، وكانت محاولة يائسة:

- هذه البيعة من حق عثمان.. اخرج من المزاد يا جبريل.

صاح سيف القبيلة بتوتر، وضد قوانين السوق، فقد كشف سر البيعة، وتواطوء التجار، علنًا، وحدثت همهمات مستنكرة وسط أولئك الذين يتابعون.

جبريل، لم يستجب ولم يخرج من المزاد الذي رسي عليه أخيرًا، وكانت صفقة رهيبة، اغتنى فيها فجأة، وضاع الكثير من مدخراتي،

وأوشكت على البكاء.

لا أدري حقيقة السبب الذي يجعل واحدًا انكسر علنًا أمام الناس، ولقب امرأة حسب التقاليد المتبعة، وسحب منه اللقب بعد أن كذب سيف القبيلة تحت ضغط انبهاره وتوتره في وجود الصوفيين، يعود إلى ساحة الشر من جديد، متحديًا رجلًا أماته معنويًا مرتين، وأحياه، لم يكن ذلك من المنطق أبدًا، كأن من نافسنا في المزاد وهزمنا، ليس الرحال، ليس الرجل الذي ينبغي أن لا يظهر على العلن، أشهرًا أو حتى سنوات. من حسن حظه أن لا أحدًا عرفه في سوق البهائم، وحتى الذين ربما عرفوه، تغيرت رؤيتهم حين ذهب شيوخ التصوف إلى كل الأحياء، حاملين التعديلات الجديدة لسيرته.

لم أر سيف القبيلة يحمل خنجرًا من قبل، لا في السفر ولا في النُزل ولا حين عاد من موطنه تلك العودة الأخيرة. وذلك السوط الذي يحمله في يده، هو زينة ليس إلا.. زينة العمد والمشايخ والتجار الكبار، والذين مثلي، يحاولون التقرب من البيئة التي اختاروها موطنًا.

سمعت الصراخ فجأة، وشاهدت سيف القبيلة، وفي يده خنجر لامع النصل، التقطه من جيب أحد الواقفين، يركض باتجاه جبريل الرحال، يلقيه على الأرض، ويغرس الخنجر في مكان ما في جسده القوي. كان ثمة هرج كبير دب في سوق الماشية فجأة، ثمة بكاء ونواح نسائي، وقطعان من الماشية تفر مبتعدة، وكنت وعشرة آخرين نتكالب على الأعرابي، وهو في أقصى تشنجه. ننتزعه من فوق خصمه بصعوبة، كان خنجره متجهًا إلى عنق غريمه، وكان يلهث وقد غدا سيفًا آخر غير سيف القبيلة الذي أعرفه، وصاحبته زمانًا.

لم يمت جبريل الكونت في تلك المعركة، ولم يتأذ بدرجة كبيرة، هي جروح غير غائرة بفضل جسده المفتول الذي منع النصل من الغوص أعمق، كان يصرخ في هيستريا، يتحسس الدم بأصابعه المرتجفة، ويصرخ..

لكن سيف القبيلة الآن شبه ضائع، وفي الوقت الذي حُمل فيه جبريل إلي حيث سيعالج، لا أدري في مستوصف طبي، أو عند عطار مثل فضلي الدباغ، كان سيف القبيلة يعتقل بواسطة خمسة جنود إنجليز من المرابطين في السوق، وتخصصوا في جلد المحليين. لم يهتموا بكونه تاجر إبل كبير، أو عمدة ذي كلمة مسموعة في موطنه، جلدوه على ظهره وسط صياحي، ومحاولتي حمايته، واقتادوه إلى السجن الكبير الذي شاهدناه معًا، يوم قدمت إلى العاصمة لأول مرة.

كل شيء انتهى الآن، اعتبرت صفقة خراف الأضحية من حق جبريل، وستحفظ له في إحدى الزرائب الخاصة بسلطة البلدية، حتى يأتي لاستلامها، وما زال ثمة وقت، قبل أن يحل عيد الأضحى. عاد البيع والشراء إلى وضعه، وتسحبت من السوق وأنا في غاية الحزن، كانت محاولة اغتيال جبريل من أجلي، وسأعتبرها محاولة نبيلة برغم معارضتي للقتل ومحاولاته. وساعتها تمنيت لو لو لم أفتح لصاحب الشأن ودراويشه، باب بيتي حتى يبهروا مواطنًا، يجعلوه يغير وقائع ما كان يجب أن تتغير. لو لم يحدث ذلك، لكان جبريل بلا شر، يقبع متواريًا في أحد البيوت، أو ربما تعاظم عليه الأمر، وقتل نفسه، زوج فردوسة الشرير، ترى كيف حال فردوسة؟، وفي أي درجة من درجات القهر، تسكن الآن؟. أكيد أنها في سجن غير عادي، ومعزولة حتى عن تنشق الهواء.

حين وصلت إلى نُزل مستكة أخيرًا، أبحث عن عون من تلك الأنثى النافذة، اكتشفت أنني نسيت جوادي في السوق، وعدت مرة أخرى لآخذه، عثرت على صبية متشردين، يرمونه بالحجارة، في تحد صبياني، من سيصيب عينه أولًا، ولا أحد من الرجال الموجودين يمنعهم. هذه من مساوئ أن تكون أجنبيًا في بلد لا حق لك في العيش فيه، أو حتى امتطاء دوابه، ولن يضير أولئك الرجال أن يموت جوادي ما دام ليس من جيادهم. فر الصبية حين لمحوني أتخبط، مسحت على ظهر الجواد

مواسيًا، امتطيته، وعدت مرة أخرى إلى النُزل.

استقبلتني مستكة بلا أي ضيق. على العكس كانت منشرحة، ومكتملة بكل إضافاتها الضرورية، وغير الضرورية، وأخبرتني همسًا، إن الثري العربي الذي يهوى الصيد، ويؤجر الغرفة الذهبية مدى الحياة، قد جاء فجأة صباح اليوم، وإنه الآن في فترة قيلولة، وقد ذهب عبد الرجال لإخبار معاونيه المحليين، حتى يجهزوا القافلة الصغيرة التي ستنطلق في رحلة صيد جديدة. أضافت إن الغرفة كانت في حالة مزرية بعد أن تركها جبريل، وقد أعادت طلاءها بالطين، وزخرفتها من جديد، ونقلت إليها لوحة الجنوبي الصياد التي أهداها إليها الرحالة بارتليت مؤقتًا، حتي تمنحها إشعاعًا جديدًا. لم أفهم سر سعادتها الكبيرة تلك، وفكرت أن ذلك الثري الذي لم تنطق اسمه أبدًا، لا بد سخيًا، ويأتيها بالهدايا، خاصة أنه من زبائنها القدامى، وكان يستأجر غرفة أيضًا في نُزلها القديم، قبل أن تنتقل إلى وسط العاصمة، وأخذت رغمًا عني أطالع وجهها ورقبتها ويديها، بحثًا عن سلسل ذهبي أو خاتم أو أسورة، وكان كل ذلك موجودًا، حتى قبل أن يحضر الرجل.

- 19 -

الأسطورة وفرخ الأسطورة

استعاد سيف القبيلة حريته أخيرًا، وبعد أكثر من عشر ليال قضاها سجينًا وسط الجرب والوسخ، وفتات المجتمع، كما قال حين كنت بجانبه، وأستقبله أمام باب السجن بعد أن علمت بموعد خروجه، وبدا لي نحيفًا وجائعًا، ومنكسرًا بعض الشيء، ورفع قميصه المبتل بالعرق، فجأة لأشاهد آثار السياط الجديدة التي عربدت في ظهر معتاد على طقوس الجلد، لكن بإرادته وكامل وعيه وهيبته. لقد بكى سيف القبيلة، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها الرجل القوي، حار القلب كما وصف نفسه حين هزم جبريل في نُزل مستكة، يبكي، لكنه تمالك نفسه، مسح الدمع بكمه المتسخ، وأطلق صرخة تعجب، في اللحظة التي شاهدت فيها امرأة بيضاء بلباس أسود، وطوق يتدلى من أنفها، تحمل سلة مغطاة، وتركض ناحيتنا. كانت تصيح:

- الحمد لله على السلامة يا عمدة.

وسيف القبيلة، يسلمها يده، فلا تحتضنها ولكن تقبلها.

كانت تلك هي سواتر الغجرية، المرأة المهاجرة من أرض الشام، وتعمل في بيع قصب السكر، والفول المطحون المسمى(الدكوة) في مهبط قوافل الوسط، الذاهبة إلى أرض البطانة، وأماكن أخرى عديدة على امتداد أرض السودان، وكان سيف القبيلة قد تأنق علي غير العادة، ونوى خطبتها في اليوم الذي أفسده جبريل الرحال. لقد فشل مشروع سواتر بكل تأكيد، وأظن أن النزوة نفسها، قد فترت في جسد سيف القبيلة، والآن تأتي

الغجرية باحثة عنه، بعد أن علمت من كثيرين شهدوا معركة سوق البهائم، أن رجلها المنشود، موجود في السجن. توقعت أن الأعرابي لن يهضم مجيئها، وسيسعى جاهدًا للتخلص منها، وكنت مخطئًا، فقد استعاد لون وجهه فجأة، همس في أذني أن أذهب إلى أي مكان يروقني، ولا أحضر للبيت قبل المغيب. لقد فهمت، وساءني أن تنقلب الرغبة في الزواج المشروع، إلى لعنة، وتمنيت أن لا تقبل الغجرية.

لم تكن في الحقيقة أي يد لمستكة، في مسألة الإفراج عن سيف القبيلة، وقد أخبرتني في ذلك اليوم الذي طلبت فيه عونها، وصادف أن حضر الثري العربي، إنها صاحبة بيت للضيافة فقط، تعرف الكثيرين، ويعرفها الكثيرون، تحتفظ بود للكثيرين، ويحتفظ الكثيرون بود لها، إلا أنها لا تطلب خدمة من أحد، وأضافت إن جبريل برغم جلافته وشره، وإنها كرهته من أول مرة رأته فيها يجرجر امرأة بائسة، إلا أنه لم يكن يحمل خنجرًا. قلت لها مقاطعًا، إن سيف القبيلة لا يحمل خنجرًا أيضًا، وذلك الذي استخدمه لم يكن ملكه، وكانت لحظة غضب أعمى، فرددت ساخرة:

- تطلقون صفة العمى على الغضب وتنسـون أن الأعمى يسـتطيع أن يتلمس طريقه، حتى وهو أعمى.

لا أدري لم لم تعجبني طريقتها في ذلك اليوم، ولم أرد أن أعتبرها متحيزة ضد صديقي، وهي تعرفه منذ سنوات، تركتها وينتابني تجاهها شعور من عدم الرضا.

في اليوم التالي ومنذ الصباح الباكر، قصدت جيرمان قرنفل في مكتبه، ولم أكن قد زرته منذ تلك المرة التي استلمت فيها مخصصات وظيفتي، أي خمسة أو ستة أشهر تقريبًا، وأذهب في كل شهر، أستلم مرتبي من قسم الحسابات الذي يديره مصري قبطي اسمه فران، ناعم الوجه ودقيق جدًا في رصد الأرقام، لا يفلت منه قرش. لا أفكر في زيارة

قرنفل، وألتقيه في أعياد مستكة التي أذهب إليها بصفة شبه دائمة ولا أغيب إلا نادرًا، حيث أستمتع برؤية علامات الاندهاش على وجوه الذين يلاحظون التغير التدريجي الذي يزداد في كل مرة، على شرفية فتاة الجن. ولا يجرؤ أحدهم على التعليق.

عثرت على القوز، مغني الربابة الليلي، والساعي النهاري في مكتب جيرمان، وجاءني بقدح من الشاي المخلوط بالنعناع، أيضًا وجدت السويسري دونان غريسر، تاجر الساعات، جالسًا، وكان رجلًا أقرب للتماثيل في صمته، لم أسمع صوته إلا نادرًا، ولم ينطق بكلمة طوال جلوسي بجانبه في مكتب جيرمان.

حدثت المسؤول بورطة سيف القبيلة، وكان يعرفه، فأبدى رغبة في مساعدته لدى الجهات المختصة، وإنه سيبذل أقصى جهد في حقه، وأحسست بأنه مجرد كلام يخرج من طرف اللسان، لكن لم يكن هناك خيار آخر. سألني عرضًا باللغة الإنجليزية، وهو يتأمل ساعة فاخرة من ماركة بياجيه، موضوعة في المسافة بينه وبين تاجر الساعات:

- هل توصلتم إلى حل مع تركواز؟

لم أعرف بماذا أجيب، ولم أفهم بتاتًا ما قاله. من تركواز هذا؟.. رجل أم امرأة؟ أم حي من الأحياء سيعبره خط السكة الحديد، وقفز إلى ذهني حل مؤقت سأكذب به، وأستعلم عن المسألة فيما بعد من عطبرة، رئيس العمال الذي يؤدي مهامي، ويحاول أن يتمدد بها. قلت:

- حتى الآن لا يا سيدي، لكننا في الطريق إلى حل.

أسرعت بالإنصراف، قبل أن أسأل عن نوع الحل المطروح، وإمكانية أن يجدي أو لا يجدي، وداهمت عطبرة في موقع العمل داخل العاصمة، لأكتشف أن تركواز هذا، مجنون تركي عجوز لا يعرف أحد من أين جاء، يقيم منذ سنوات طويلة في عشة من الصفيح، بجوار أحد أماكن الحفريات، ويأبى أن يغادرها، ويهدد العمال بشيهم أحياء إن اقتربوا من

قصره كما سماه، وشوهد في كثير من الأحيان يتمشى عاريًا في المكان، أو يتبول واقفًا على قضبان الحديد. لم أكن أعلم بأمره ولا انتبهت إلى عشته تلك من قبل، ولم يخبرني عطبرة بالأمر أبدًا، لأن المشكلة قديمة كما قال، ابتدأت من قبل أن أتوظف، وظن بأنها لا تخصني، وكان بالطبع غباء من رجل وظفته لمساعدتي، لا لتوريطي. الحل الذي اتخذته فورًا، وبلا أي تأخير، بعد أن تم اقتيادي إلى العشة، هو أن أمرت بأن يقتلع المجنون عنوة من مكانه، تنشأ له عشة أخرى في مكان غير حيوي، ورفعت سوطي عاليًا، جلدت به الهواء أمامه عدة مرات، فانقاد إلى سواعد العمال، بلا مشاكل.

جاء خميس مستكة، وسيف القبيلة في السجن ما يزال، ومحاولات إخراجه تجري من عدة جهات، بعد أن سمع صاحب الشأن مولانا بالأمر، ولم يتعاطف مع جبريل هذه المرة، حتى بعد أن شاهده جريحًا، تضمد جراحه في بيت أحد المعالجين الشعبيين. أحس بشيء من وخز الضمير كما يبدو حين ساهم في إعادة حياة الرجال إلى رجل رزيل، ليكرر الغدر مرة أخرى، وأخبرني في زيارة سريعة إلى بيتي، لم تتعد عتبة الباب، بأنه سيسعى إلى إخراجه، وقد وفى بوعده فيما بعد، خلافًا لمسؤولي قرنفل الذي نسي الأمر بمجرد خروجي من مكتبه في ذلك اليوم، الذي انخطفت فيه عيناه، ببريق ساعة بياجيه.

كان هذا هو الخميس الذي أنتظره منذ مدة، ولا أريد أن تختل أي ثانية من ثواني ليله، بأي حال من الأحوال، الخميس الذي سأفاجئ فيه مستكة وزوار حفلها الأسبوعي، بالفتاة الجديدة شرفية، قبل أن أعلن خطبتي منها، وقد بت أحبها حقيقة، علمتها معنى الحب، ومبادلتي العواطف، نقلت لها سرًا، أحد أسرة الحبال من بيتي لترقد عليه، علمتها أن تعتاد على الأكل النظيف، وآتيها بالأكل في كل ليلة لمدة أشهر بلا كلل، ولدرجة أنها لم تعد تمص الليمون، إلا نادرًا، وفي لحظات حنين

خاطفة إلى الماضي الذي خرجت منه، ما تلبث أن تختفي. كنت نزيها جدًا، لم أستغل تحررها من قيدها القديم، وأشتهيها بلا رباط شرعي، على العكس كنت أعدها طيلة هذه الشهور لتكون زوجة. ستكون فقرتي هي الأولى في حفل مستكة، ولن تكون شبيهة بفقرة المعمر عسكر المتخيلة عن أحداث لن يؤكد أحد صحتها أبدًا، لأن لا أحد غيره، قد عاش مئة وخمسين عامًا.

كانت مصادفة غريبة أن عسكر قد مات في تلك الأيام، مات في وسط الحكاية، وهو يتوسل لمولاه صابر أن يلغي عقوبة شنقه في إحدى الغابات، واكتشف مستمعوه المتجمهرون في السوق أمام دكته الطينية، إنه كان ميتًا حتى قبل أن تبدأ الحكاية، وإن ما سمعوه، كان تخيلاً بحتًا، اخترعته آذانهم التي استمعت إلى تلك الأساطير، آلاف المرات، وأصبحت قادرة على سماعها، وهي لم ترو حقيقة. وكانت جنازته كما أخبرني عبد الرجال الذي شارك فيها بعد جهد بذله في إقناع مستكة لتسمح له بالمشاركة، واحدة من الجنازات النادرة، كانوا يوارونه في الأرض، ويستمعون بوضوح إلى صوته يروي بلا انقطاع.

جئت إلى نُزل مستكة مبكرًا، وجاء الآخرون المعتادون كلهم، وجاءت شرفية المعدلة بريشتي وريشة إليانور هاينريش، وريشات أخرى، استعرتها من ثقافتي القديمة، ومعرفتي بفنون الجمال، ولونت بها وجهها وعينيها.. لم يتعرف عليها أحد حقيقة، فيما خيل إلى أن مستكة عرفتها، وكانت محايدة جدًا في إظهار دهشتها، أظهرتها بطريقة، بدت لي أنها لا دهشة، ولكن إعجابًا. جلست شرفية الجديدة، على المقعد الذي اعتادت أن تجلس عليه شرفية القديمة، لم تمص الليمون، ومدت يدها إلى ما يمد إليه الناس أيديهم من الطعام، وبلا مقدمات، استلمت أنا الفقرة الخالية بغياب عسكر، بدأت أحكي، وكانت فقرتي غير ترفيهية بالمرة، حولت المكان إلى مستودع أسى، لم يفرغ من آهاته حتى أوشك الليل

أن يتوارى.. كيف؟... لماذا؟... شكرًا...هل هذا معقول؟، ومع انتهاء ما يمكن أن أسميه إبهارًا كبيرًا ونادرًا، وغير متوقع بالمرة، ابتدأت ألسنة الحاضرين، تجر ما عندها من ذكريات، كل يحكي انطباع الرعب القديم، الغير منطقي، ماذا سمع وماذا قال؟، وكيف أنه صدق أو لم يصدق وتصنع الصدق.. شرفية نفسها تحدثت، وكان حديث شخص أفاق من غيبوبة، وحقيقة لم تكن غيبوبة سهلة.. غيبوبة مستقبل بلا أمل. أتذكر وليام بارتليت الآن، أتمنى لو كان حاضرًا في ذلك الخميس، وتحدث عن فتاة رائعة الجمال، وأنيقة جدًا، وتملك مستقبلًا برفقة مغامر، تغيرت حياته فجأة، بعد ليلة تافهة في ملهى بعيد. الآن أنظر إلى شرفية وإلى مستكة معًا.. كلاهما أسطورة، نفس الوجه الناعم النظيف، نفس طول الرقبة، واتساع العينين، نفس اللفتة المغرية بتتبعها ورسمها، وتدريسها للراغبات في أن يدخلن مسابقات الجمال، كأن مستكة صغرت فجأة، لتصبح شرفية، أو كأن شرفية كبرت، لتصبح مستكة..وأيضًا لا دخل لمحاضرات مستر ويلارد في معرفة المرأة الملثمة التي كانت تأتي بالحليب، لطفلة ولدتها من أب غير معروف، ألقتها في الخرائب، ونسبتها للجن، لا لشيء سوى أن تتمدد، وتصبح امرأة ذات ظلال من دون أمومة قد تعيقها، في بلاد جاءتها فارة من خطب ما، وسوي أن انتبه الآخرون أو لم ينتبهوا إلى ما اكتشفته، والحقيقة إن ذلك الاكتشاف بدأ يلح علي منذ مدة، وأثناء محاولات التعديل المكثفة، لتحويل الجنية إلى إنس، فإن ذلك غير مهم الآن، لن أصارح مستكة بأي شيء. حتى تصارحني هي، ولن أسأل عن أب محتمل، وكل رجل أسمر، عرفته حين جاءت من بلاد البربر، مرشح لأن يكون أبًا لشرفية، حتى الثري العربي الذي يبهجها قدومه بشدة. المملوك عبد الرجال، مرشح أيضًا، ومرشح قوي. أخذت أتلفت باحثًا عن عبد الرجال لأقتنص ملامحه، وأضمها لملامح مستكة، وألبس شرفية الملامح كلها، ولم يكن يخدم في تلك الليلة، كان ما يزال مريضًا بالحمى، ويرقد

في بيت الخدم، استأذنت عدة دقائق، تفقدت فيها الوجه الداكن لعبد الرجال وعدت، وكانت النتيجة مخيبة، لم تكن في وجه شرفية ذرة من ملامحه. وكما قلت فإن الأمر غير مهم بالمرة، ويمكن أن تنسب الفتاة لأي اسم في بلاد ليس فيها تسجيلًا دقيقًا، ولا يحمل أحد شهادة موثقة بأنه فلان ابن فلان، هي شهادات شفوية تستخلص من زعماء القبائل، ورؤساء العشائر، والسكان القدامى في الأحياء الذين يعرفون حتى نسب الطين والحصى، وأي ديك لقح تلك الدجاجة، ومن أي تيس ولدت تلك العنزة.

خلاصة عيد الخميس عند مستكة:

شرفية لن تعود إلى خرائبها، تتخبط في الليل، حاملة فانوسًا متأرجحًا، لتبيت وسط البؤس وتعاويذ الجن التي اخترعتها حماية لحياتها، لقد مُنحت مؤقتًا غرفة في نُزل مستكة، وكانت للمصادفة، هي غرفة الزاجل التي منحت لي بمشاركة سيف القبيلة، ثم أقمت فيها بعد ذلك وحدي شهورًا، وحلمت فيها بالفتاة أحلامًا نظيفة، وأخرى في غاية الاتساخ، وسوى أن كان ذلك علنًا نابعًا من الحقيقة التي عرفتها، أو يجيء في شكل تعاطف، يبتعد عن الحقيقة، فإن مستكة ستلعب دور الأم التي تعيد التأهيل لفتاة ضائعة.

فاير هاينريش تطوع بتعديل صورتي أمام زوجته إليانور التي تعتبرني صعلوكًا، ولم تكن تصحبه إلى بيت مستكة، نوعًا من التزمت الغريب، وحثها على تفصيل ثياب جديدة، بأحدث الموضات، تبرعًا منه في مسألة إعادة التأهيل. قال: أحدث الموضات ونظر إلى شرفية وضحك، وكان بلا شك يتذكر ما كانت تردده الفتاة، بأن كلمة موضة عبارة يطلقها الخياطون الرديئون ويصدقونها. تاجر الساعات السويسري غريسر، لم يقل شيئًا، وجيرمان قرنفل بدا متعاونًا إلى أقصي حد، حين عرض أن يمنح شرفية ركنًا بجوار مشروع السكة الحديد، تستغله في أي شيء، وكان عرضًا

حماسيًا بلا أي معنى.

كنت أفكر بطريقة أخرى، أفكر في زواج محتمل، وأفكر في صاحب الشأن مولانا، الرجل الذي سأزوره قريبًا من أجل رغبة مؤجلة، وقد غدت الآن ملحة جدًا. نعم لقد قررت أن أدخل دين الإسلام على يديه بعد دراسة متعمقة لذلك الدين، لم أقرأها في الكتب، ولكن في وجوه معتنقيه، وليس نابعًا من مصلحة مثل الزواج من شرفية مثلًا، لأن الفتاة نفسها كانت لا تعرف أي دين ولدت عليه، وإن كانت كل الدلائل تشير إلى ولادتها مسلمة. كان ذلك القرار حكيمًا هذه المرة، فقط شبيه بالقرار غير الحكيم الذي ساقني إلى هذا المصير، وما توقعت أبدًا أن أصبح ما أصبحت عليه، في يوم من الأيام.

حين غادرت بيت مستكة تلك الليلة، وغادر الآخرون أيضًا، كان الفجر على وشك أن يبزغ، مررت بقرب المسجد الطيني، وكان مضاء بالفوانيس وصوت في غاية الخشوع يردد:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

لم أفهم جيدًا، لكني ارتعدت، وكانت رعدتي عظيمة، أوشكت أن تلقيني عن ظهر الجواد.توقفت قليلًا أمام المسجد, لا أستطيع الدخول، ومر العشرات بقربي، ذاهبين إلى الصلاة، وأسمع تسبيحًا خافتًا يصدر من ألسنتهم، وابتعدت، وأحس بإحساس غير عادي.

- 20 -

الرعشة

لم يكن عبد الرجال زافو معروضًا للبيع حين اشتريته، ولم يكن سيعرض من قبل مستكة مادام ما يزال يقف على قدميه، يحمل أمتعة القادمين والمغادرين، وأجولة التموين التي لا ينقطع حملها، يجلب الماء من البئر، ويكسر الحطب، ويوقد النار، ويعمل بكفاءة في حفلات مستكة الأسبوعية، وبرغم شقاوته وتمرده أحيانًا، وتوقه للحرية، أعتبره وتعتبره مستكة، أكثر الخدم رزانة في بيتها الشهير. كان ذلك بإلحاح منه، إلحاح وصل إلى تقبيل الرأس واليد، والبكاء بصوت مؤلم مس قلبي واستعطفه.

كانت قد مضت عدة شهور منذ أن استيقظت شرفية من غيبوبتها الطويلة، وقد اشتهرت في المدينة لدى العامة، بوصفها واحدة من بنات الجن اللائي حسن الجن مظهرهن، وأطلقهن مؤخرًا من أجل إغواء البشر، وتوجد كثيرات مثلها منتشرات في المدينة والضواحي. لم يصدق إلا القليلون بأن ذلك لا يمكن أن يحدث، وأن تلك الجنية المزعومة، كانت في الواقع فتاة بلا مستقبل، وتدخل عثمان الإنجليزي في اللحظة المناسبة، ليمنحها المستقبل الجديد. حتى عبد الرجال زافو، لم يصدق، وكنت أظنها من نطفته، خدم مستكة الآخرون ما زالوا يرتبكون حين رؤيتها، وتقدم لها العرجاء دنيا، وجباتها من خلف باب نصف مفتوح في غرفة الزاجل، وهي ترتعد. وفي أحد الأيام اصطحبتها في جولة تسوق لأول مرة. كنا على أقدامنا، فلم تعرف حتى الآن كيف تركب المطايا، وأبت بشدة أن تحاول، وكانت مشيتها سريعة جدًا، قطعت أنفاسي. وأكاد

أركض حتى ألحق بخطواتها، وفكرت أنها ما زالت بحاجة إلى تدريب. حقيقة تعلمت الكثير ولا ينقصها سوى بعض الرتوش. أقول أن الأمر لم يكن سهلًا بالنسبة لي، فلا شيء في السوق قد تغير، المتسوقون ما زالوا يفسحون الطريق بسرعة حين تمر، باعة الخضر، ينادونها لتمص الليمون وهم مبتسمي الوجوه، ونساء باهتات لا يشبهنها في شيء، يهمسن وأقرأ الهمس بشعوري: فتاة الجن نفسها بعد أن عدلها الجن وأرسلها من جديد. كان الأمر بحاجة إلى أشهر طويلة أو حتى سنوات، لتختفي الأسطورة الخرقاء تلك، وتحل محلها أسطورة نظيفة، كما قال لي سيف القبيلة قبل أن يرحل إلى مصر خلف تجارته، متناسيًا أمر جبريل الرحال الذي أدخله السجن وكاد أن يوقفه على حبل المشنقة. ومن حسن حظي أن سيف القبيلة برغم ولادته في البادية، ونشأته فيها، إلا أن السفر قد أكسبه الحنكة، ومن ثم تفاعل مع المنطق بلا تردد، وكان يعرف شرفية من قبل، رآها عدة مرات، ولم تلفت نظره، لا باعتبارها أنثى جن أو أنثى بشر.

انتظرت طويلًا أن تأتي مستكة بلا ضغط مني لتتحدث، تكشف ما أعرفه ولا يعرفه غيري، حتى الفتاة نفسها، لكن مستكة لم تأت قط، الأم البديلة كان هو الدور الذي تلعبه بإتقان. أم في أي وقت، في الليل والنهار، وساعة الحزن والفرح، واضطررت في أحد الأيام إلى مكاشفتها، وكانت ردة فعل توقعتها، وبالرغم من ذلك، سعيت لأسمعها بأذني حتى أغلق ذلك الملف المفتوح، بأي نهاية تجيء.. نهاية الخير أو نهاية الشر، لا فرق، وقد اقترب موعد زواجي من شرفية، وأخاف أن أعلنه صراحة، فأتهم بتعاطي الجن. قالت بالحرف الواحد اليابس إلى أقصى حد، إنني تعديت حدودي كغريب عن البلاد، لا يعرف تقاليدها، وكوني أنقذت الفتاة الضائعة من ضياعها، لا يعني إلصاقها في امرأة محترمة تزوجت بهدوء وطلقت بهدوء، ولم ترزق بزرية من أحد، قالت: إن شرفية تقيم في بيتها مجانًا، برغم توتر الخدم وعدم رضائهم، لأنها تحب عمل الخير،

وإن كان عمل الخير هذا سيستخدم من أجل تلويث السمعة، فعلي أن آخذ فتاتي وأرحل، أو أعيدها إلى خرائبها وحياتها القديمة مرة أخرى، فهي لم تطلب من أحد إنقاذها.

التقطت خرقة من المقعد الذي بجانبها، لفت بها رأسها كما تفعل حين يداهمها الصداع، صرخت: يا دنيا.

وجاءت خادمتها العرجاء مسرعة، تحمل كوبًا به شراب الحرجل.

هذا الحديث المر، هو بالضبط ما توقعته، وما أكد لي بما لا يدع مجالًا لأي شك، إن مستكة ليست آثمة في كونها حملت بلا زواج فقط، وإنما إضاعتها لعشرين عامًا من عمر فتاة، كان يجب أن تكون الآن متفتحة أكثر، ومتطلعة للرقي، لا إلى الحياة العادية..أحسست أنها ستطردني لو نطقت بحرف جديد، وتركتها وقد ساء ما بيني وبينها، تمامًا مثلما قاطعها سيف القبيلة، ولم يعد اسمها يذكر في وجوده إلا اغتم. صرت أتسلل خفية للنُزل لملاقاة شرفية، أو ألتقيها في الطريق ونمشي معًا، هي تخب في ما تتصوره المشي العادي، وأنا أخب لألحق بها، ونلفت النظر كثيرًا.. نعم دائمًا ما كنا نلفت النظر. وفي اليوم الذي أخذتها لتواجه إليانور هاينريش، وتجرب القمصان الجديدة التي تبرع بها الزوج الخياط، ولم تكن إليانور قد شاهدتها من قبل، وخاطت لها بناء على القياسات التي زودتها بها، حين أخذت إليها حراير الدباغ، حدث أمر حيرني.. شاهدت الخياطة العجوز ترتجف للحظات وينضح منها العرق، وقد امتدت يدها المرتعشة، تلامس الصليب المدلى على صدرها، تتمسك بالصليب بقوة، ثم تعود إلى هدوئها وتمسح عرقها بقصاصة من القماش، سألتها عما حدث، وإن كانت مريضة، ولم يكن زوجها موجودًا في تلك الساعة، فلم تجب، سلمت الفتاة فساتينها، وأرشدتها إلى ركن مغطى بقماش ساتر من أجل التجربة، ولم ترفع عينها تطالعني أبدًا.

حيرني أمر مسز هاينريش، أخذت أفكر في مئة احتمال يمكن

أن يحدث لديها كل ذلك الخوف، لم تكن من أهل البلاد المؤمنين بالخرافات ولا رأت شرفية حين كانت مشردة متهمة بأنها من الجن، ولم يكن سوانا في محل الخياطة. لم أعثر على جواب، وقررت أن أسأل فاير هاينريش حين أراه، وأكيد أنه يعرف من سلوك زوجته، ما يجعله يخمن السبب الذي جعلها ترتعد في ذلك اليوم، وسألته بالفعل حين التقيته بعد ذلك بعدة أيام، فقال وابتسامة موطنه القاسية، تصبغ شفتيه:

- لا عليك من إليانور..نسيت أن أخبرك أنها مصابة أيضًا بالوسواس، بجانب تيبس المفاصل وجفاف الحلق، وتظن أحيانًا أنها ترى أشباحًا وعفاريت من حولها.

هضمت ابتسامته برغم جفافها، لكن حديثه أزعجني بعض الشيء، ثم ما لبثت أن نسيته في غمرة انشغالي.

تلك الأثناء أيضًا، تلقيت رسالة من صديقي رامي القرص بيتر مادوك، وصلتني برغم رداءة خدمات البريد، ولم يكتب في مغلفها عنوان واضح، فقد كتب بيتر بالإنجليزية: العزيز جلبرت آوسمان.. أرض السودان.. يجده بخير. ولا شيء آخر.

فضضت الرسالة في توتر، وجدتها تحمل أخبارًا أعتبرها عادية، بل أقل من العادية. لقد تزوجت أختى من خطيبها السباح المحترف، انتقلت إلى بيت آخر، وفي سبيلها لإنجاب طفل. والدي بخير، ما يزال يداوم على متجر الورد بانتظام، ولم تضطرب حياته بعد أن اضطر للحياة وحده، هو بيتر نفسه تزوج من صحفية زميلة من أصل هندي، تعمل في قسم الفنون، بنفس الصحيفة التي يعمل بها، وأصدقاؤنا الآخرون، تفرقوا ولم يعد يلتقيهم إلا نادرًا. لم يذكر شيئًا عن هارولد سامس الخبَّاز، الذي كنت متشوقًا لمعرفة أخباره، ولا سألني إن كنت مستقرًا في أرض السودان أم لدي نية في العودة؟. طويت الرسالة وفي نيتي أن أكتب له، أوضح ببساطة شديدة، أنني صرت من أهل تلك البلاد، وفي سبيلي لاعتناق ديانة جديدة،

والزواج من فتاة لا يحلم عزاب لندن كلهم بالزواج من مثلها.

في نفس توقيت وصول الرسالة، وكنت في إحدى جولاتي في مكان العمل، فوجئت بزيارة مسؤولي الأسكتلندي جيرمان قرنفل، في الحقيقة لم تفاجئني الزيارة بقدر ما فاجأني كتاب أزرق يحمله في يده، وعلى غلافه الخلفي رسم لوجه أعرفه وشاهدته من قبل، استأذنته في تصفح الكتاب وكانت مفاجأة غريبة. كان اسمه: قدر الحولاء، لكاتبة اسمها دوريس مورجان، وكانت صديقتي التي قضيت معها واحدة من آخر وأجمل ليالي الضياع في لندن. لقد هجرتها لا لأني قصدت ذلك الهجر، بل لأنها صادفتني وأنا راحل، ولا تعرف بذلك. منحتني ما يمنح للعشاق الدائمين الذين يمنحون المستقبل، ولو كانت تدري، ربما لم تكن لتصافحني حتى، وأنا ألتقيها في معرض التشوهات، عند الرسام الفرنسي ديسوا.

كان جيرمان في الصفحات الأخيرة من الكتاب كما دلت ثنية الصفحة وأخبرني إنه كتاب جدير بالقراءة لكاتبة مشردة، صدر حديثا وأرسل له من لندن، تركته بعد إلحاح مني، يكمله جالسًا تحت ظل شجرة واستعرته منه بعد ذلك وركضت بين صفحاته في ليلة لم أنم فيها، وتورمت عيناي من ضوء الفانوس الشحيح الذي أقرأ عليه. كنت موجودًا في الكتاب، موجودًا بشدة، صفحات عدة خصصت لي، وكنت في نظر الراوية الحولاء، سخيفًا وغادرًا ولا أستحق الاحترام، لم أبك ولم أبتئس كثيرًا، وحين أعدت لجيرمان كتابه في اليوم التالي، وسألني عن رأيي، قلت له بلا وعي: إنه لم يعجبني أبدًا.

كانت مستكة مستغربة جدًا، حين قصدت صالتها حيث تجلس، وطلبت التحدث إليها، ظنتني تركت محادثتها من يوم أن كنستني بجلافة، وظنت أنها أغلقت موضوع شرفية في الشق الذي يخصها، شق الإتهام الذي رددته، قالت:

- رجـاء.. لا تخرجنـي عـن طوري يا عثمان، ولا تسـألني مجددًا عن موضوع شرفية.. فقد انتهيت منه.
- موضوع آخر يا مستكة لا علاقة له بالفتاة.

قلت وأنا أنظر إلى وجهها، أتأمل سخط الملامح الجميل. كانت مستكة فذة في رونقها حتى وهي في قمة الهياج، وفي نفس الوقت لم أنس أن أستدع وجه شرفية كما هي عادتي في الأشهر الأخيرة بعد أن حللت اللغز، أقارنه بوجهها للمرة العشرين، كان الوجهان شبه متطابقين.

- أي موضوع آخر.. لا أفهم؟

دخلت إلى لب الحديث بلا مقدمات.

قلت لها صراحة بأن المملوك عبد الرجال زافو، تفانى في الخدمة لديها، أكثر من عشرين عامًا، وتعب لدرجة أنه ما عاد يقدر على كر أسنانه، من دون أن تؤلمه. وقد أخبرني أن ركبتاه صارتا تنثنيان بعد عدة خطوات من المشي، وظهره تيبس، وعيناه تبصران الهرة، وتظنانها جرذًا، وأشياء أخرى عديدة.

- ماكر.

قالت وعلى وجهها الذي غدا سلسًا فجأة، ابتسامة.

- لا ليس ماكرًا.. أعرف أنه يقول الحقيقة.
- وماذا تريدني أن أفعل؟. أمسـد له قدميه وظهره؟..أطرقع له أصابع يديه؟.. أجهز له غرفة في النُزل حتى يستريح، وأخدمه؟.أم أشتري له خادمًا؟..ماذا أفعل له؟

تسخر، وسخريتها أيضًا طاعمة. وجهها المتفرد في صياغته، يجرني على تجاوز السخرية، أقول:

- لا.. تعرضينـه للبيـع، وتحددين سـعره. أنـا اشـتريه بالسـعر الـذي يرضيك.

لقد بوغتت بلا شك، وقراءة رد فعل المباغتة سهل في أي وجه،

حتى لو كان يملك مغريات عديدة، تشتت الذهن مثل وجهها.. اصفر لونها وارتجفت عيناها:

- هل جننت يا عثمان؟.. كيف تطلب مني أن أبيعك عبد الرجال زافو؟.. ثم ما دام عاجزًا، وكئيبًا إلى هذا الحد، لماذا تريد شراءه؟

لن أقول لها بأن الرجل الذي عددت مساوئه أمامها، وأوشكت أن ألغيه تمامًا، من سلك الخدم، قد يفيدني في شيء إذا اشتريته، لأن ذلك ضد المنطق. فكرت لثانية فقط وقررت أن أكون صريحًا معها إلى أقصى حد. أحيانًا تجدي الصراحة، وآمل أن تجدي الآن. قلت:

- أريد أن أعتقه.. أمنحه الحرية.

لم يبد أن المرأة الحرة، أو الأسطورة، كما أطلق عليها عشاق جيلها، وأؤكد أن ذلك اللقب، ما يزال صالحًا حتى الآن لم يفسد بفعل السنوات، قد فوجئت بصراحتي، لم تكن معاني الحرية، من ضمن مقررات حياتها العامة أو الخاصة، لتدرسها جيدًا، ولا كانت من مقررات كثيرين غيرها، ولدوا أحرارًا من دون أن يفهموا، كيف حدث ذلك، وكيف لم يحدث لغيرهم من الذين ولدوا مستعبدين؟. بالطبع سمعت مُستكة عشرات المرات تنادي عبد الرجال من أجل طلب ما، تنطق اسمه بلا أي نفور ولا إحساس بأنه اسم فاشل، لا ينبغي أن يشب به رجل حتى يتجاوز الخامسة والخمسين، وعبد الرجال نفسه لم يتآلف مع اسمه فقط، لكنه أبى بشدة حين قلت له في أحد الأيام، وأنا نصراني، بأن العبودية لخالق الكون وحده، وليست للرجال الذين هم أيضًا مخلوقين مثله، ويجب أن يغير ذلك الاسم إلى عبد الله مثلًا. تمنيت أن يفهم ما أعني، وأعتقد أن هذه من أبجديات الدين الإسلامي الذي اكتشفت بأن معظم الذي قابلتهم، ويعتنقونه، لا يعرفون عنه شيئًا.

أطرقت مستكة برأسها وقتًا أطول مما ينبغي، ثم واجهتني أخيرًا، كانت تتحدث بأسى ظاهر:

- لم أفكر في مسألة الحرية تلك يا عثمان، ولم يخبرني أي مملوك اشتريته من قبل، أو بعته، أو استبدلته بنعجة، أنني قاسية وأستعبده.. هذا ما أفهمه عن الخدم.. تناديهم فيأتون سريعًا، تأمرهم أن يحملوا الجبال على ظهورهم، فيحملوها، تجلدهم بالسياط، فينحنون أكثر. وما علينا سوى إطعامهم وكسوتهم، وتدبير فراش يبيتون عليه، هل كنت مخطئة؟

لقد أصبت وترًا غافيًا في شعور الأسطورة، والآن قد انحرف حديث البيع والشراء ليتخذ مسحة إنسانية. أنا سعيد أن مستكة قد بدأت تفهم. ما دامت تتساءل، فهي في طريقها إلى الفهم. ليست مسألة خطأ ارتكبته حين اشترت خدمًا ووظفتهم، أو باعت خدمًا ليوظفهم غيرها، هي سارت على نهج المكان الذي تعيش وتستثمر فيه. أنا نفسي اشتريت رقيون العجوز، ووظفتها، لأن لا سبيل لأستأجر خدماتها من دون شراء. الخطأ في إحساسها بأولئك الخدم، هل تعرف رغباتهم، هل تعرف بم يحلمون ولا يحلمون؟ وهل فكرت كيف كانوا سيعيشون، لو لم يولدوا هكذا؟..

أضافت فجأة قبل أن تسمع ردي:

- أنا موافقة. فقط اصبر قليلًا حتى أشتري خادمًا بديلاً، بالرغم من أن ذلك سيربك خططي كلها.

لم أفهم ما هي خططها، ولعله شيء يتعلق بالمال، ومملوك مثل عبد الرجال زافو، لن يأتي بثمن خادم جديد، مهما غالت في سعره. يمكنني أن أصبر قليلًا، ويمكن لعبد الرجال أن يصبر أكثر من ذلك القليل، فقد صبر خمسة وخمسين عامًا.

خرجت من عد مستكة راضيًا وأخب بجوادي إلى سوق الشمس، ولم أنس أن أطرق باب شرفية، أكلمها قليلًا عن المستقبل، وتستقبلني زاهية وقد أجادت تلميع وجهها وزركشته، واستخدام زيت جوز الهند الغالي، في تسريح شعرها الذي طال وعانق الكتفين، وكنت اشتريه لها

من محل في سوق الرواكيب تخصص في بيعه، ولا ترتاده سوى النساء المقتدرات، ومستكة منهن بالطبع. أخبرتني أنها ترغب في طفل، وكان الطفل موجودًا بداخلي، فقط شهر أو شهران آخران وأغرسه، سنتزوج أنا وشرفية قريبًا.

لقد علمني سيف القبيلة، من أين تؤكل الكتف في سوق الشمس، وأزعم أنني أجدت أكلها، لم أعد منغرسًا في سوق الدواب والأغنام فقط، ولكن امتد نشاطي إلى سلع تجارية أخرى، مثل وسائد القطن، والحراير المستوردة التي أشتريها من تجار القوافل مباشرة، وأبيعها بعد ذلك بسعر أغلى وأوشكت أن أصبح مثل فضلي الدباغ، فقط لم يكن لي علم بالتطبيب، وتوليد النساء. تجولت سريعًا في سوق الشمس، ولم يكن ثمة مزاد مهم في ذلك اليوم، وخرجت وقد خطر لي أن أذهب إلى سوق الرواكيب، أشتري أسورة ذهب رقيقة من آل تبيدي، أهديها لشرفية، بالرغم من أنها لا تحب ارتداء الذهب كما أخبرتني من قبل، سأشتريها بدافع رغبتي في شراء شيء لها، ولا يهم إن ارتدتها أو لم تفعل.

كان سوق الرواكيب كعادته ملتهبًا بالنشاط، وقد لاحظت وجود العديد من الناس، يتحلقون حول الدكة التي كان يشغلها المعمر عسكر، وتنطلق منها حكاياته الأسطورية، ونفس الرجل الهندي الذي كان يحصل النقود، مرابط الآن أيضًا، ويسعى إلى اقتناص المتزاحمين بنفس منهجه القديم. إذن ثمة راوية أو مستثمر تخاريف جديد، قد حل، وتملكني الفضول لرؤيته وسماع شيء من أساطيره، اقتنصني الهندي محصل النقود وأنا اقترب، سلمته مليمًا، واندسست وسط الحشد. كان الراوية الجديد الذي يباشر العمل لأول مرة في هذا اليوم، وهو الحفيد الأكبر لكايتا فلابيل عسكر، كما عرفت من مستمع وقفت بجواره، مخيبًا للآمال بشدة. كان في حوالي السبعين، بصيرًا وعينيه كبيرتين، تريان دبيب النمل، ويحركهما في الوجوه كمن يبحث عن وجه معين، وكانت روايته عن صابر، مولى

جده المتوفي، باهتة جدًا ليس لأنها كاذبة، ولكن لأنها مقتبسة بحكم سنه الصغير. باختصار شديد، كان بلا غموض، ولا هالة مبهرة. بدأت أنسحب، وعشرات غيري ينسحبون، مطالبين بملاليمهم التي دفعوها بلا استمتاع، ويصيح بعضهم في غضب: كيف يأتي طفل حديث السن ليتحدث عن ملك جبار مثل صابر؟.. لقد هانت الزلابية، حتى تأكلها الكلاب.. إنه مثل شائع في أرض السودان، سمعت به كثيرًا، واستفسرت عن معناه، و عرفت أنه يطلق استخفافًا بشخص نال أكثر من حقه. وكانت الزلابية الوارد ذكرها، أقراصًا من عجينة القمح المحمصة في الزيت، والتي ترش بقليل من السكر، بعد أن تنضج، وتعتبر أكلة متميزة، لا يستحقها كل من هب ودب، وبالتالي وجدت طريقها إلى ذلك المثل الشهير.

ضحكت بعمق، نعم. الحفيد السبعيني، سيكون بلا شك، طفلًا، إذا ما قورن بجده الذي مات، وقد تجاوز المئة والخمسين.

فجأة شاهدت جبريل الرحال يجرجر عروسه فردوسة، في أول ظهور لها منذ أشهر طويلة، بعد أن خرجت باكية من نُزل مستكة. كانت بنفس ثيابها التاريخية التي شاهدتها عليها في الباخرة النيلية، وطوال سفر القافلة من وادي حلفا، وبيت مستكة. القميص الوردي الطويل الذي يغطي حتى الظفر، غطاء الرأس الأخضر، وصندلًا من جلد رخيص شائع الاستعمال في مصر. هدأت من مشي الجواد قليلًا، وظللت أراقبهما من بعيد، دخلا محل فضلي الدباغ للأقمشة، وخرجا بعد عشر دقائق تقريبًا، بلا قماش، دخلا محل تبيدي لصياغة الذهب وخرجا بلا غنيمة، توقفا عن باعة اللحم القليليين في ذلك السوق، واشترى جبريل عظامًا بلا لحم، من تلك التي يستخدمها المحليون الفقراء في صنع المرق، أو الطبخ لإعطاء نكهة للطعام. تلك اللحظة بالذات، شاهدت السجينة تتمرد، شاهدتها تفلت يد السجان فجأة، تنتزع حذاء الجلد القاسي عن قدميها، وتركض في السوق، وجبريل يسقط العظام عن يده، ويركض خلفها،

وعشرات المتسوقين، يسقطون أشياءهم ويركضون خلفهما، وتلك كانت عادة متأصلة في البلاد. أن يركض الناس بلا معنى ولا أي سؤال، حين يشاهدون شخصًا يركض. أخيرًا تعثرت المرأة، وسقطت على وجهها، سقط جبريل فوقها، والراكضون الآخرون، تساقطوا بجوار الزوجين، وهم يلهثون. نهض جبريل من سقطته، أنهض زوجته بعنف، رفع يده اليمنى وهوى بها على خدها، في صفعة آلمتني شخصيًا، كأنها سقطت على خدي. ثم زفر وتمطى، فتساقطت أزرة قميصه، وابتعد الناس بلا أي كلمة. أمسك الزوجة من يدها، جرها مرة أخرى وابتعد بها خارج السوق.

لكزت جوادي خارجًا أنا الآخر، لم يعد لي مزاج في شراء الذهب.

- 21 -

عثمان زمزمي

اسمي الآن عثمان زمزمي.

الاسم الأول هو المرادف العربي لاسم عائلتي.. أوسمان، والثاني على اسم ذلك البئر الحجازي المبارك الذي شرب منه الأنبياء و الرسل، وغسلت به الأدران، وتغسل إلى يومنا هذا، اخترته بعناية من بين عدة أسماء أخرى موحية، عرضت علي، من بينها أسماء أنبياء، ومتصوفة وتجار معروفين، وأسماء أخرى عادية توجد في كل بلاد العرب، ويمكن أن يحملها أي شخص.

شرفية الحافية بلا نسب، اعتبرت مسلمة لأن لا دليل بأنها غير ذلك، بالرغم من أنها لا تعرف شيئًا كثيرًا عن الدين، فلم يكن من ضمن مقررات تشردها وخرائبها القديمة،وفرار الناس من سيرتها، خلَّف بقعة مظلمة في الروح، لم تعترض، على العكس كانت منتشية، وتحلم بمستقبل وارف تحت ظلي وظل الدين الذي سيظلنا معًا. أُختير لها اسم أب يناسب حياتها الجديدة، وكنت أنا من اختاره في لحظة أحسست فيها بأنني مسؤول حتى عن تنفسها، بصفتي من انتزعها من الغيبوبة، أعادها إلى الدنيا، ومن سيعيش معها أيامًا أخرى، قطعًا ستكون أخصب أيام أعيشها على الإطلاق. سميتها شرفية عائد، بلا تفكير، وصادف أن كان بين حواري الشيخ صاحب الشأن مولانا الذي تغيرت حياة الروح على يديه، رجل في نحو الستين أو الخامسة والستين، لا أدري بالتحديد، اسمه عائد سلاليب، وكان معروفًا بالإغراق في الدروشة، يمشي حافيًا حتى في أقصى درجات

الهجير، يحمل في يده مبخرًا، ويطوف على البيوت في كل الأحياء، في جولات تستغرغ أحيانًا شهرًا كاملًا. يبخر أبواب تلك البيوت، يبارك سكانها، ودائمًا مبتسمًا، وقد قال صاحب الشأن في حقه مرات عديدة، إن عائد سلاليب، هو أقربنا إلى التقوى، ونحن نهتدي بتقواه.

حين ذهبت إلى عبد الرجال زافو في بيت الخدم المجاور للنُزل، والذي يتمارض فيه تلك الأيام بعد أن انفتحت عيناه على الحرية، وسعى إليَّ لأنتزعها له، وأيضًا كما أعتقد، فرارًا من وجود الفتاة شرفية في النُزل، فقد كان برغم كل ما حدثته به، وما حدثته به الفتاة نفسها، بعد طلب مني، وما طرأ على شرفية من تعديل طال مأكلها وملبسها، وسكناها، وأنوثتها، وأخيرًا مشيتها الخابة السريعة التي كانت ترهقني، وتقطع أنفاسي، إلا أنه ما زال يعتقد أنها فتاة جن في هيئة بشر تم تحسينها لاصطياد أوربي طيب مثلي، وإن كان لا يجهر بذلك الاعتقاد إلا لي وحدي، خوفًا من الأذى كما يقول، ناسيًا بأنه يجرحني حقيقة، ويعرف إن الفتاة تعيش الآن في قلبي، وأنا مقبل على الزواج منها في أقرب وقت.. حين أخبرته بأنني اشتريته من الأسطورة مستكة، وعليه أن يلملم أغراضه وذكرياته وخموله وأمراضه كلها، ويرحل معي، لم يصدقني أبدًا. اعتبرني أمزح، وكانت من عادتي أن أمزح معه في أحيان كثيرة، ليس تفضلًا مني على مملوك، ولكن لأن البشر هكذا في رأيي، خلقوا سواسية، ويجب أن يعيشوا سواسية، حتى نهاية الدنيا. نهض من رقدته الكسيحة، أو التي يجعلها كسيحة بإرادته، نهوض صبي صغير، قفز إلى رأسي وقبلها، واستقام في وقفته بعد ذلك، بلا أثر لتيبس الظهر الذي يشكو منه، ويمارس به الخدمة في بيت مستكة، في الأشهر الأخيرة. ربما كان ماكرًا بالفعل كما قالت سيدته، وربما شفي للتو حين سمع الأخبار التي كانت مفرحة حقيقة، وقد قرأت مرة في إحدى الصحف الإنجليزية، أيام كنت في لندن، عن اكتشاف طبي جديد سيهز العالم، اسمه العلاج بالأخبار المفرحة، جربه طبيب نفسي معروف، على

مرضى غير نفسيين، يشكون من علل مزمنة كالكساح والعمى وصمم الأذنين، وتم شفاء بعضهم من تلك العلل، شفاء تامًا، بينما خفت آلام من تبقى بصورة كبيرة. وقد أشادت كاتبة المقال، وهي مربية أطفال سابقة في السادسة والسبعين، بذلك الكشف العظيم، وأكدت أنها ستسعى بنفسها لتجربته، فهي من اللائي أصبن بالشيخوخة المبكرة، وأصبحت تنسى حتى نظرات الاشتهاء، وعبارات الغزل التي يدلقها العابرون في أذنيها.

سألني عبد الرجال، ووجهه الذي لا يرسم الضحك كثيرًا، الآن كله ضحكة. وجه ضاحك بامتياز:

- هل صحيح ما ذكرته يا عثمان؟، هل نلت حريتي أخيرًا، وسأخرج عن طاعة مستكة؟

بالطبع كان شراؤه من مستكة، هو الذي تم بوجود شهود من سكان نُزلها، ولم تطلب سعرًا غاليًا في الحقيقة، هو سعر عادي يناسب خادم عجوز حتى لو لم يكن عاجزًا بالفعل في الوقت الحاضر، فهو لا محالة عاجز في وقت قريب، أما نيل الحرية رسميًا، فهو أمر آخر، يحتاج إلى ركض طويل، في إدارات حكومية مختلفة، حتى ينجز. صحيح أنني قررت أن أعتقه بالفعل حين اشتريته، ويمكن أن أسمح له بالإقامة في بيتي بلا عمل، لو أراد ذلك، ويمكن أيضًا أن أسعى لتزويجه من أي امرأة ترضى به، لو كانت قد تبقت في عروقه رغبة في امرأة، لكن أخبرني الألماني فاير هاينريش، وكنت قد زرته مؤخرًا لتفصيل ثياب جديدة من أجل عرسي الوشيك، وثياب أخرى لشرفية عند امرأته إليانور، وأخبرته عن نيتي في تحرير عبد الرجال زافو من عبوديته، إن الكلمة بيدي وأستطيع أن أنطقها في أي وقت، لكن القرار ليس كذلك.

سألته مستفسرًا، ولم أكن قد فهمت ما يعني، فأجابني باقتضاب:

- إن هناك مئات العراقيل التي تقف حائلًا من دون تحرير مملوك.
- كيف؟

سألته مجددًا ولم أكن قد فهمت أيضًا.

- أوضح لك.

ردد الخياط:

- ستسأل عن نسبه، والمماليك بلا نسب معروف، ويمكن أن يكونوا ثمار علاقات سرية جرت بين أمهاتهم وأسيادهن، أو بين أمهاتهم ورقيق آخرين، وفي الغالب أو هذا هو الشيء المعروف، إن الأسياد لا يعترفون بنسبهم. ستسأل أيضًا عن الأسباب التي تدعوك لتحريره، وتقول إنها إنسانية بحتة، لا توجد مثل هذه الفقرة في عرف البلاد أيها الشاب.. أكبر إنسانية تمنح لمملوك، هي أن يوارى الثرى حين يموت، ويكون محظوظًا جدًا لو عثر على امرأة تنوح على فقده. ستسأل عن صنعته حين يتحرر، وتقول سيخدم في بيت أو سوق أو نُزل، وسيقولون ما دام خادمًا فليظل خادمًا إلى الأبد. هل فهمت أيها الشاب المتحمس؟

ابتسم هاينريش بقسوة، الألماني الذي تخصص في اقتناء السراري والعبيد، وصدر بسببه قانون ينظم تلك العلاقة، لا بد أعجبته إحداهن في يوم من الأيام أكثر من غيرها، وأراد مكافأتها بالتحرير، وواجه تلك العراقيل. أصبت بإحباط شديد، وكنت قد وعدت الرجل بتحريره.

سألت هاينريش مرة أخرى:

- هل توجد أي طريقة ملتوية أو غير ملتوية أسلكها؟،

فأجاب بأن ذلك ممكن، لكن لا نتيجة مضمونة.

تركت الأمر عند هذا الحد، وقررت أن آخذ عبد الرجال إلى مكان فيه شهود كثيرون، أقر بعتقه أمام الناس، ولا يهمني بعد ذلك إن تحرر رسميًا أو لم يتحرر. بقيت مشكلة وضحها لي فاير هاينريش قبل أن أتركه، وهي أن المملوك المحرر بهذه الطريقة، يظل لاصقًا بسيده إلى الأبد، وإن ارتكب مخالفة أو جريمة مثل السرقة أو القتل، أو القفز إلى

بيوت الآخرين وترويعهم، فإن سيده من سيحاسب، خاصة إذا كانت ثمة غرامات واجبة الدفع.

فكرت قليلًا في ذلك الكلام القاسي، هل أمضي قدمًا في تحرير عبد الرجال، والخادمة المسنة رقيون، بتلك الطريقة البعيدة عن الرسميات؟، أم أغامر وأطرق الأمر رسميًا..أم كحل نهائي يعفيني من كل تبعة، أتنصل من كل شيء وأهتم بعملي في السكة الحديد، وزوجتي المستقبلية.

لم أفكر كثيرًا، قررت أن لا أتراجع ما دمت قد وعدت، حتى لو جر علي ذلك مشاكل لا تحصى، وفكرت أن عبد الرجال لن يؤذيني بارتكاب مخالفات تضر بي وبسمعتي، وأنا الذي سأمنحه الحياة.

كان استقبال صاحب الشأن مولانا وحواريوه المخلصون لي في مقرهم، الذي يقع في أحد أطراف الخرطوم، ويمتلئ بالخيام الخضراء، والمريدين، وقدور الطعام، استقبالًا حاشدًا، وكانوا يعلمون مسبقًا بأنني قادم لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، عن اقتناع بحت، ونتيجة تفكير عميق ومقارنات بين الأديان قمت بها، ومن دون أن أتحرى كما فعلت في شأن تحرير المماليك، إن كان هذا الأمر سيضر بمستقبلي في البلاد أم لا؟، وهي محكومة في غالب شؤونها المهمة بالنصارى، والمتصوفة يعملون علنًا في التعليم، وهداية الضالين، ولكن بعيدًا عن أي احتاك بالسلطة، ومسؤولي جيرمان من هؤلاء الحكام، وأتعشم أن يكون ليبراليًا فلا يعتبر خروجي عن النصرانية جريرة، ويطردني، هكذا تعلمنا في بلادنا.

كان مساعدو صاحب الشأن جميعهم موجودين، الشيخ الساكت بعلمه الروحاني الذي يبعده عن الدنيا، ويمنعه الأكل والكلام، سوار الذهب، خال جبريل الرحال، منكفئ على نفسه، وغارق في حبات مسبحته اللالوب، يذكر الله، وبين لحظة وأخرى، يفيق، ليصرخ: حي قيوم، حي قيوم، فيردد خلفه الدراويش، عائد سلاليب بمبخره، ودروشته المتطرفة

وابتسامته. وكان من المفارقات العجيبة، أن عثرت على امرأة إنجليزية متوسطة العمر، كان اسمها جلوريا، والآن هي نسائم، وكانت عالمة آثار شبه معروفة في لندن، جاءت في زيارة عمل لأرض السودان، قبل ست سنوات، ولم تعد إلى بلدها أبدًا. لم تسلم فقط، وتبتعد بدينها الجديد، تمارسه حيث استقرت، لكنها التصقت بالطريقة الصاحبية الشأنية، تزوجت من أحد حواريي الشيخ، وصارت من الدراويش. كان منظرها غريبًا في القميص الأخضر المرقع، وغطاء الرأس الذي يتدلى حتى صدرها، ثم في إحدى حلقات الذكر الخاصة بالنساء في إحدى الخيام، وشاهدتها عابرًا. كانت تهتز وتصرخ، وتسقط وتقوم، فيما يسمى بتلبش الدراويش. أيضًا عثرت على شاعر إنجليزي قديم اسمه لاوري، كان قد أصدركتابًا شعريًا هاجم فيه الكنيسة وقساوستها، منذ حوالي عشر سنوات، واختفى بعد ذلك، لم يسمع به أحد، لأفاجأ بوجوده هنا، أخضر ومرقعا، وحافي القدمين، ينادونه باسم الشيخ الهلالي، ويحيطه أهل المكان بهالة كبيرة من الاحترام. ابتسمت له وخاطبته بالإنجليزية مبينا له بأنني أعرفه وقرأت كتابه، فرد بعربية صحيحة إلى حد ما، بأنه يرحب بي، وبروحي الهائمة. لكنه لا يذكر أنه أصدركتابًا من قبل.

كررت الشهادة ثلاث مرات، خلف الشيخ صاحب الشأن مولانا، كان ثمة بخور منعش الرائحة قد أطلق، طبق عليه تمر، طاف به أحد الحواريين على الجميع، وإناء به ماء زمزم قادم لتوه من الحجاز، شربت منه جرعة، وشرب الحاضرون، ولم أكن بحاجة لمن يعلمني الوضوء لأنني تعلمته منذ زمن، أثناء مراقبتي للناس يتوضأون أمام المساجد، أو في السوق حين يجيء وقت الصلاة، فقط أردت أن أتعلم شيئًا يسيرا من القرآن الكريم، من أجل الصلوات، ريثما أتعلم كل ما يخص الدين في المستقبل، وقد واظبت بعد ذلك لمدة شهرين تقريبًا وبشكل شبه يومي على حضور دروس التجويد. كنت في مرحلة ما قبل الزواج من شرفية، أتعلم السير

في الطريق الجديد، وفي نفس الوقت، انتظر جرح الختان حتى يبرأ وكان تجربة مؤلمة، لكنها مهمة من أجل أن يكتمل الإيمان. أجراها لي المصري فضلي الدباغ نفسه، بتوصية من الشيخ صاحب الشأن، مستخدمًا أعشابه، وقطعة من زجاج، وقصبة حشرت في مكان الختان، واكتشفت بأنه حقًا قد أجاد الحياة في أرض السودان، بتلك النشاطات المتعددة. وقد أمكنني في تلك الفترة، أن أتعلم الكثير وأصبح من الممكن أن أرتل القرآن بكثير من الإتقان والمعرفة.

كان ذلك اليوم الذي لا ينسى، هو أول يوم أدخل فيه مسجدًا، وقد مررت بجوار مساجد الطين والحجر آلاف المرات، اسمع آذان الصلاة، أسمع التكبير، وأرتعش بدروس الحفظ والتجويد، ولا أستطيع الدخول، إنه مسجد صاحب الشأن مولانا، وكان أخضر بلون ثيابه وثياب الدراويش، ومشيدًا بحجر صلد، وسط تجمع الخيام، وقد فرش من الداخل بحصائر خضراء أيضًا من سعف النخيل، علقت لوحات عليها آيات من القرآن على جدرانه، وتصاعدت من داخله روائح الإيمان، مختلطة برائحة عطر الند الذي يضخ من عدة مباخر منتشرة في المكان. صليت معهم صلاتي الأولى الحقيقية، وكنت قبلها أتدرب على الصلاة في بيتي، وغادرت ساحة المتصوفة، تخنقني أحاسيس شتى، وذكريات كبيرة وصغيرة، بعضها سيمحي غالبًا في وقت قريب، وبعضها قد يظل مهيمنًا إلى الأبد. لم تكن في نيتي أن أنضم للطريقة الصاحبية الشأنية، أسوة بعالمة الآثار، والشاعر الهجاء، سأمارس العبادة بعد أن أمعن في دراستها أكثر، بعيدًا، وحتى لو أتيت، سآتي للتعلم، وهذا ما فعلته بالضبط طوال فترة انتظاري ليوم الزفاف من شرفية.

- 22 -

حرية وانكسار

اليوم الذي سقط فيه جبريل الرحال في أحد آباره التي حفرها بنفسه، يتاجر بمائها، وجعل من طينها أثقالًا شديدة الوطأة، أكسبته القوة، كان يومًا عاديًّا جدًا، وكان سيكون أكثر عادية من ذلك، لولا أن تناقلت الأخبار في السوقٍ، ونُزل مستكة، وكثير من الأماكن الأخرى التي ربما غشيها جبريل، جارًا امرأته الصعيدية فردوسة، سقوط الرجل.

كان عبد الرجال زافو، قد سمي عبد الواحد، اسم اخترته أنا أيضًا، لأفهمه، أن العبادة للواحد الذي خلق الرجال، ولا عبادة لرجل مهما اغتنى أو تجبر. رضي أخيرًا أن يلغى اسمه القديم، وبكى بشدة، حين أخبره الشهود الذين جمعتهم في بيتي في حي سلامة، وكانوا يعرفونه ويعرفهم، أن لا عبدًا للرجال بعد اليوم. شرحت له باستفاضة، وشرح له الشهود أيضًا، إن منحة الحرية هذه، منحة شخصية مني، صعبة التوثيق في دوائر السلطة، كلمتي المشهود عليها، مقابل قرار لن يتم استخلاصه بسهولة. فهم عبد الرجال، أو عبد الواحد ما إردنا إفهامه له، استعاد الطمأنينة سريعًا، ومسح آخر دمعتين سيئتين من وجهه القديم، وأراد أن يبتسم، ثم تحدث بصوت خافت، مرددًا بأنه لن يتسبب في أي شيء يضر بي وقد أكرمته.

كانت مستكة حاضرة ذلك الاجتماع بدافع العشرة التي يبدو أنها تذكرتها ووضعتها في الاعتبار بعد أن أعطيتها ذلك الدرس عن الإنسانية، وكانت المرة الأولى التي تدخل فيها بيتي، فلم تكن ثمة مناسبة أو ضرورة

تدخلها قبل ذلك، ورأيتها تمسح البيت بنظراتها، ولا يظهر على وجهها أي تعبير. كان قنطار، الخادم الآخر الذي يعلف دواب النُزل، وينظف فضلاتها، ويجلب لها الماء وكان في السابق ملكًا لفاير هاينريش، حاضرًا أيضًا، وهمس في أذني، متوسلًا أن أشتريه هو أيضًا وأعتقه لوجه الله، وقلت له: لا أستطيع في الوقت الحاضر. دنيا العرجاء، خادمة مستكة التي تصنع الطعام، وتنظف غرف النُزل، وتصحب سيدتها في تسوق يوم الأربعاء الخاص بأعياد الخميس الأسبوعية، كانت حاضرة هي الأخرى، وأمسكت بمكنسة من جريد النخل، وجدتها ملقاة في المكان، كنست بها حوش البيت، وأسرعت إلى ركن الطبخ تبحث عن مواد تطبخها، ليس بأي دافع سوى دافع الاعتياد على الخدمة. ولأن فاير هاينريش، خبير في شؤون الرق، ويهوى مشاهدة ردود الأفعال على وجوه المماليك حين ينالون حريتهم، كما أخبرني مرة، فقد جاء، وظلت نظراته مثبتة على وجه عبد الرجال من ساعة حضوره، وتحريره، حتى انصرف، رافضًا بشدة أن يظل في بيتي، ويتحدث عن صديق قديم له، تحرر منذ عامين، يدير تجارة في الضواحي وإنه لاحق به. أتمنى لو كان ذلك حقيقة، أن يستطيع الرجل المحرر ممارسة مهنة أخرى غير الخدمة، ويلحق بما تبقى من العمر، ليعيش أيامًا هادئة، فقط وللأسف الشديد، كنت أعرف دافعه من تلك العجلة لمغادرة بيتي، إنه الدافع الذي يؤلمني ويجرح مشاعري حتى النهاية، دافع الخبل والخرافة وتصديق اللامنطقي.. أن شرفية جنية ترتدي ملامح البشر.

لم يكن صاحب الشأن مولانا ولا أحد من حوارييه المهمين حاضرًا، كانوا في ليلة تهجد كبيرة في بلدة قريبة من العاصمة، اعتادوا إقامتها سنويًا، وصادفت ذلك اليوم بالتحديد، وجاءنا شاب من دراويشه الصغار،لم يترك أثرًا، ولا كانت حي.. قيوم، التي يرددها بين الحين والآخر، تشبه تلك التي يرتبك بسماعها الحاضرون.

كانت من بين من حضروا تحرير عبد الرجال، وفاجأني حضورها، بشدة، وشكل استياء عامًا، تقافز من الوجوه والألسنة، تلك المرأة أبرهيت. الحبشية التي تمارس المتعة الكئيبة في زقاق معتم قذر، ويصادقها عبد الرجال منذ زمن، ويسرق لها ساعات مخصصة من خدمته عند مستكة، كلما سنحت فرصة، كانت كعود حطب يابس، بلا وجه مغر، ولا جسد يفور ويجذب، ولا ملابس مناسبة تتفضل على كآبة الجسد وتستره، ولطالما استغربت من كونها ما تزال تعمل في مهنة لا تملك من أساسياتها شيئًا، وأيضًا من اندلاق المملوك فيها بهذه الطريقة. لم يكن لعبد الرجال دخل في حضورها، أعرف ذلك، ولا يوجد شخص مهما تفاقمت درجة غبائه، أن يدعو امرأة كهذه في يوم سيصبح من بعده حرًا طليقًا، ويستطيع زيارتها في أي وقت، بلا سرقات ولا استياء من أحد. كان مثلي ومثل الآخرين، اندهش بشدة حين رآها، وحاول إخراجها من المكان، ولم تستجب، وظلت موجودة حتى انتهى الطقس، وركب الرجل الحر الجديد، حمارا اشتريته له، وغادر في اتجاه الضواحي..كانت تتبعه خابة على قدميها، تصرخ يا عبد الرجال، ولا يجيب، فلم يكن عبد الرجال بكل تأكيد، كان عبد الواحد زافو في ذلك اليوم الذي لن ينساه أبدًا.

بعد ذلك بيومين، وصلت إلى الخرطوم أخبار مقلقة، وتناقلها الناس في البيوت والأسواق وعلى الدكك الطينية، في ساعات الثرثرة. كانو يتحدثون عن قافلة تجارية قادمة من وادي حلفا، تعرضت للقرصنة من قطاع طرق محترفين، في المسافة بين الصحراء والنيل، وأبيد معظم ركابها، والذين فروا، مات معظمهم في الصحراء عطشًا. انقبض قلبي بشدة وتذكرت صاحبي سيف القبيلة، لقد سافر منذ حوالي الخمسة أشهر، وبعد خروجه مباشرة من السجن، في ذلك اليوم الذي التقى فيه الغجرية سواتر، ورفضت نزوته العابرة، مطالبة بالرباط الشرعي، وكان لا بد أن يذهب متتبعًا تجارته، وأعرف أنه لا يمكث كثيرًا في مصر، ويعود شاقًا

الطريق في أقرب فرصة، حيث يبيت ليلة في بيت سكر، ويركب القافلة في اليوم التالي. أخذت أكثر من الأسئلة للتجار والمتسوقين الذي أظن بأنهم يعرفون شيئًا عن تلك المأساة، وكانت أخبار متباينة، لم أعرف أيها أصدق، وذهبت إلى مهبط القوافل الكبير، أتحرى، التقيت الريس عطا الفضيل، الذي كان مقربًا من سلطة الاستعمار، ويعمل مسؤولًا عن تسيير القوافل، يعرف ركابها الدائمين، وغير الدائمين، ويملك سجلًا من الورق عليه أسماء من ركبوا ومن هبطوا لنصف قرن مضى، وكان سيف القبيلة معروفًا، وكفيلًا بأن يذكره الرجل المسن، من دون أن يراجع أوراقًا. سألته مرتبكًا عن ذلك الحادث، ورد علي بأن ما حدث كان حقيقة، وقد سافر عدد من المتطوعين للبحث عن الجثث ومواراتها، أو إن كان ثمة أحياء يلتقطونهم، لكن صاحبي العمدة، لم يمت، لقد عاد في قافلة أخرى قبل أن يحدث ذلك بثلاثة أيام، أي هو موجود في البلاد منذ شهر تقريبًا. أضاف: لقد ماتت السرة عجب التي تقرأ حظ السفر في وادي حلفا، ولم يعثروا على بديلة في وزنها، حتى الآن. كل النساء اللائي تقدمن لملء مكانها، كن بلا خبرة. لو كانت السرة حية لأنذرتهم، ولما حدث ما حدث.

منذ شهر؟

أخذت أردد الكلمة مستغربًا.

منذ شهر ولم أره؟.. أين ذهب سيف القبيلة؟، لا يعقل أن يذهب إلى أرض البطانة، من دون أن يمر لتحيتي، والجلوس معي عدة أيام كما اعتاد حين يسافر، وحين يعود. غير معقول. أخذت أنكش ذاكرتي باحثًا عن مكان آخر، يمكن أن يكون قد ذهب إليه، مكان غير بيتي وغير نُزل مستكة، وغير السوق الذي لم يظهر فيه، ثم خطرت في بالي فجأة، سواتر الغجرية، وأيقنت أن صديقي لا بد عريسا أو صاحب نزوة في نُزل متوار عن الأنظار، لا أعرفه. وكنت على حق، انطلقت من فوري إلى مهبط قوافل الوسط الذي أذهب إليه لأول مرة، وسألت عن سواتر بائعة الفول

المطحون وقصب السكر، وأخبرني العشرات ممن يعرفونها، بأنها في شهر عسل تقضيه مع عمدة من أرض البطانة، اسمه سيف القبيلة.

حين ظهر الأعرابي في آخر الأمر، كان مضعضعًا، ونحيفًا، وغائر الصدغين، وكان بلا مال ولا جاه ولا معنويات، فقد ذهب إيراد رحلته الأخيرة كله، في تلك النزوة الكبيرة، وكان مئات من الجنيهات المجيدية، التي حصدها من بيع الإبل في مصر، إضافة إلى عشرات الأساور الذهبية والخواتم، وجنيهه التذكاري الأثير، الذي لم يفارق جيبه أبدًا منذ أن كسبه، ويعتقد جازمًا أنه جنيه الحظ، ولا بد أن حظه قد ضاع. أخبرني أن سواتر الغجرية لم تعد موجودة، استيقظ منذ نهارين ولم يعثر عليها في نُزل بخيتة، الذي كان نزلًا متواضعًا في حي شعبي، قصده لقضاء شهر العسل معها، نكش العاصمة شارعًا شارعًا، ولم يعثر عليها، وكاد يموت من طعنة سكين، لأنه اقتحم عشش الغجر في أحد أطراف العاصمة، وتوغل إلى حيث حريمهم، اللائي يعرفن بتخففهن من الثياب، وجلوسهن عرايا داخل البيوت، وأيضًا لم يعثر عليها، ولم يكن معه مال يضيعه في الأكل والشرب، واستئجار دابة، ومن ثم جاء إلى بيتي جائعًا، عطشانًا، ويمشي على قدميه.

كان مُرحَّب به في بيتي بالطبع، وإن كنت قد غضبت من نزوته تلك، ولم ألمه، خوفًا من إيقاد ناره أكثر. أخبرته بديانتي الجديدة، وإنني قد صرت من ملته، ففرح برغم تضعضعه، وخطاياه، واحترم حماسي بشدة، فلم يبحث عن رقيون في ذلك اليوم، ليرسلها من أجل أن تحضر له العرق، ولو بحث فلن يجدها، لأنها تحررت أيضًا، عُدل اسمها إلى رقية وذهبت.

لقد أحببت سيف القبيلة فعلًا، أحببته بغرابته، وسخائه، وتزاحم الناس على مروءته في كل خطوة يخطوها، فالذي علمني الحياة الرغدة، وأدخلني سكك التجارة، لن يخرج من قلبي أبدًا.

قضى ليلته تلك عندي، كان صامتًا، وأواسيه في ماله الذي ضاع،

ولا تفعل مواساتي شيئًا، يردد بين حين وآخر: سأذبحها بنت الكلب، وأعرف أنه صادق لو عثر عليها، وأغلب الظن أنه لن يعثر عليها أبدًا. كان الغجر سادة التلاعب بالمواقف، ونساؤهم سيدات في قهر القلوب، وسبي الدم من آخر مكان يوجد فيه.

في الصباح غادر سيف القبيلة إلى موطنه رافضًا عرضًا قدمته له، أن أمنحه مالًا يدخل به سوق الدواب، يبيع ويشتري ويسترد شيئًا من رأس ماله الذي ضاع، فلم يقبل، وصرخ في وجهي غاضبًا حين ألححت. كان بحاجة إلى عدة جنيهات توصله إلى موطنه ولا شيء آخر. لم ينتظر ليحضر عرسي الوشيك على شرفية، وقال لي: مبروك يا عثمان، ومضى، ووجدت نفسي بلا وعي أتعلق بثيابه المتسخة وأبكي. الشيء الذي لم أفعله حتى وأنا طفل وبحاجة إلى أب أتعلق بثيابه وأبكي.

الذي قيل عن حادثة جبريل الرحال، وردده كثيرون أمام شرطة الخيالة الذين تحروا الأمر، ممن زعموا بأنه تمطى أمام أحد الآبار، وأطار أزرة قميصه، وسقط فجأة في البئر، وهبوا إلى نجدته، وأخرجوه ميتًا، لم يكن صحيحًا أبدًا، الصحيح والمنطقي، هو الذي رددته فردوسة الصعيدية أمامي وأمام مستكة في النُزل حين جاءته بعد أن قُيدت الحادثة قضاءا وقدرًا. رددته وهي نضرة، وضاحكة الوجه، وتتلذذ باحتساء شراب القضيم المرطب. قالت:

- أنا أسقطته، نعم أسقطته.

ثم أضافت وهي تنظر إلى مستكة:

- أريد أن أعود إلى أهلي يا أم.. هل تعيدينني؟

لن تكون مستكة قاسية أمام تلك النظرة المستعطفة، ولن أكون بلا قلب أيضًا، وأسعى لتسليمها للسلطة، بعد تحررها العظيم، الذي هو شبيه بتحرر شرفية، و عبد الرجال، ورقيون، لتقضي عمرها الغض في سجن آخر، بالرغم من أنني ضد القتل، فقط طلبنا منها أن تصمت، أن تسعى

جاهدة لترسم على وجهها علامات الفقد المؤثرة التي اعتادت النساء على رسمها، حتى وهن كاذبات. لا ضرورة لنشوتها في الوقت الحاضر، ولتنتشي كما تشاء حين تعود إلى أهلها. فهمت، وحصلت على مساعدتي ومساعدة مستكة التي زودتها بقميص كئيب أسود اللون، كان موجودًا في خزانتها، من أجل الحداد النظري، رشت على شعرها شيئًا من تراب، يوحي بأنها مرغت رأسها في الأرض حزنًا، منعت عنها الأطعمة الدسمة والمحلاة في ذلك اليوم، وأجبرتها أن تأكل ثريد القمح، عاريًا بلا مرق، وكنت في صباح اليوم التالي، أرافقها وهي تبكي بلا خبرة في محاكاة بكاء الحزينات، إلى مهبط القوافل الكبير، كانت بيدها صرة تحمل زادًا متقشفًا من تبرع مستكة، وبعض الجنيهات المجيدية، من تبرعي الشخصي، أسلمها للريس عطا الفضيل، الذي سلمها أمامي لأسرة مسالمة من أقباط مصر، كانت عائدة إلى بلادها، بعد أن انتهى انتداب الأب إلى أرض السودان، وأكد الرجل رب الأسرة، واسمه رأفت دانيال، بأنها ستكون تحت حمايته طوال الطريق، وسيوصلها حتى بيتها في تلك القرية الصعيدية. أكثر من ذلك، تعهد بأن يرسل للريس عطا ما يفيد بأنها وصلت بأمان، فقط لو كان طريق السفر آمنا. وهنا أفاد الريس عطا بأن السلطة الحاكمة، قد بدأت تقليدًا جديدًا، وهي أن ترسل نفرا من الشرطة المسلحين بالبنادق، مع كل قافلة سفر، بعد تلك الحادثة الأخيرة.

انتهت مسألة المرأة المجرورة طوال حياتها الزوجية التي لم تعمر طويلًا كما قدرت في أول يوم رأيتها فيه، انتهت بتواطؤ ما كنت أريده أن يحدث، لكنها مستكة من ورطني في ذلك التواطؤ حين أرسلت في طلبي، بعد أن باغتتها المرأة في نُزلها واعترفت بمنطق، وفرح، وبلا أي شعور بالفقد أو شبه الفقد، بأنها آثمة.

ماذا تبقى لي في حياتي الجديدة لأفعله؟

أسأل نفسي وأجيبها على الفور بلا تردد:

شرفية.. شرفية الجميلة، المعدلة بريشتي وريشات أخرى، استوردتها من خبرتي في تذوق الجمال، والتي أصبحت تبخ العطر على ثيابها كأي امرأة تعودت على بخ العطر منذ الصغر، والآن خاضعة لطقوس العرس التقليدي السائدة في البلاد بكل تفاصيلها، بناء على طلبي، وبإشراف مستكة شخصيًا. كنت ممنوعًا من زيارتها كما يقتضي العرف، حيث تقضي ساعات طويلة، تجلس على حفرة الدخان التي جهزت لها في غرفة الزاجل حيث تقيم، تتعطر بالطلح الذي يوقد في الحفرة، وتمسد جسدها بعجينة العطر الخاصة بالعرايس المحليات، المسماة (الدلكة)، والتي تصنعها نساء متخصصات، استعدادا لملاقاتي قريبًا في ليلة الزفاف. تلك اللحظة تذكرت الرحالة بارتليت فجأة، تمنيت أن يحضر من عمق إفريقيا، ليعدل آراءه عن المستقبل بلا ضغط من أحد، ينحني عبر مائدة تجمعنا، ويمسك بيد شرفية الجديدة، يقبلها باحترام، ويعتذر عن التطفل، حقيقة هذه المرة، وليس من خوف.

- 23 -

الحلو والمر

ليلة العرس أخيرًا.

ليلة القرب الحميم من الفتاة الرائعة التي غيَّرتها وغيرتني، الفتاة التي لا تشبه الشقراء هيلينا دا سيلفا، ولا الكاتبة المشردة دوريس الحولاء، ولا كل نساء الحضر اللائي عرفتهن سنينًا، وصرن من الماضي الذي أبقيته وراء ظهري، كما أبقيت أشياء أخرى كانت هامة، والآن لا شيء.

ولأني لست صاحب خبرة في تجهيز، أعراس أرض السودان، وشاهدت تلك الأعراس بعد أن جُهزت، واكتملت هيئتها، أوكلت الأمر إلى مستكة، وأحس بسعادتها أنها تقدم شيئًا، وقد عادت أكثر سلاسة من أيام معرفتها الأولى، وكان أن فترت علاقاتي بها كما هو معروف في فترة من الفترات، حين واجهتها بحقيقة أنها أم شرفية، وما زلت أؤكد حتى الآن، إنها أمها، ولا يمكن أن يتقارب وجهان هكذا في الملامح، بلا صلة رحم قوية، ولا يمكن أن تقوم بكل ما قامت به من أجل الفتاة، حين لم تعد لغزًا، ما لم تكن قد عانت في حملها، ووولادتها. قبل أن تدلقها رضيعة في الخرائب، وتتفرغ بلا قلب ولا عبء لمد ظلالها في أرض السودان.

لم يعد موضوع الأمومة المعترف بها ضروريًا في هذه المرحلة، وقد كبرت الفتاة بعالمها الذي وجدت نفسها فيه، اتسخت بسيرة الجن، وانعتقت أخيرًا، والآن عروسا تزين لها ساحة العرس. أيضًا كان الدور البديل الذي تلعبه مستكة، متقنا بشكل لا يدع مجالًا للشك، أنه دور الأم الحقيقية. هي لم تفزع من الفتاة، وخدمها يفزعون، ولو لم تكن الفتاة من

دمها، لسارت في نفس النهج الذي سار عليه الآخرون. با ختصار شديد، كان عرسي سيقام على شرفية عائد، ابنة صاحبة النُزل مستكة.

كان من رأيي الشخصي أن تنصب خيمة العرس أمام بيتي في حي سلامة، معتذرا عن إقامته في ساحة الطريقة الصاحبية الشأنية، باقتراح من الشيخ صاحب الشأن مولانا. أولا لن يكون زفافاً تقليديّاً كما نويت أن أفعله، والمتصوفة لا يضربون الدفوف، ولا يسمحون للبهجة أن تتمدد إلا بقدر محسوب، أو صوت من أصوات المغنين أن يصدح في مملكتهم. فقط هي دعوة غداء أو عشاء تقام، تردد خلالها الأذكار والمدائح النبوية، ويتفرق الجمع، وينفرد العريس بعروسه حيث يريد، ولا شيء آخر، بينما العرس التقليدي، ممتلئ بالطقوس، ويحضره الرجال والنساء والأطفال، يلعلع فيه المغنون بحناجرهم، ويقدم شعراء الغزل المحليون، قصائد العشق ملتهبة، ويمكن أن أتبع التقليد بلا إسفاف. لم أجد في الأمر تعارضا مع ديني الذي اعتنقته، هو طقس من طقوس الفرح، ينتهي بانتهاء ليلة الفرح.

الذي حدث أن مستكة لم تقبل باقتراحي، أرادت لعرس شرفية أن يقام أمام بيتها، في تلك الساحة الكبيرة، التي شهدت تعرق جبريل الرحال وانكساره، وتحوله معنويًا إلى امرأة قبل أن ينقذه المتصوفة، ويعيدونه إلى الحياة، كانت فلسفتها في ذلك الأمر، أن حفلات الأعراس عادة ما تقام أمام بيت العروس، وبعدها تنتقل إلى بيت الزوجية، وكان هذا صحيحا بكل تأكيد.

نصبت خيمة القماش الحمراء المزركشة، المستأجرة من محل في سوق الرواكيب يؤجر الخيام، وحصائر السعف، في المكان. جاء أهل الجوار جميعهم، رجال ونساء وأطفال، متأنقين في ما يظنونه أناقة عرس، ومعطرين بعطور الصندل والمحلب، والكافن كافن، التي تأتي من مصر وإفريقيا في تجارة القوافل، وتباع بأسعار عادية في سوق الشمس. قبل

العصر مباشرة، فرشت مائدة الاحتفال، وكانت أصناف متنوعة من الطعام الشعبي، صنعته نسوة الجوار بمشاركة دنيا خادمة مستكة، وقمت بدفع تكاليف خاماته. صلينا العصر في المسجد الطيني الصغير، الذي أدخله لأول مرة، أتحسس مواضع الإيمان فيه، وأتذكر تلك الدروس التي كانت وما تزال تعقد فيه، وتصيبني بالرعشة كلما عبرت. صلى بنا العصر، صاحب الشأن مولانا بعد أن احتفى به الإمام الرسمي للمسجد وقدمه للإمامة، وكانت ثمة خطبة صغيرة أعقبت الصلاة، تبعها عقد القران الذي قام به صاحب الشأن أيضا، وبين فيه المهر الشرعي الذي قدمته، وكان مجزيا..

سئلت: هل ترضى بشرفية عائد زوجة لك؟، قلت: نعم. وكررتها.. نعم.

سئل الشيخ عائد سلاليب الذي دخل على العروس في نُزل مستكة، وجاء بموافقتها، بوصفه وكيلا شرعيا اقترحته عليها، ووافقت: هل ترضى موكلتك بعثمان زمزمي زوجًا؟.. قال نعم.

ورفع مبخره المتقد، بخر به وجهي، صرخ: حي قيوم.

كان تاجر الحبوب المعروف الفاضل مسيك، شاهدًا متجانسًا، وكبيرًا، ومفخرة لكل متزوج، أن يشهد في عرسه. والشيخ سوار الذهب الرحال، شاهدًا آخر، تجاوز مرحلة الحزن على ابن اخته الغريق، ولم ينكفئ على نفسه كثيرًا في تلك الغيبوبات التي عرف بها.

قُدم التمر الفاخر المسمى القنديل، على وعاء مزخرف من الخشب الرقيق، كفاكهة مباركة في كل طقس يود الحاضرون جميعهم، أن تحل فيه البركة، تليت آيات الزواج و الذرية، قيلت مآثر متعددة، تأتي بفعل المصاهرة، وانتهى عقد القران سلسًا كما أردت، وشرعيًا كما أردت، فقط سقطت من عيني دمعتان حقيقيتان وأنا أتذكر صاحبي سيف القبيلة، أتذكر سخاءه، وهيبته، وقلبه الذي طالما اشتعل حرارة، حتى أطفأته غجرية

متسكعة في الخطايا، تبيع الفول المطحون وقصب السكر، أيضا افتقدت عبد الرجال.. أقصد عبد الواحد، افتقدت المكر الجميل الذي كان سيمكر به الليلة، وتمنيت أن يكون بعيدًا في الضواحي بالفعل، يحاول أن يلج تجارة البرسيم وعلف الدواب، التي حدثني عنها، بصحبة زميله المحرر منذ عامين. ولا يكون مختبئًا في العاصمة، وقد استعاد اسم الذل ذلك، والتصق به في خدمة سيد جديد. تمنيت ذلك حقيقة، أن يكون توقه للحرية حقيقيًا ونابعًا من قاع قلبه، وليس مؤقتًا، ليفر من بيت مستكة المهلك، غزير الزوار. ولا أنكر أن لحظة تذكر طفيفة، خطرت ببالي، احتلها أبي بائع الورد القديم، وأختى مدربة السباحة، وصديقي رامي القرص بيتر مادوك، أولئك الذين تركتهم خلفي، ولا أعرف إن كنت سأراهم مرة أخرى أم لا؟، وإن كانوا سيتقبلونني بعقيدتي الجديدة، ويتقبلون عروسي، لو قدر لي أن أراهم.

الليل ليس للمتصوفة ولكنه للآخرين.

انصرف صاحب الشأن مولانا وحواريوه يمشون على أقدامهم، والليل يقبل، والمسافة إلى محل إقامتهم بعيدة، فقد انتهت مهمتهم، والآن أضيئت ساحة العرس بفوانيس متعددة، منحت المكان شروقًا طارئًا، تمددت الزغاريد من حلوق نساء تعودن دلق الزغاريد، تعودهن دلق النواح، وكن من ساكنات الجوار، ومن أحياء أخرى مجاورة سمعن بزفاف عثمان الإنجليزي، على فتاة عرفت لعشرين عامًا بأنها فتاة الجن. لم ألمح أي خوف عابر في أي وجه تفرست فيه عنوة، حتى بعد أن خرجت شرفية من عزلة التجهيز في نُزل مستكة، وجلست بجانبي، محناة الأطراف، ومزينة، بالذهب والقصدير، وفي قمة الجمال الذي فاق في تلك اللحظة جمال أمها، وحللت الأمر بأن أحلته إلى مثل شعبي شائع في أرض السودان يقول: الموت في وسط الجماعة عرس. وتبسمت، ما أبعد الموت من العرس، وما أحلى شرفية التي لولا سمعتها القديمة،

لخلبت ألبابهم جميعًا.

كنت أرتدي الذي التقليدي المعروف، الثوب والعمامة والشال على الكتف، فصلته عند فاير هاينريش، الذي كان يجيد تفصيله أيضًا بجانب الزي الإفرنجي، هذا الألماني مثل شكري الدباغ، لقد صمم على الحياة هنا، ويقتنصها بمئة حيلة وحيلة. كنت أحمل سوطًا رفيعًا على يدي، وأضاف حذاء جلد النمر الغالي، إلى مظهري نكهة اعتبرتها محلية، خاصة أن شمس الأشهر الطويلة التي قضيتها في تلك البلاد المشمسة، قد أضفت على الجلد لونًا أقل أوروبية.

الآن أنا وعروسي الجميلة نستلم المكان ونرقص، لم تكن شرفية تعرف الرقص فيما مضى، ودربتها مستكة على بعض الرقصات التي لا بد أن ترقصها العروس الراقية ساعة زفافها، رقصة الحمامة، رقصة الفوضى التي يتطاير فيها الشعر، ورقصة الثعبان التي يتلوى فيها الجسد، حتى لكأنه بلا عظم. أدتها شرفية، ولم تكن بارعة جدًا، لكنها أعجبتني، وزغردت النساء الموجودات في داخل الحفل بلا وجل، عملًا بمثل الموت في وسط الجماعة عرس. وفي مشاركة مؤثرة، قدم لي لاعبو كرة القدم الشباب الذين دربتهم وفهموا، كرة كبيرة صنعوها من الخرق، كتبوا عليها اسمي عثمان زمزمي، واسم عروسي شرفية عائد، بخط عربي أصيل، ومثل عادة حفلات الترفيه التي تقام في تلك البلاد، كان لا بد أن يأتي شاعر، أي شاعر, ليشارك. وهكذا سمحت مستكة، منظمة الحفل المكلفة مني، لواحد من شعراء قبيلة الجعليين المعروفين، واسمه الزاكي حركة، أن يقف عدة دقائق في وسط المكان، قضى نصفها يقرأ قصيدة شعبية، لم أفهم منها سوى عدة حروف متفرقة، ونصفها الآخر في مغازلة الفتيات الأنيقات حسب تصورهن. يلتقط نظرة من هنا ويردها، ويلقي نظرة هناك وترد له.

كانت المشكلة الكبرى في تلك الليلة، حين سمع حفيد المعمر

عسكر، بأن عرسًا استثنائيا بين خواجة وامرأة كانت جنية، يقام أمام نُزل مستكة، الرجل الذي احتل مكان جده في السوق برغم استياء الجمهور، كان يطمح أيضًا لاحتلال مكان الجد في الحفلات، وحصد المزيد من المال. رأيت رفيقه محصل النقود الهندي يكلم مستكة وهو يهز رأسه، ومستكة تشير بيديها هنا وهناك، وأتخيل صوتها قد ارتفع، وفي النهاية توصلا إلى حل مناسب كما يبدو، أن يبدأ حفيد عسكر الحكاية، ويواصل أو لا يواصل، حسب رد الفعل الجماهيري، وحين وقف في الوسط، وردد: كان صابر مولى جدي، يعشق ثمار الدوم.. ارتفع السخط هادرًا: اذهب.. اذهب.

ولم يكن الأمر بحاجة لتفكير عميق لأعرف، إنه يحاول اختراع قصة مرادفة لما كان يحكيه الجد، لكن بدايتها فاشلة بامتياز، لأن الملوك لا يمكن أن يعشقوا الدوم.. فاكهة الفقراء.

فجأت عرى رجلان لا أعرفهما، ظهريهما ودخلا ساحة الرقص، انحنيا أمامي. كان بيدي سوط جلد الثور المكمل لأناقة العرس كما قلت، ولم أكن أنوي استخدامه في جلد أحد، لم أكن مهما فعلت وعشت واحتككت وأسلمت وتغيرت حياتي، أملك صلاحية استخدام ذلك الطقس، حتى لو كان ذلك في عرسي. هنا مئة علامة استفهام كبيرة ستقف ربما في أذهان كثيرين لم يتذوقوني بعد، أو لا يريدون تذوقي أبدًا، وهو أمر وارد. أن يعتبر جلدي لعراة الظهور، تصرفًا استعماريًا لا أريده ولم أرده في يوم من الأيام. خرجت من الساحة مسرعًا، وعدت إلى حصير السعف الملون، الخاص بالعروسين، تاركًا مدمني الجلد يئنان، وهما في قمة الحاجة إلى إرواء العطش، وأيضًا إلى زغرودة من امرأة جميلة، إكرامًا للشجاعة.

القوس مغني الربابة، الساعي الذي يعمل عند جيرمان قرنفل، غنى أغنية لم أفهم كلماتها، وعرفت من سماعي لكلمة خواجة، تتردد

بين مقطع ومقطع، إنها أغنيتي وارتجلت لأجلي بمناسبة العرس، ودخل جيرمان نفسه، طرقع أصابعه أمام صوت المغني عدة مرات، في تلك الحركة الشهيرة المساة الهز، وجاملته بأن دخلت مرة أخرى، طرقعت أصابعي مثله، وحياني القوز بأن انحنى، رافعًا يده.

انتهى الحفل أخيرًا وليل البلاد المعتم في كامل تسكعه، لم يكن هناك سكارى يفسدون الأجواء، لأن شرطة الخيالة المكونة من الإنجليز والمصريين، كانت موجودة، ويحب أفرادها مرمغة السكارى في الأرض، وتعليقهم على أعمدة الخشب، وجلدهم وإجبارهم أن يستفرغوا ما شربوه، قبل أن يسمح لهم بحضور تلك المناسبات.

ذهبنا أنا وشرفية إلى بيتي في حي سلامة البعيد، راكبين عربة كارو مزركشة بالقماش الملون، والأزهار التي لم تكن من ضمن بهارات زركشة زفات العرايس، واستحدثتها، آملًا أن تصبح تقليدًا، يتبعنا أفراد من شرطة الخيالة أنفسهم، كوقاية لمواطن ما زال يعتبر إنجليزيًا، برغم تمرده على الدم. كان يقود تلك العربة، قنطار خادم مستكة، الذي أصر على قيادتها، بلا وجل كما كان يحدث من خدم مستكة، وطوال الطريق يئن، يلح علي أن أحرره، وأسميه عبد الواحد، كما حررت عبد الرجال وسميته.

الآن أنا وشرفية وحدنا، عالقين برباط الحب والزواج والمستقبل.

دخلت شرفية إلى البيت تمشي في خفة، أسندها بيدي اليمنى، بينما اليسرى تعبث في شعرها المتماوج بزيت جوز الهند، كان البيت مضاء بالفوانيس، أوقدها عمال أرسلتهم مستكة قبل أن ينتهي الحفل، وأرسلت معهم قارورة عطر شفيف، رشوها في المكان وغادروا.. حاولت أن أرشدها إلى مخابئ بيتي الصغير الذي سيصبح بيتها، وهمست في أذني: في الصباح.. في الصباح يا عثمان. وكانت همسة سحر، دوختني، رددت: آمنت بالله، وكانت جملة استمعت إليها كثيرًا تردد من قبل المسلمين، حين يدهشهم شيء إلى درجة الدوار، وكنت مندهشًا، ودائر الرأس

ومسلمًا يحق لي أن أردد آمنت بالله. آمنت بالله.

قدتها حسب عجلتي وعجلتها إلى مخدع الزوجية الذي أثثته بسريرين من الخشب المنسوج بالحبال، من نوع غال، وخزانة من القماش عليها رسومات لورد وفراشات، وخلية نحل، وكان ثمة فانوس خافت الضوء، يمنح اللحظة طعمها. لمستها كما يفترض أن تلمس العروس المشتهاة، واستقبلت لمستي في حياء..

لا حياء أيتها المشرقة. لا حياء اليوم.

ابتدأنا الحميمية.. غرقنا في الحميمية.

غرقنا.

غرقنا.

غرقنا.

لا أدري كم دقيقة أو ساعة نمت بعد تلك السهرة الذهبية، التي امتدت حتى الواحدة بعد منتصف الليل، حسب ساعتي البياجيه السويسرية، التي اشتريتها من دونان غريسر، خصيصًا لأتأنق بها يوم العرس. كانت في أنفي رائحة غريبة، رائحة عطن، رائحة أوساخ، رائحة جرذ ميت، مختلطة برائحة ليمون حامض، فتحت عيني في بطء وتوقفت في المسافة بين أن أفتحهما حتى النهاية، أو أغلقهما إلى الأبد.

كنت أرقد عاريًا في أرض قذرة، داخل عشة من الصفيح، ثمة جرذان ميتة، وطيور سوداء محطمة الأعناق، وآنية من الفخار مكسرة عند الحواف، وسائل لزج كأنه دم، يخرج من بين فخذي، ويركض في المكان، وكانت شرفية تجلس أمامي، سمراء ونحيلة، ترتدي قميصًا بلون الأرض بلا أي زينة ولا إضافة، شعرها مقصوص كأنه لصبي، وبين شفتيها ليمونة مقشرة، تمصها في تأن.